

عدد خاص 120 صفحة

الذكرى الخمسون لرحيل العلامة **محمد الفاضل ابن عاشور**



العربية

Leaders

العدد 52 • السعر : 2,5 د.ت • أبريل 2020

طوق النجاة للصحة والاقتصاد

بوبكر بن فرج
كيف غيرت أوبئة كبرى
مجرى التاريخ

محمد ابراهيم الحمايري
سد النهضة الإثيوبي: حين
تفقد هبة النيل هيبتها

عبد العزيز قاسم
الأطباء هم
«أهل مكة»...

د. منجي الزيدي
الإنسان في مواجهة الجائحة:
ماذا يقول الفيروس؟

فائز في فئة الوقود



carburants
Agil
Premium

LA MEILLEURE PROTECTION
POUR VOTRE MOTEUR



À votre Service

الافتتاحية



• بقلم عبد الحفيظ المرغام

سياسيات مُؤنّسة لعالم جديد

نافلة القول إنّ ما قبل جائحة كوفيد-19 وما بعدها لن يكون سيّان، إذ يتجه العالم بأسره نحو نمط غير مسبوق في حياة الإنسانية في مناح شتى، لم تتضح بعد ملامحه، بيد أنه ينبئ بثورة في المفاهيم والقيم وبتغيّر جذري في سياسات الدول وفي النظام العالمي برمّته، ومشهد اقتصادي واجتماعي وثقافي وبيئي مغاير، وربما جغرافيا جديدة، في بعدها الواقعي والافتراضي.

عديدة هي الاستنتاجات الأولى التي يمكن لنا استخلاصها من هذا الزلزال العنيف الذي دك أركان العالم قاطبة وأربك اقتصاديات الدول، مما في ذلك اقتصاديات قوى عظمى في مقدّمها الولايات المتحدة التي فقد فيها أكثر من 22 مليون شخص مواطن عملهم في غضون أربعة أسابيع، وشلّ الحركة، بخاصة في مجالات التجارة والسياحة والنقل، وأجر أكثر من ثلاثة مليارات نسمة عبر العالم على ملازمة الحجر الصحيّ في البيوت لمدة قد تطول. ولعلّ من أبرز هذه الاستنتاجات تهاوي الأسهم المتوحّشة وسقوط أسطورة تيار العولمة الذي أدرك أقصى حدوده وانحسار التضامن الدولي في ظل نزوع الدول إلى الانعزال بحكم انشغالها بأوضاعها الداخلية، فضلا عن تراجع مقولات عدّة كاللامركزية والحكم المحلي، مقابل التوق، حتى في البلدان المغرقة في الليبرالية الاقتصادية، إلى عودة الدولة القويّة الحاضنة لمواطنيها، على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية، لا سيّما الفئات الفقيرة والهشة.. هذه الدولة التي تستشرّف المستقبل وتهض بكلّ ثقلها بدورها في تحقيق العدالة الاجتماعية وضمان تكافؤ الفرص وتعديل المسار كلّما استشعرت خلا في المعادلة بين التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية.

إزاء ارتفاع فاتورة الأزمة التي لا تسمح الميزانية الحالية بتحمّل أعبائها، وبالنظر إلى نضوب خزائن الدولة وإلى كون المدّ التضامني الوطني لا يغطي إلا جزءا قليلا من الحاجيات المتأكّدة لا سيّما في المجالين الصحيّ والاجتماعي، يبقى التداين الحلّ الذي لا مندوحة للحكومة عنه.. وهل ثمة بديل منه، شريطة الاستخدام الأجدى للقروض؟

فحتى حكومات الدول الغنيّة طرقت أبواب المؤسسات المالية بحثا عن السيولة لمواجهة كارثة كورونا ومن بينها الحكومة البريطانية التي سيمول بنك أنقلترا المركزي - وبصورة استثنائية- جانبا من نفقاتها المنجّرة عن تنفيذ ما اتخذته من إجراءات جزاء هذه الكارثة، بينما هبّ البنك المركزي الأوروبي لإنقاذ الاقتصاد في منطقة اليورو بتخصيص 750 مليار يورو لإعادة شراء ديون عامّة وخاصة. فلكلّ طرف استثنائيّ تدابير استثنائية، كما يقال.

لا شك أنّ من شروط الدولة القويّة الحاضنة التي تُستحضر وتُطلب بالبحاح اليوم في بلادنا في هذا الطرف المتأثّم المريك، توفر قيادة سياسية منسجمة تحسن إدارة الأزمة وترعى الشعب وتحميه.. تمضي قدما في ترسيخ الأمن الاجتماعي ونشره على أوسع نطاق وتسعى جاهدة في سبيل تحقيق الإدماج الرقمي الشامل والإسراع بتدارك التأخير الحاصل في هذا المجال..وتعمل من الآن على إعداد سياسات عامة مؤنّسة ومندمجة لعالم جديد، عالم ما بعد كورونا. يومئذ سيتذكر الناس من كان في مستوى المسؤولية ومن لم يكن وستكون السلطة السياسية بأيدي من كانوا قد أظهروا أكثر تعاطفا مع الآخرين، في مجالات الصحة والغذاء والترية والبيئة..هكذا تنبأ المفكر الفرنسي جاك أتالي، ونحسب أنه في قوله محقّ. ■

ه.ع

من نافلة القول إنّ ما قبل جائحة كوفيد-19 وما بعدها لن يكون سيّان، إذ يتجه العالم بأسره نحو نمط غير مسبوق في حياة الإنسانية في مناح شتى، لم تتضح بعد ملامحه، بيد أنه ينبئ بثورة في المفاهيم والقيم وبتغيّر جذري في سياسات الدول وفي النظام العالمي برمّته، ومشهد اقتصادي واجتماعي وثقافي وبيئي مغاير، وربما جغرافيا جديدة، في بعدها الواقعي والافتراضي.

عديدة هي الاستنتاجات الأولى التي يمكن لنا استخلاصها من هذا الزلزال العنيف الذي دك أركان العالم قاطبة وأربك اقتصاديات الدول، مما في ذلك اقتصاديات قوى عظمى في مقدّمها الولايات المتحدة التي فقد فيها أكثر من 22 مليون شخص مواطن عملهم في غضون أربعة أسابيع، وشلّ الحركة، بخاصة في مجالات التجارة والسياحة والنقل، وأجر أكثر من ثلاثة مليارات نسمة عبر العالم على ملازمة الحجر الصحيّ في البيوت لمدة قد تطول. ولعلّ من أبرز هذه الاستنتاجات تهاوي الأسهم المتوحّشة وسقوط أسطورة تيار العولمة الذي أدرك أقصى حدوده وانحسار التضامن الدولي في ظل نزوع الدول إلى الانعزال بحكم انشغالها بأوضاعها الداخلية، فضلا عن تراجع مقولات عدّة كاللامركزية والحكم المحلي، مقابل التوق، حتى في البلدان المغرقة في الليبرالية الاقتصادية، إلى عودة الدولة القويّة الحاضنة لمواطنيها، على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية، لا سيّما الفئات الفقيرة والهشة.. هذه الدولة التي تستشرّف المستقبل وتهض بكلّ ثقلها بدورها في تحقيق العدالة الاجتماعية وضمان تكافؤ الفرص وتعديل المسار كلّما استشعرت خلا في المعادلة بين التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية.

لا يكفي اليوم أن تجدّ الدولة في حماية صحّة الإنسان أمام تفشّي الوباء وتسخير كلّ الإمكانيات في سبيل ضمان استمرار الحياة وتعزيز القدرة على محاربة الجائحة، بل أصبح لزاما عليها صيانة النسيج الاقتصادي من الانهيار حفاظا على مواطن الرزق والاستمرار في توفير الخدمات الأساسية بالنجاعة والجودة المطلوبتين. وقد رأينا كيف خصّصت الولايات المتحدة الأمريكية سيولة مالية قدرها أربعة آلاف مليار دولار، أي ما يعادل خمس ناتجها الإجمالي الخام، لمساندة مؤسساتها وإنقاذها من الإفلاس، في إطار خطة ترمي إلى إنعاش الاقتصاد في فترة ما بعد كوفيد-19، فيما بلغت المخصّصات المالية لمواجهة الجائحة 550 مليار يورو في ألمانيا و300 مليار يورو في فرنسا، منها 5 مليارات يورو موجهة إلى البحث العلمي.

فهل أنّ الدولة التونسية قادرة اليوم، بهياكلها التنفيذية ومؤسساتها وآلياتها المختلفة ومواردها المحدودة، أن تواجه تحديات هذا العالم الجديد الذي نقبل عليه بخطى متسارعة وأن تستزيد من تضحيتها المالية لإنقاذ الأرواح

VOS NOUVELLES CARTES STB

SIMPLICITÉ
SÉCURITÉ
ACCESSIBILITÉ



جائزة الشيخ زايد للكتاب 2019-2020: الوهابي وآيت مي هوبيتا لقان



فاز الشاعر والأستاذ الجامعي المنصف الوهابي بجائزة الشيخ زايد للكتاب 2019 - 2020 في فرع الآداب عن ديوانه «بالكأس ما قبل الأخيرة» الصادر عن دار ميكييلياني للنشر (420 ص) وهي المرة الأولى التي تمنح فيها هذه الجائزة لشاعر. كما تألق تونسي آخر بفوزه بجائزة الترجمة وهو الدكتور محمد آيت ميهوب، الروائي والباحث وأستاذ اللغة والآداب العربية بكلية التربية بجامعة زايد بدولة الإمارات العربية المتحدة، وذلك لترجمته كتاب جورج غوسدورف «الإنسان الرومنطقي» الصادر عن معهد تونس للترجمة سنة 2018.

المنصف الوهابي ومحمد آيت ميهوب هما إثنان من ضمن ستة كتاب وأدباء عالميين فازوا بجوائز «تكريما لنتاجهم الفكري والإبداعي المتميز».

أما بقية الجوائز فقد كانت على النحو التالي:

- جائزة فرع أدب الطفل والناشئة : فازت بها الكاتبة الفلسطينية ابتسام بركات عن قصة «الليلكية»
- جوائز فرع المؤلف الشاب : فاز بها الباحث حيدر قاسم مطر من العراق
- جائزة زايد للثقافة العربية في اللغات الأخرى: فاز بها الهولندي ريتشارد فان لوين
- جائزة شخصية العام الثقافية : فازت بها الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي من فلسطين.
- وألت جائزة فئة النشر والتقنيات الثقافية لمجلة بانيبال «Panipal» البريطانية. ■



رَمَضَانَ مُبَارَكٌ

هل تؤجّل قمة تونس لمنظمة الفرنكوفونية إلى سنة 2021؟



كان من المؤمل أن تتعقد الدورة الثامنة عشرة لقمة المنظمة الدولية للفرنكوفونية بتونس في موعدها المحدد (يومي 12 و13 ديسمبر القادم) والتي تصادف الاحتفال بالذكرى الخمسين لتأسيس المنظمة بنيامي، عاصمة النيجر في 20 مارس 1970، بيد أن الظروف الاستثنائية الناجمة عن انتشار جائحة كورونا قد تستوجب تأجيلها. وعلمت ليدرز من مصدر مطلع بباريس أن فرضية عقدها أو تأجيلها هي محلّ تشاور بين الأطراف الثلاثة المعنية وهي: أرمينيا الرئيس الحالي للمنظمة والتي احتضنت عاصمتها إفرين القمة الأخيرة في أكتوبر 2018 وتونس التي اختبرت في الدورة السادسة عشرة للقمة الملتزمة سنة 2016 لتنظيم الدورة الثامنة عشرة والأمانة لعامة للمنظمة. وتضمّ هذه المنظمة في عضويتها 88 دولة (54 دولة بصفة عضو عامل و7 دول بصفة عضو منتسب و27 دولة بصفة عضو ملاحظ).

والجدير بالذكر أن ثلاثة أحداث عالمية كبرى قد أجتلت وهي الألعاب الأولمبية الصيفية بطوكيو التي ستقام من 23 جويلية إلى 8 أوت 2021 (وكان موعدها السابق من 24 جويلية إلى 9 أوت 2020) والمعرض الكوني بدي 2020 والذي من المنتظر أن يقام مدة ستة أشهر من أكتوبر 2021 إلى مارس 2022 وذلك بعد موافقة المكتب الدولي للمعارض ومؤتمر كوب 26 حول المناخ الذي أجل إلى السنة القادمة بعد أن كان مقررا عقده بغلاسغو من 9 إلى 19 نوفمبر 2021.

وبخصوص قمة تونس، لم تصدر أية معلومة إلى حد الآن حول موعدها، عدا بلاغ صادر عن وزارة الشؤون الخارجية يشير إلى محادثة تليفونية بين الوزير والأمانة العامة للمنظمة، الروندية لوزير موشيكويابو دون الإفصاح عن محتواها. ولا جدال في أن التأخير في الحسم لن يجدي نفعاً، فقد أن الأوان بالنسبة إلى الدبلوماسية التونسية لتجري المشاورات اللازمة ولتقترح موعداً جديداً للقمة، خاصة وأن كل المؤشرات تدل على أن مجابهة جائحة كورونا ستستغرق وقتاً طويلاً وأنه من الصعب في ظل الظروف الاستثنائية القائمة إقناع قادة الدول الأعضاء الثمانية والثمانين في المنظمة بالتوجه إلى تونس على رأس وفود تضم أكثر من 3500 شخص قصد المشاركة في هذه القمة في موعدها المحدد سابقاً قبل أن ينفرج الوضع تماماً ويكتشف تلقيح اللوباء. ■



**PAYEZ
EN LIGNE
EN TOUTE SÉCURITÉ**
3D SECURE



Afin de mieux sécuriser vos paiements par carte bancaire sur Internet, La Banque de Tunisie met en place un système de sécurité basé sur le protocole 3D SECURE. Ce système consiste à authentifier toute transaction à l'aide d'un mot de passe dynamique à usage unique. Il vous sera envoyé instantanément par SMS sur votre GSM pour la validation de l'opération. En cas de changement de votre numéro de téléphone, nous vous invitons à contacter votre agence



www.bt.com.tn



التسجيلات العديد من الأسرار حول أحداث تاريخية عاشها.

وقد عهد الدكتور حامد القروي إلى ابن عمه أستاذ اللغة والآداب العربية عبد الجليل القروي بالجامعة التونسية بترجمة ما ورد في التسجيلات إلى اللغة الفرنسية لصياغة المذكرات. وطوال الخمسة أشهر التي استغرقها التحرير دأب الأستاذ عبد الجليل القروي على الالتقاء بانتظام بالراحل ليعرض عليه ما كتب، فكان الفقيه يصوّب ما وجب تصويبه ويُدْرَج في النصّ إضافات بشأن وقائع لم يرد ذكرها في التسجيلات.

الكتاب الذي تولى تقديمه ونقل مضمونه إلى الفرنسية الأستاذ عبد الجليل القروي يقع في 240 صفحة وعنوانه «حياة في السياسة» (Une vie en politique). الكتاب الذي سيصدر عن دار سيريس للنشر زاخر بصور فوتوغرافية التقطت للدكتور حامد القروي منذ فترة شبابه، بينما تظهر صورة الغلاف الفقيه وهو يلقي خطابا في منتدى دافوس عندما كان وزيرا أول. سيصدر الكتاب عن دار سيريس للنشر.

مذكرات الدكتور حامد القروي

كان الدكتور حامد القروي المناضل الوطني والوزير الأول السابق يتمنى أن تصدر مذكراته في قائم حياته، غير أن الموت الذي غيَّبه يوم 27 مارس الماضي عن سنّ تناهز 93 سنة حال دون تحقيق آمانيته. قبل أيام من وفاته وإثر خروجه من المصحّة، أطلع الفقيه على النسخة النهائية من الكتاب قبل توجيهه إلى المطبعة، غير أن الظروف الاستثنائية التي تمرّ بها البلاد جرّاء تفشّي وباء كورونا، متسببة في شلّ الحركة في معظم القطاعات، أجّلت عملية الطباعة.

منطلق هذه المذكرات عشرة تسجيلات على الفيديو أنجزها السيد توفيق الحبيب صاحب مؤسسة ليدرز جمعية الصحفي القدير السيد عبد اللطيف الفراقي وقد استعرض فيها الدكتور حامد القروي مختلف أطوار حياته ومراحل مسيرته النضالية والمهنية والسياسية الطويلة، قائدا كشافيا ومناضلا في صفوف الحزب الدستوري منذ شبابه وصلب الاتحاد العام لطلبة تونس، فطيبيا مختصا في الأمراض الصدرية في مسقط رأسه سوسة التي سيكون رئيسا بلديتها لفترة طويلة ورئيسا للنجم الرياضي الساحلي ونائبا عن دائرة سوسة في مجلس الأمة قبل أن يدخل الحكومة، بإلحاح شديد من الحبيب بورقيبة، وزيرا للشباب والرياضة في 7 أفريل 1986 ثمّ مديرا للحزب الاشتراكي الدستوري في 27 أكتوبر 1987 قبل أن يعيّن سنة 1988 وزيرا للعدل فوزيرا أول في 27 سبتمبر 1989 خلفا للهادي البكوش. وقد بقي رغم مغادرته هذا المنصب في سنة 1999 نائبا أولا لرئيس التجمّع الدستوري الديمقراطي إلى غاية 5 سبتمبر 2008. وباعتباره شاهدا على عصره، كشف الفقيه في هذه

الذكرى الخمسون لوفاة الشيخ الفاضل بن عاشور

يصادف يوم 20 أفريل 2020 مرور خمسين عاما على وفاة فضيلة الشيخ العلامة محمد الفاضل ابن عاشور (1909 - 1970) أحد أكبر علماء الدين في تونس والعالم العربي والإسلامي ومفتي الجمهورية السابق.

وتقديرا لمكانة الراحل الكبير وتثمينا لأعماله ومآثره، علمت ليدرز العربية أنّ وزارة الشؤون الدينية تعتزم تنظيم تظاهرة إحياء لهذه الذكرى ما إن تسمح الظروف بذلك وتعود الحياة في البلاد إلى مجراها الطبيعي بانتهاء حالة الحجر الصحي التي فرضها تفشّي وباء كورونا. ■



BNA
BANK

VISA

CARTE *Visa Infinite*
Internationale

Le pouvoir est entre vos mains

UN SERVICE TOUT-EN-UN pour une expérience unique qui vous invite dans le cercle des VIP et vous ouvre les portes d'un monde de privilèges.

Fonctionnalités multiples, prestations sur mesure et luxueuses, package d'assurances et d'assistance valorisant, garanties supplémentaires et protection d'achat inégalée, sécurité optimale, conciergerie privée, avantages exclusifs, tarifs préférentiels...

BNA - Banque Nationale Agricole

Avenue Mohamed V -1001- Tunis - Phone : +216 71 831 000 / +216 71 831 200

خلية يقظة بيت الحكمة لمتابعة وباء كورونا

أحدثت صلب المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» خلية يقظة لمتابعة مستجدات وباء كورونا واقتراح الحلول العملية للقضاء على هذا الوباء. وكان قسم العلوم الطبيعية والرياضيات التابع للمجمع قرّر خلال اجتماع انعقد عن بعد يوم 24 مارس إحداث هذه الخلية التي تضم، علاوة على أعضائه، أعضاء قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية وخبراء من خارج المجمع. ■

سمير سعيد رئيسا مديرا عاما لشركة اتصالات تونس بداية من يوم 4 ماي القادم

عقد أعضاء مجلس إدارة شركة اتصالات تونس - بمن فيهم ممثلو المساهم الإماراتي في رأس مال الشركة- اجتماعا عن بعد يوم 14 أبريل الجاري وقرروا تعيين سمير سعيد عضوا بمجلس الإدارة ورئيسا مديرا عاما للشركة، خلفا لفاضل كريم الذي عين وزيرا لتكنولوجيات الاتصال والتحول الرقمي. ويجمع نظام حوكمة الشركة بين وظيفتي رئيس مجلس الإدارة والمدير العام.

وسوف يتسلم سمير كريم مهامه رسميا يوم 4 ماي القادم بعد انعقاد الجلسة العامة للبنك التونسي الكويتي الذي يرأس مجلس إدارته قبل هذا التعيين.

سمير سعيد، البالغ من العمر 61 سنة، مهندس خريج المدرسة المركزية له تجربة لا تقل عن 30 سنة في القطاع البنكي حيث عمل في بنوك تجارية وبنوك تنمية واستثمار، مع خبرة في مجالات المالية والقروض الموجهة للمؤسسات الصغرى والمتوسطة. بدأ مسيرته المهنية لبنك تونس العربي الذي قضى به 17 سنة قبل أن يلتحق بمسقط ليتولى من 2003 إلى 2013 مهام المدير العام لبنك عمان للتنمية ثم خطة المدير التنفيذي لشركة الحصن للاستثمار. ولدى عودته من مسقط في نوفمبر 2015 عين مديرا عاما للشركة التونسية للبنك. ■



البرمجة الرمضانية للقناة الوطنية الأولى

تسبب الحضر الصحي العام الذي فرضته جائحة كوفيد-19 في توقّف تصوير العديد من الأعمال التلفزيونية المخصصة لشهر رمضان، ممّا أربك استعدادات القنوات التلفزيونية لهذا الموعد السنوي الذي ترتفع فيه نسب المشاهدة لا سيّما للأعمال الدرامية.

وحتمت هذه الظروف الاستثنائية على التلفزة الوطنية إعداد برمجة تعتمد في جانب منها على إعادة بثّ مسلسلات لاقت في السابق نجاحا جماهيريا كبيرا، إلى جانب مختارات من حلقات «الكاميرا الخفية» لرؤوف كوكبة.

ومن الأعمال الجديدة التي ستقدّم في رمضان مسلسل «قلب الذيب» للمخرج بسّام الحمراوي وتدور أحداثه خلال الحرب العالمية الثانية وهو يصوّر طورا من أطوار الحركة الوطنية ودور المقاومة المسلحة والنقابات في مقاومة الاستعمار الفرنسي.

ويجمع هذا المسلسل كوكبة من ألمع نجوم التمثيل في تونس من بينهم فتحي الهداوي ورؤوف بن عمر وعيسى حراث وأميمة بن حفصية وعبد الغني بن طارة ودليلة المفتاحي وفتحي مسلماني ولطيفة القفصي...

كما سيُعرض مسلسل «الفرقة 27» وهو من إخراج يسري بوعصيدة. وتدور أحداثه حول محاربة الإرهاب في تونس خلال السنوات الأخيرة وضمن الممثلين فيه هشام رستم ورؤوف بن عمر وجميلة الشحي ودرصاف مملوك، وكوثر بالحاج ومحمد علي النهدي وأسماء بن عثمان وصالح الجدي وآمال علوان وجمال ساسي وإكرام عزوز وعلي الخميري...

وتتضمّن الشبكة البرمجية كذلك مسلسل «قضاة من تاريخنا» وهو عمل باللغة العربية الفصحى أخرجه أنور العياشي. ■

صفاقس تفقد إثنين من أعلامها: أحمد الزغل والتيجاني مقني



للجيل الأول بعد الاستقلال، ناضل في صفوف الحزب الحرّ الدستوري والاتحاد العام لطلبة تونس بفرنسا. عاد إلى تونس إثر حصوله على الإجازة في العلوم الطبيعية ليدرس بمعهد الفتيات بمسقط رأسه. سار على خطى شقيقه الأكبر أحمد مقني أول وال لسوسة بعد الاستقلال ورئيس بلدية صفاقس سابقا، في مجال العمل السياسي فانضمّ إلى لجنة التنسيق الحزبي بصفاقس التي سيصبح كاتبها العام. انتخب عضوا بالمجلس البلدي قبل أن يصبح رئيسه سنة 1975 ونائبا بمجلس الأمة عن دائرة صفاقس. انتخب عضوا باللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الدستوري الذي عين عضوا بديوانه السياسي. ثمّ عين رئيسا مديرا عاما لشركة «الرفاه» المختصة في صنع التجهيزات الكهربائية المنزلية فريسا مديرا عاما للشركة التونسية للملاحة قبل أن يتقاعد.

رئيسا لبلدية صفاقس، أحاط التيجاني مقني نفسه بكفاءات شابة من مختلف القطاعات واستثمر علاقاته بدوائر القرار في العاصمة لينطلق في مشاريع كبرى فطور الإدارة البلدية بانتداب إدارات من مستوى عال من إداريين ومهندسين متخرجين من مدارس عليا ومهندسين معماريين وتعزيز الأسطول باليات جديدة.

وفي عهده شهدت البلدية توسعا لفوائدها فأدمجت في نطاق صفاقس الكبرى البلديات الصغرى المجاورة وركزت دوائر بلدية في مختلف الأحياء الأساسية بما فيها وسط المدينة والضواحي الكبرى وأحدثت سوق جملة جديدة وأنشأ أول مسجح مغطى وتمّ تعشيب أرضية ملعب الطيب المهيري وتعبيد العديد من الطرقات وتحسين عملية رفع الفضلات المنزلية والنهوض بقواعد الصحة ومعية مساعديه ولاسيما نائبه الأول محمد بن عبد الله عمل على تهذيب الأحياء الفوضوية عمرانيا وتركيز المنشآت الأساسية فيها وعلى إنجاز أشغال تهيئة منطقة صفاقس الجديدة التي برمجتها المجالس البلدية السابقة، إلى جانب مشاريع أخرى. ■

شاءت الأقدار أن تفقد صفاقس في ظرف يومين إثنين من أعلامها البارزين قدما جليل الأعمال للجهة وللوطن عموما، وهما المرحومان أحمد الزغل والتيجاني مقني اللذان يشتركان في الانتماء إلى الأسرة التربوية ونضالهما في صفوف الحزب الاشتراكي الدستوري ونشاطهما الحثيث في الحقل الجمعياتي، فضلا عن ترؤس بلدية صفاقس التي شهدت في عهديهما إنجاز العديد من المشاريع الهامة.

الفقيه أحمد الزغل الذي غيبه الموت فجر السبت 28 مارس الماضي عن سنّ 96 عاما ساهم في تكوين أجيال متعاقبة من سامي إدارات الدولة بوصفه أستاذا في مادّي اللغة العربية والعلوم الطبيعية ومديرا لمعهد 15 نوفمبر 1955 بصفاقس الذي احتضن مؤتمر الحزب الحرّ الدستوري للحسم في الخلاف بين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف. الراحل الذي يحمل شهادة العالمية من الجامعة الزيتونية (1947) والشهادة العليا في الحقوق من المدرسة العليا للحقوق بتونس (1948) جعل من معهد 15 نوفمبر الذي كان تابعا للتعليم الزيتوني مؤسّسة عصرية أمها تلاميذ من وسط وجنوب البلاد وتولّى التدريس فيها خيرة الأساتذة.

ناضل الأستاذ أحمد الزغل في صفوف الحزب الحرّ الدستوري التونسي فتأسس أكبر شعبة وهي شعبة وسط المدينة وكان عضوا بلجنة التنسيق الحزبي بصفاقس وعضوا باللجنة المركزية للحزب (من 1981 إلى 1985) وكان نشطا على الصعيد النقابي والثقافي والاجتماعي والجمعياتي. عرّضت عليه مسؤوليات سامية على الصعيد الوطني لكنّه أثر البقاء في صفاقس حيث شغل خطّي نائب رئيس البلدية ومديرا جهويا للتعليم قبل أن يصبح رئيسا للبلدية. وفي عهده شهدت المدينة دعم المصالح البلدية وإنطلاق مشاريع بنية أساسية وبرامج اجتماعية وأشغال تهيئة ترابية، فضلا عن العناية بالثقافة وأهلها. عرّف الفقيه بالخصوص بدوره الريادي في مجال الحفاظ على البيئة. وقد استغل ما كان يحظى به من احترام لدى السلطات ليحصل سنة 1980 على ترخيص لإنشاء أول جمعية لحماية البيئة والطبيعة بصفاقس، هذه المدينة التي أصابها منذ الستينات آفة التلوّث بسبب مصانع السياب ون ب ك. واستطاع الفقيه أن يجمع حوله شبانا انخرطوا في العمل الجمعياتي في المجال البيئي إلى جانب مهندسين وأساتذة وأطباء ومحامين ... مما مكّن من وضع أسس عمل مهيكّل يستند إلى تمشّ علمي دعمه المواطنين. سعى إلى إحداث جامعة وطنية تضمّ جمعيات لحماية البيئة في مختلف جهات البلاد غير أنّه ووجه برفض النظام قبل 2011 الذي كان يخشى بروز سلطة مضادة تترك المنظمة القائمة آنذاك في مجال البيئة. ولن يتسنى إنشاء هذه الجامعة إلا بسقوط النظام.

أما المرحوم التيجاني مقني الذي انتقل إلى جوار ربّه صباح يوم الإثنين 30 مارس عن سنّ 87 عاما فقد كان من الوجوه السياسية



Bank ABC se mobilise pour la Tunisie

Les outils numériques permettent de rester efficaces même éloignés les uns des autres, nous les apprivoisons petit à petit pour préserver notre intelligence collective.

Il est juste de dire que ce que nous vivons depuis quelques semaines maintenant est la plus grande crise sanitaire que le monde, et bien évidemment la Tunisie, ait connu depuis plus d'un siècle.

La lutte contre la pandémie repose essentiellement sur notre discipline collective et notre solidarité les uns envers les autres. Des mesures drastiques à court terme nous sont infligées mais si elles sont relâchées trop vite l'épidémie peut aussitôt redémarrer. Aussi soyez prudents et disciplinés car l'urgence est de vous protéger, de protéger vos proches et ceux que vous aimez, de protéger aussi ceux qui sont obligés de quitter leurs domiciles pour permettre au système de continuer à tourner. Je les salue tous pour leur courage et abnégation et spécialement mes collègues qui travaillent dans le secteur financier.

Le personnel de Bank ABC, comme celui de bien d'autres acteurs du secteur bancaire, est engagé avec dévouement à vos côtés. Nous nous sommes adaptés: beaucoup de télétravail mais aussi une présence physique sur sites pour continuer à vous servir et à traiter vos opérations quotidiennes sans relâche et dans les délais impartis. Nous nous sommes mobilisés pour reporter les échéances des crédits pour les particuliers et professionnels: quand dans certains cas cela n'a pu être fait à temps à trouver des solutions alternatives dont l'issue est ré-alimenter les comptes de cette provision. Nous continuons à soutenir les entreprises y compris en re-profiliant certaines tombées. Il est essentiel de les maintenir en vie car par le travail naît la richesse qui à son tour génère de l'emploi.

La prospérité financière doit être un moyen et non un but. Notre priorité absolue est donc de protéger les plus fragiles, celles et ceux, particuliers ou entreprises, que cette épidémie touche d'abord.

Dans ces moments particuliers où la solidarité se mesure aux actes, Bank ABC réitère sa fierté d'appartenir à une profession qui fait face au défi et qui se montre réellement citoyenne. Nous viendrons, tous ensemble, à bout de cette crise grâce à notre persévérance et à notre discipline. Nous ferons honneur à nos aînés qui nous ont montré la voie à travers la riche histoire de la Tunisie.

Ali KOULI
Directeur Général
Bank ABC Tunisie

70 29 22 22
24h/7j (Coût d'un appel local)

www.Bank ABC Tunisia

www.bank-abc.com



وفي نفس الإطار، أكد السيد رمزي صندي أنّ الشركة قد ضاعفت عدد الحافلات التي يتمّ استعمالها لنقل الموظفين، مع الحرص على تعقيمها بعد كل رحلة. وأضاف أنّ مخبر سيف قد قامت بتوفير جميع وسائل الوقاية اللازمة من فيروس كورونا لجميع موظفيها، والمتمثلة في الأقنعة الطبية والقفازات ومعقمّ لليدين، وجعل استخدامها إلزامياً.

وقال السيد رمزي صندي: «قامت الشركة بتنظيم دورات للتوعية والتدريب، بإشراف أطباء مختصين في الغرض وتناولت أهمّ قواعد النظافة والاحتياطات الواجب اتخاذها لتجنّب العدوى. وبالإضافة إلى ذلك، تمّ اتخاذ جميع التدابير الضرورية لتفادي أيّ انتشار للمرض داخل المصنع، أوحثّى من خارجه أي عن طريق الحرفاء والموردين على سبيل المثال.

كما اعتمدت طريقة العمل عن بُعد بالنسبة إلى جميع العاملين في خطط خدميّة وكلّ من لا تفرض الضرورة حضوره المباشر بورشات التصنيع.»

ماذا عن «هيدروكسي كلوروكين»؟

صرّح السيد رمزي صندي أنّه «يوجد طلب استثنائي هذه الفترة على مادّة «هيدروكسي كلوروكين» على المستوى الدولي ولكن، وبالرغم من ذلك، فقد تمكّننا من شراء مخزون كبير من هذه المادة، ممّا سمح لنا بتصنيع هذا المنتج لضمان علاج ما يقارب 20000 مريض، وتأمين تغطية أفضل لاحتياجات المرحلة طبقاً للبروتوكول التونسي لعلاج فيروس الكورونا».

وأكد السيد رمزي صندي: «أنّ سعر المادة الخام قد زاد ستة أضعاف في غضون بضعة أسابيع، بسبب الزيادة على الطلب والمضاربة الدوليين ورغم ذلك حافظنا على التزاماتنا، كما سبق وفعّلنا من قبل طوال فترة وباء الأنفلونزا من خلال تصنيع الكميات اللازمة من SAIFLU».

وأضاف قائلاً: «لقد بدأنا في تصنيع هيدروكسي كلوروكين ونحن في انتظار رخصة التسويق لوضع المنتج على ذمّة الصيدليّة المركزيّة ووزارة الصحة التي سيتمّ تمكينها مجاناً من جزء هام من المنتج.»

تفعيل دورنا كمؤسسة مواطنة ومسؤولة

وقال السيد رمزي صندي: «لدينا اليوم الفرصة لإعطاء معنى لكلمة «مواطنة»، وذلك من خلال لعب دور مهمّ كممثل فعّال للصحة في تونس. مسؤوليتنا وواجبنا أن نبذل كل ما في استطاعتنا اليوم لمساعدة مواطنينا وبلدنا للتغلب على هذا الوباء.» ربيّ يحمي تونس.



مخابر الأدوية في تونس تتجدد لمواجهة فيروس كورونا مخابر سيف مثالاً يحتذى به

قام وزير الصناعة السيد صالح بن يوسف ووزير التنمية والاستثمار والتعاون الدولي السيد سليم العزّابي يوم الثلاثاء 14 أفريل، بزيارة لمجموعة من الوحدات الصيدليّة، للاستفسار عن حسن سير مصانعها وقدرتها على توفير الأدوية للتونسيين خلال هذه الأزمة الصحيّة. وفي حوار حصري خصّ به مجلة ليدرز وليدرز العربية، قام السيد رمزي صندي، المدير العام لمخابر سيف، أحد المخابر التي تمّ زيارتها، والأمين العام للجمعية التونسية للأدوية الجينية (ATMG)، بإطلاعنا على الوسائل المستخدمة للتعامل مع الوضع الراهن.

المصلحة الوطنية والحكومية

وفي بداية الحوار، أشاد السيد رمزي صندي أولاً بالاهتمام الذي توليه بلادنا وحكومتها لمجال الصناعة الوطنية للأدوية، والذي تمّ تهميشه خلال السنوات الخمس الماضية.

تأمين احتياجات التونسيين من الأدوية

وأكد السيد رمزي صندي أن الصناعة الصيدلانية الوطنية قد اتخذت جميع التدابير اللازمة لمواجهة وباء كورونا المستجد، وتلبية احتياجات التونسيين من الدواء، مع العلم أنّ 3 من كل 4 أدوية يتمّ إنتاجها محلياً.

وأضاف قائلاً إنّ: «مخابر سيف قد جهزت عديد الفرق المتخصّصة، وذلك للتسريع في معدّل تصنيع الأدوية وتأمين مخزون يحقق الاكتفاء الذاتي ويبيّتي الزيادة في الطلب عند الحاجة».

كما أكد السيد رمزي صندي، أنّ المصانع الخمسة التابعة إلى مخابر سيف، تعمل بصفة متواصلة ودون انقطاع منذ بداية جائحة كورونا، بمعدّل 7 أيام في الأسبوع و 24 ساعة في اليوم، لتلبية الاحتياجات الدوائية للقطاعات العام والخاص.

سلامة الموظفين، أولوية قصوى

من جهة أخرى، قال السيد رمزي صندي، إنّهُ قد تمّ تعزيز نشاط المؤسسة منذ بداية الأزمة، مع الاحترام الكامل لقواعد السلامة الصحيّة لجميع موظفي الشركة البالغ عددهم 600 موظف.

كما أشار إلى أنّه قد تمّ إعفاء العاملين الذين يعانون ضعفاً جسدياً أو أمراض مزمنة، مثل مرض السكري أو ارتفاع ضغط الدم، من العمل خلال هذه الفترة.





محمد الحامي

















طوق النجاة للصحة والاقتصاد

• العميد محمد الفاضل محفوظ
: المنظومة المؤسسية في تونس
في مواجهة جائحة الكورونا

• محمد إبراهيم الحصري :
في تأكد الحاجة إلى دراسة «ما
بعد» جائحة «الكوفيد 19»

• أحمد بن مصطفى : تداعيات الحرب
على فيروس كورونا وطنيا وإقليميا ودوليا

• رشيد خشانة : من «كوفيد
بزنس» إلى ديمقراطية كورونا

• رضا الشكندالي : هل سيكون قطاع
الاقتصاد الاجتماعي والتضامني عنصرا
مهما في مخطط التنمية القادم لتونس؟

لئن عرفت الإنسانية في أحقاب زمنية متعددة أوبئة وجوائح فتكت بملايين البشر وكانت لها تأثيرات بليغة في مجرى التاريخ في العديد من أصقاع الدنيا، فإن جائحة فيروس كورونا التي اكتسحت عالمنا اليوم بسرعة مذهلة، مجبرة قرابة ثلاثة مليارات نسمة على ملازمة الحجر الصحي توفيا من العدوى، غيرت جذريا ملامح الفضاء الكوني المعولم. إذ أقت بظلال كثيفة على سلوك الفرد ونظراته إلى الحياة وقبليت رأسا على عقب سياسات الدول التي اضطرت حكامها إلى إعادة النظر في سلم الأولويات بتركيز الجهود على محاربة الفيروس، مثلما أحدثت شرخا في العلاقات بين الدول المنشغلة بترتيب شؤونها الداخلية وبالتالي في منظومة العلاقات الدولية برمتها. يسلم هذا الملف أضواء كاشفة على الطريقة التي تعاملت بها المنظومة المؤسسية في تونس مع انتشار الوباء وعلى تداعيات الأزمة الناجمة عنه وطنيا وإقليميا ودوليا والدروس والعبر التي يتعين استخلاصها في مستوى السياسات العامة ودور الدولة في عهد ما بعد فيروس الكورونا.



La STAR et ses équipes
demeurent mobilisées
pour répondre
à vos questions.



ALLOSTAR 70 255 255
allostar@star.com.tn

#StayHome

#StayHappy


Assurances تأمينات
عمل علينا



المنظومة المؤسسية في تونس في مواجهة جائحة الكورونا

أثار انعقاد مجلس الأمن القومي بتاريخ يوم 31 مارس 2020 جدلا واسعا بالنظر إلى المواضيع التي تطرقت إليها جدول أعماله وبالنظر إلى ردود الفعل سواء من الأطراف المشاركة فيه أو من خارجه. ولعل الأمر يحتاج إلى أكثر من توضيح في ذهن المتلقي إذ بقدر أهمية انعقاد المجلس في مثل هذا الطرف الذي يتفشى فيه وباء هو بمثابة العدو الخفي، فإن الصورة لدى المواطن تكاد تكون ضبابية نظرا لتعدد المؤسسات الدستورية والهيئات والمجالس وتزاحم الاختصاصات بينها في شتى المجالات حتى أن الفرد يحتاج في بعض الأحيان إلى مساعدة لفك شفرتها.



• بقلم العميد محمد فاضل محفوظ

لكن

قبل ذلك لا بد من الإشارة إلى أن هذا التنوع هو في الأصل إثراء لتجربة متفرّدة على جميع المستويات منذ سنة 2011، يقطع النظر عن تقييمنا لها. ويكفي التذكير ببعض المحطات المفصلية للوقوف على حقيقة، نعتقد أننا لا نختلف فيها، وهي أن تونس كانت خلال السنوات الماضية بمثابة المخبر الذي ينتج جرعات من الديمقراطية والحرية لشعب منعتق لكنه يواجه اليوم أزمة حقيقية تضع على المحك كل المقولات، بدءا بالمقولات السياسية والقيمية.

وأهم المحطات تمثلت في النظام المؤقت للسلط العمومية الذي أفرز مؤسسات وقتية أوكل إليها إدارة الشأن العام، ثم تجربة المجلس الوطني التأسيسي وما رافقها من نجاحات ومن أزمات أفضت بدورها إلى تجربة الحوار الوطني وحكومة التوافق ثم انتخابات خريف 2014 التي كرست مبدأ التداول السلمي على سدة المسؤولية ثم انتخابات 2019 الرئاسية والتشريعية التي نبهت إلى سلبيات بعض مراحل الانتقال وتجلياته لدى المواطن. لكن القاسم المشترك بين كل هذه المحطات هو عملية الانتقال «من، إلى» في مناخ سياسي يتراوح بين الهدوء والصخب، بين الطمأنينة والغضب. والوضع اليوم لا يختلف كثيرا عن مثل هذه التقلبات فالبعض يسأل الحكومات المتعاقبة الرحيل والبعض الآخر يسأل النظام بأسره الرحيل فيما يعتبر بعض آخر أن تجربة الانتقال الديمقراطي بعبوبها قد جنبت البلاد عنفا محموما مستبظنا لدى بعض الأنفس التي تجهل ثقافة الاختلاف.

والسؤال المطروح اليوم هل أن الفضاء العام هو نفسه يستوعب هذا الكم من الغضب والإحباط أو حتى الشعور بعدم الارتياح؟ ثم هل أن مؤسسات الدولة من سلطة تنفيذية وتشريعية خاصة أجابت على تساؤلات المواطن وشففت غليله ولو جزئيا في اهتماماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية؟

لا شك أن الإجابة قد تكون بلا قاطعة لدى الكثيرين أو بلا نسبة عند البعض الآخر أو بنعم متحفظة لدى آخرين.

والأهم من الإجابة نفسها إنما هو المراكمة الذهنية للأشخاص المتعهدين بالمسؤولية في مختلف مستويات الدولة حتى يعوا سبب تلك الإجابات.

وباستعراض سريع لأداء أجهزة الدولة يمكن القول دون تردد إن ذلك الأداء هو أقل مما يجب أن يكون عليه رغم المحاولات الشجاعة لبعضها عند التعامل مع الأحداث، طيلة السنوات الأخيرة، وخاصة في مجابهة الوباء المنتفشي لا محالة حسب الأطباء وخبراء الوبئة والفيروسات.

لكن هذه المؤسسات بقدر اضطلاعها بدورها واجتهادها فإنها تعطي في بعض الأحيان انطباعا سلبيا تمثل أساسا في:

- انطباع يهيم المجلس التشريعي الذي يتحول أحيانا إلى حلبة للصراعات الأيديولوجية والسياسية تصل إلى حد العنف اللفظي المبالغ فيه الذي يفسد النقاشات البناءة
- انطباع ثان يهيم الجزء الأول من السلطة التنفيذية وهو الحكومة التي تجد نفسها في وضعية القائد في الميدان لكنه ينتظر موافقة سياسية من القائد الأعلى وموافقة قانونية وتشريعية من مجلس نواب الشعب. وصراع الاختصاصات كان واضحا من خلال ردود الفعل على التجاء الحكومة إلى الفقرة الثانية من الفصل 70 من الدستور.
- انطباع ثالث يهيم الجزء الثاني من السلطة التنفيذية وهي رئاسة الجمهورية التي بحكم عدم سيطرتها دستوريا على السلطة التنفيذية تلجأ إلى فضاء مجلس الأمن القومي.

لكن المرعج أن تتحول هذه الانطباعات إلى قناعات وأن تتحول القناعات إلى دغمايات يصعب حينها، بل وقد يستحيل، مجابتهها لا بالحجة ولا بالدليل ولا بالبرهان.

لأن الدغمايات والمعتقدات والعقائد لا تكتسح العقول والأذهان فقط بل تمتد إلى الفضاء العام في شكل عدوى تدافعية تشبه التسونامي الذي يجرف معه الأخضر واليابس.

ولنا في تاريخ الإنسانية عبر بعض المحطات مثال سنوات الرعب إثر الثورة الفرنسية التي اغتالت أبناءها بسبب مثل تلك المعتقدات أو مثال تجربة النظام الكلياني لألمانيا هتلرية التي رغم بشاعتها لقيت دعما غير مسبوق من أغلب الشعب الألماني.

ويضاف إلى هذا المشهد المؤسسي الرمادي وهذه الانطباعات مؤسسية أخرى جاء بها الأمر الحكومي عـ70 لسنـة 2017 المؤرخ في 19/01/2017 والمتعلق بمجلس الأمن القومي.

وبقراءة سريعة لعناوين ولأبواب هذا الأمر ومشمولاته وتركيبته تتسّخ لديك قناعة أولى وهي أن صدور الأمر إنما هو إجابة عن المعطيات السابق الإشارة إليها والمتمثلة أساسا في هشاشة المؤسسات الدستورية أمام الانطباع السلبي السائد.

وقد اقتضى فصله الأول أن مجلس الأمن القومي يسهر على حماية المصالح الحيوية للدولة في إطار تصور استراتيجي يهدف إلى صون سيادة الدولة واستقلالها وضمان وحدة ترابها وسلامة شعبها وحماية ثرواتها الطبيعية.

وللغرض فهو يتداول في السياسات العامة المتعلقة بالأمن القومي والاستراتيجيات المتعلقة به وبالخيارات في مجال الاستعلامات

S A H A T Y

INTERNATIONAL



UNE BONNE SANTÉ DANS LE MONDE ENTIER.

Avec SAHATY santé internationale, nous prenons en charge vos frais de soins, vos frais d'hospitalisation et de chirurgie engagés en Tunisie comme à l'étranger 7j/7 et 24h/24, en complément de la CNAM ou de votre assurance santé en Tunisie (assurance groupe maladie ou SAHATY national). Plus de détails sur notre site internet.



www.carte.tn

On vous l'assure.

قبل الرئيس الحالي السيد قيس سعيد، هو أن هذا المجلس هو عبارة عن فضاء للتداعي الحرّ لكن لا تسوّق منه إلا صورة الرئيس الخطيب الذي يرسل رسائل اتصالية للرأي العام.

وفي مقابل ذلك فإنّ مسألة الأمن القومي هي من أهمّ اختصاصات رئيس الجمهورية التي حدّدها الدستور بالفصل 77 ورئاسة مجلس الأمن القومي هي إحدى الصلاحيات الممنوحة إليه.

واليوم وفي ظلّ التأهيل التشريعي للحكومة بموجب الفقرة الثانية من الفصل 70 من الدستور بغرض مجابهة فيروس كورونا وبغاية النجاعة والسرعة في الإجراءات، هل يمكن أن نشهد تنازعا سياسيا في الإختصاص بين حكومة أطلقت يدها ولو لغرض معيّن ولمدّة شهرين مع ضرورة المصادقة اللاحقة على مراسيمها، وبين مجلس أمن قومي يفرض هيبة اعتبارية من حيث تركيبته على الأقل.

الأهمّ من كلّ ذلك بطبيعة الحال هو أن توفّق كلّ السلطات في حربها على الوباء من جهة وأن تنجح في التقليل من التداعيات الاجتماعية والاقتصادية التي تنهك الأفراد والمؤسسات بسبب الحجر الصحي العامّ.

أمّا سياسيا فإنّ تنازع الاختصاصات في الديمقراطيات لا يفسد للوّد قضية، إذا تنافس المتنافسون بنزاهة وشفافية وبإيمان صادق بفكرة التقدّم المبني على البحث والعلم والمعرفة.

والامتحان الذي تخوضه الإنسانية هو فرصة أخرى لمنظومة الانتقال الديمقراطي في تونس لأنّ تراجع مقولاتها الإقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية وتؤكّد مرّة أخرى قدرات التونسيين والتونسيين في استنباط الحلول ولم لا إضاءة السبيل لكلّ شعوب العالم المحبّة للحياة.

والعبرة هي أن لا تثنينا الصعوبات وأن لا تحبط عزائمنا حتّى لا نسقط في الشعبويات المبتذلة الرامية إلى نسف كلّ ما تحقّق أو الداعية إلى الأنظمة الكليانية «الناجعة» في نظرها، إذ للتذكير فإنّ هذه الأنظمة لا تقرّ بالحقّ في الحياة إلاّ للأقوى وتسحق الفئات الضعيفة بالحديد والنار لاستغلالها في مشاريعها الظالمة والمستبدة. ولأنّ تونس هي فضاء خلّاق منذ العصور الأولى لنشأتها فهي من أجمل أوطان الكون ويحقّ لها أن تتوق إلى الأفضل. ■

م.ف.م

والاستراتيجيات الوطنية لمكافحة الإرهاب وتقييم التحدّيات الداخلية والخارجية وتدبير التعامل مع التهديدات ولو كانت متوقّعة الحصول وتوجيه السياسة الخارجية وفق أولويات الأمن القومي وله أن ينظر في كافة المسائل التي يعرضها عليه رئيس الجمهورية أو رئيس الحكومة.

والمتأمّل في مرجع نظر مجلس الأمن القومي يقف على حقيقة ثابتة هي أنّ اختصاصاته متعدّدة في كافّة المواضيع من أسطها إلى أعقدها دون تحديد طالما وأنّه بإمكانه «النظر في كافّة المسائل التي يعرضها عليه رئيس الجمهورية أو رئيس الحكومة».

وقد جاءت العبارة مطلقة إلى أبعد حدّ بجمع المصطلحين «كافّة» و«المسائل» لتشمل مختلف المجالات ولا تقتصر على ما جاء بطالع الفصل الأوّل فيما يتعلّق بالسيادة ووحدة التراب وسلامة الشعب والمسائل الأمنية والاستخباراتية فقط. وهو الأمر الذي يؤهّله لتناول مسألة الأمن الصحي والوبائي الذي يعرف الآن أزمة قد تعصف بكلّ الحقائق بما فيها العلمية.

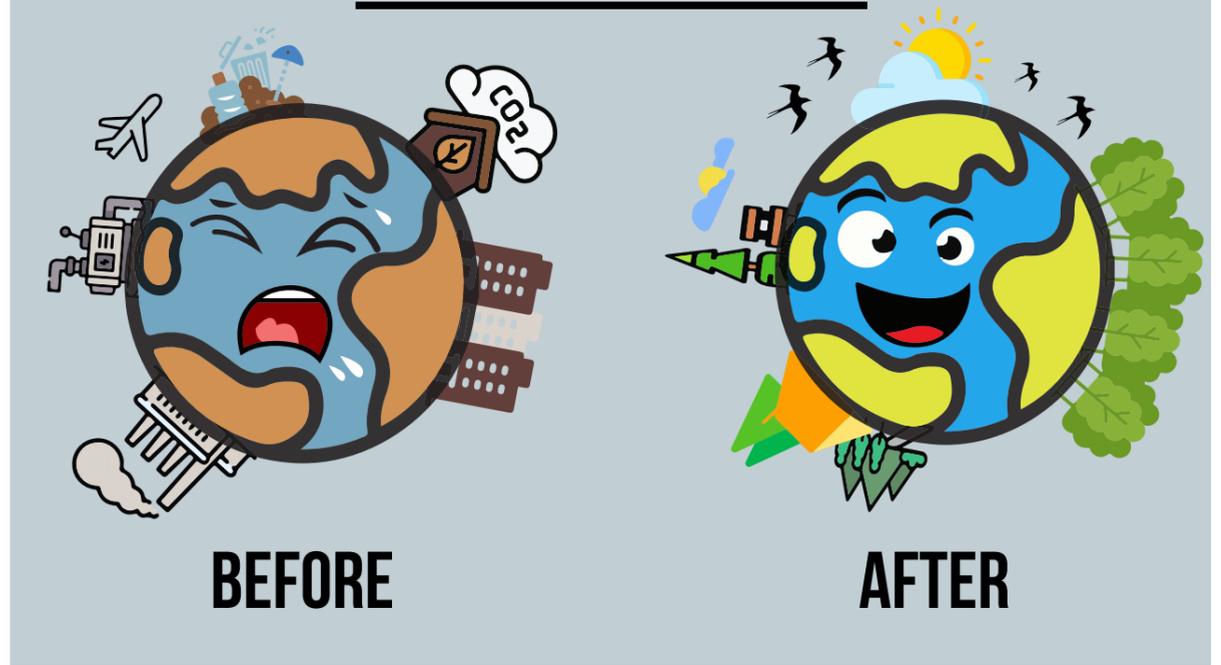
ويتركّب مجلس الأمن القومي المحدث بأمر حكومي من رئيس الجمهورية رئيسا، وعضوية رئيس الحكومة ورئيس مجلس نواب الشعب والوزراء المكلفين بالعدل والدفاع والأمن والشؤون الخارجية والمالية ورئيس المركز الوطني للاستخبارات كأعضاء قارين مع إمكانية استدعاء أيّ طرف من بقية أعضاء الحكومة أو من خارجها. ويصدر المجلس بخصوص المسائل المطروحة قرارات وتوصيات. والحقيقة أنّ الأمر المحدث لمجلس الأمن القومي يحمل في طياته جملة من التساؤلات. إذ هو أمر حكومي ممضى من رئيس الحكومة لكنّه لا يترأسه ولا يحدّد جدول أعماله والصلاحيّة الوحيدة التي منحها لنفسه هي إدراج مسائل يعرضها على المجلس.

كما أنّ نجاعة مجلس الأمن القومي تبدو غير واضحة على الميدان إذ هو يسهر، يتداول، يدرس، يقيم طبق ما جاء بالفصل الأوّل من جهة، لكنّه يصدر قرارات وتوصيات طبق ما جاء بالفصل 4 من جهة ثانية.

إلاّ أنّ كفيّة اتّخاذ القرار أو التوصية لم تحدّد، والجهة المكلفة بالسهر على التنفيذ غير محدّدة، وطريقة مساءلة ومحاسبة المخلّ بتلك القرارات والتوصيات غابت تماما إلى حدّ التساؤل عن ماهية مجلس الأمن القومي وعن جدواه القانونية والفعليّة.

وعودا على بدء فإنّ الانطباع السائد سواء بمناسبة ترأس المجلس من قبل الرئيس الراحل الأستاذ الباجي قايد السبسي أو من

COVID-19



في تأكيد الحاجة إلى دراسة ما بعد جائحة «الكوفيد 19»



ثمة إجماعٌ كُليٌّ على أنّ «ما بعد» جائحة «الكوفيد 19» لن يكون كما «ما قبلها»، فهذه الجائحة تشكّل، بما نجم وينجم عنها من متغيّرات عميقة متلاحقة، منعطفًا حادًا في سيرورة العالم. ولقد تعدّدت هذه المتغيّرات وتنوّعت، وهَمَّتْ المستويين الداخلي والخارجي على حدّ سواء.

ولعلّ من أهم هذه المتغيّرات التي أمكن رصدها حتّى الآن، ما يلي:

• بقلم محمد إبراهيم الحصري

1 - على المستوى الداخلي

• حَفَزَت الجائحةُ الدولة التي تآكلت سلطتها وهيبتهما على امتداد السنوات الأخيرة، (وهو ما ظهر بصورة مؤسفة في حالة اللامبالاة بإجراءات الحجر الصحي وعدم التزام شرائح واسعة من المواطنين بها)، على الإمساك من جديد بمقاليد الأمور، وعلى إعادة تأكيد دورها المحوري في إدارة شؤون البلاد، وفي حماية الشعب ورعايته.

• ظَهَرَتْ، بطريقة جليّة، إشكاليّة التدافع والتنازع بين السلطتين التنفيذية والتشريعية (خاصة مناسبة منح التفويض لرئيس الحكومة)، كما ظَهَرَتْ إشكاليّة التجاذب والتضارب بين صلاحيات السلطتين المركزية والمحلية، وتستدعي هاتان الإشكالتان، إضافة إلى إشكالية توزيع المشمولات بين رأسي السلطة التنفيذية، التعجيل، بعد انقشاع الجائحة، بمراجعة دستور سنة 2014.

• كَشَفَتْ عن أنّ أولوية الشعب الأولى تظل السلامة والأمن، وأنّ الشعب يمكن أن يتخلّى، طواعية، عن بعض الحريات والحقوق، كليًا أو جزئيًا في سبيل الحفاظ عليهما.

• أكَدَّت عمق النقائص الهيكلية العديدة التي تعاني منها البلاد والتي سيكون من الضروري وضع معالجتها على رأس أولويات الحكومة مستقبلاً، (يتعلق الأمر خاصة بهشاشة المنظومة الصحية، وقصور البنية التحتية الرقمية لا سيما من حيث تغطيتها لمختلف مناطق البلاد، وهو ما أدّى إلى الصعوبات التي يصادفها إطلاق منصات التعليم عن بعد...).

• أظَهَرَتْ، من جديد، أهميّة القطاع العام كقاطرة لا يمكن الاستغناء عنها في خدمة المجتمع، وسيكون لذلك تأثير حتمي على الجدول القائم حول العلاقة بين القطاعين العام والخاص، وبالذات حول مدى جدوى المضيّ قدماً في تعميم سياسة الخصخصة.

• أظَهَرَتْ الجائحة، في ظلّ غياب التضامن والتعاون الدوليين في مواجهتها، أنّ بإمكان تونس أن تعوّل على نفسها في تلبية العديد من احتياجاتها محلياً، كما أبرزت أنّ لدى الشعب التونسي قدرات كامنة على الخلق والإبداع وعلى إنتاج الكثير من المواد التي كان يستسهل توريدها من الخارج، وسيكون من المهمّ في المرحلة القادمة الحثّ على الاستمرار في هذا النهج الذي يمكن أن يساعد على التقليل من الارتهاق للخارج.

• دَفَعَتْ حالة العزلة غير المسبوقة التي فرضتها الجائحة على جميع دول العالم، في الداخل ومع الخارج، الحكومات والمجتمعات إلى التعامل مع إكراهاتها وأقلّمّة سلوكها مع مستلزمات الصمود

في وجهها بالاعتماد على مقوماتها الذاتية، وربما يكون ذلك بداية تغيير مستقبلي طويل المدى في السلوكات العامة للدول والشعوب على حدّ سواء.

• ليس من المُسْتَبَعَد أنّ تحصل في بعض دول العالم انهيارات اجتماعية بسبب ثقل المحن التي عاشتها إبان الجائحة، ومن المهمّ الانتباه إلى هذا الاحتمال، والاحتياط له بالعمل على بناء خطة لتفعيل وتعزيز التكافل الاجتماعي وتحقيق التكامل بين مختلف القوى الفاعلة، بعيداً عن التدافع السياسي المُربِك.

2 - على المستوى الدولي

• فيما يتعلّق بشريك تونس الأوّل أيّ الاتحاد الأوروبي، أظهرت الجائحة أنّ دَوْلَهُ تعاملت معها بقدر كبير من الأناية، وتغليب المصالح الذاتية على المصالح الجماعية.

• انسحب هذا السلوك الأناي على العلاقات الأوروبية الأوروبية، وعلى علاقات أوروبا بشركائها، وبالعالم، حيث بدأ أنّها في غمرة الخوف من انتشار الوباء، فشلت في تفعيل مبدأ التكامل بين الدول الأعضاء في الاتحاد، رغم حاجتها الماسة إلى ذلك في ظل التفاوت القائم بينها، كما بدأ أنّها لا تبالي بمصير الشركاء، ولا بمصير الإنسانية ككل.

• عموماً، كَشَفَتْ الجائحة عن افتقار أوروبا إلى مقاربة سياسية إنسانية للعلاقات بين الدول ومعها، وقد أدّى ذلك إلى مزيد التشكيك في مصداقية الشعارات التي ترفعها عن التضامن الإنساني.

• أدّى سوء إدارة الجائحة من قبل الاتحاد الأوروبي إلى اهتزاز الثقة فيه وإلى تعميق الشروخ التي أصابت بنيانه خلال السنوات الأخيرة، ممّا يجعل تجربة «البركسيت» قابلة للتكرار مستقبلاً.

• إلى ذلك، لم يعد الاتحاد الأوروبي يتمتّع بنفس النظرة الإيجابية التي كان يحظى بها عند الدول والشعوب الأخرى التي كانت ترى فيه نموذجاً لنجاح الحلم الطوباوي بإمكانية بناء قضاة دولية متكاملة متضامنة كخطوة نحو بناء عالم أفضل.

• أما على الصعيد العالمي فإنّ الجائحة سَدَدَتْ ضربة قاضية للنظام الدولي أحادي القطبية.

• كما كانت، من ناحية أخرى، ونتيجة لاحتدام «الأنايات الوطنية»، القشة التي قصمت ظهر نظام العولمة وإيداناً بحتمية مراجعته وإعادة النظر في أسسه الليبرالية سياسياً واقتصادياً وثقافياً وحضارياً...

wininti
by BH ASSURANCE

تقضى شورك
l'application
إلي تعمل بيها كل شين وين ما تكون

BH ASSURANCE



مع تحديد أفضل الخيارات والبدائل التي يتعين علينا اتباعها في التعامل معها، جلبنا ما ينفخ بلادنا ودرءا لما يضرها.

وإنّ التعاطي العقلاي الحكيم مع هذه المتغيرات ومع امتداداتها المستقبلية يستدعي مَنّا رسم نهج سياسي وطني يستند إلى منوال اقتصادي مُجدّد قادر على أن يستفيد استفادة قصوى من قدرات الكفاءات التونسية ومن الذكاء التونسي، ومن توظيف إمكانات البلاد الذاتية توظيفا رشيدا في تحفيز الارادات الفاعلة، وفي دفع حركة الاستثمار والإنتاج وتطوير المشاريع المؤلدة للنمو الشامل والرخاء.

ولقد أكد رئيس الحكومة يوم مَنّحه التفويض (04/04/2020) أنّ الحكومة انطلقت «في رسم السياسة وإعداد سيناريوات ما بعد الكورونا في تونس مع عدّة خبراء في شتى المجالات»، وهذا أمر إيجابي، ويستحق التقدير، كما يستحق التقدير المعهد التونسي للدراسات الاستراتيجية الذي أعدّ دراسة قيّمة أولى في هذا المجال ونشرها على موقعه تحت عنوان «تونس في مواجهة «الكوفيد 19» في أفق سنة 2025».

وإذ يعترم المعهد، في الفترة المقبلة، تعميق التفكير في جوانب هذه الدراسة، جانبا جانبا، وبالنظر إلى أهمية تضافر جهود الجميع من أجل القيام بهذه المهمة على أحسن وجه، فإنه سيكون من المفيد، في رأيي، أن يستعين في ذلك وعليه بالتعاون الوثيق مع مراكز وأقسام البحوث والدراسات في الجامعات من أجل الخروج، في نهاية المطاف، برؤية حسيّفة واضحة لما ينبغي أن تكون عليه سياستنا الداخلية والخارجية مستقبلا.

وهنا، لا بدّ من تحيّة خاصة إلى أقسام البحث في كليّاتنا العلمية والهندسية والتكنولوجية التي برهنت على قدرة تدعو إلى الإعجاب على الخلق والابتكار والإبداع (مثلا من خلال صناعة أجهزة التنفس الصناعي، والأقنعة الطبية الواقية، والروبوتات وغيرها...)، ولا شكّ أن أقسام البحث في كليّاتنا الاقتصادية والاجتماعية وكليات العلوم الإنسانية عامّة ستبرهن، بدورها، على نفس القدرة، حين تُتاح لها فرصة المساهمة في تصوّر تونس المنيعّة الصاعدة التي نريد أن تكون غدا..! ■

م.ح

• فَصَحَت الجائحة بشاعة النظام الليبرالي المتوحّش الذي يهيمن على العالم، بفضل منظومة ربحية ولا أخلاقية تخدم مصالح قلة من الأثرياء على حساب مليارات الفقراء في العالم.

• من المُتَوَقَّع في ضوء التمايز الذي بدا واضحا بين أسلوبي الغرب والشرق في مقاربة الجائحة، أن تتسارع، مستقبلا، وتيرة تحوّل زعامة العالم من الولايات المتحدة إلى الصين التي لن تكتفي بأن تكون «مصنع العالم» للمنتجات الاستهلاكية، وإنما تتطلّع إلى أن تكون أيضا «مصنع العالم» أو على الأقل أحد مصانعه لمُخَرَّجات السياسة الدولية.

• من غير المُحْتَمَل أن يظَهَر النظام العالمي البديل سريعا، وإمّا ستحتاج ولادته وتوليده إلى مخاض طويل وعسير، لا سيما وأنّ العالم سيخرج من الجائحة منهكا وأقلّ انفتاحا على بعضه البعض، غير أنّه من المُتَوَقَّع أن تشهد المرحلة القادمة تغيّرات هامّة في خارطة تحالفاته الجيو-سياسية والجيو-استراتيجية في ارتباط وثيق بالترابعية الجديدة للقوى الاقتصادية المؤثرة فيه.

• من المُؤكَّد أنّ التّعاون متعدّد الأطراف، وخاصة دور المنظمات الدولية التي لم تستطع التخفيف من آثار الجائحة على العالم سيكونان عرضة للتراجع والمراجعة العميقة (من بوادر ذلك تهديد الولايات المتحدة بتعليق مساهمتها في ميزانية منظمة الصحة العالمية).

• عموما سيكون العالم بحاجة إلى مراجعة قيّمة ومعايير مراجعة عميقة، من أجل إعادة ترتيب شؤونه، ووضع سياسات عملية مغايرة كفيلة بإعادة الاعتبار، أو على الأقل بعضه، للإنسان، حيثما كان، فقد بات متأكّدا بعد أن قوّضت الجائحة مفاهيم النظام العالمي الراهن ومسلّماته الحد من جشع وغطرسة الأطراف الدولية التي صنعتها وهيمنت به على الكرة الأرضية والبشرية جمعاء...

إنّ جملة هذه المتغيرات التي عدّدت أهمّها، على سبيل الدّكر لا الحصر، ينبغي أن تستدعي يقظتنا، وأن نعكف على دراستها، بكل جدية، من مختلف الزوايا، وعلى تمحيص أبعادها بكامل الدقّة والعناية، وأن نضع الفرضيات الممكنة لسيرورتها المستقبلية

وقيمية تؤمن بأن التعاون والتضامن الدوليين هما السبيل الوحيد للتغلب على هذا التهديد الكوني الموجه للبشرية جمعاء.

ولا شك أن هذه المواقف المبدئية، بقطع النظر عن خلفياتها المحتملة، ترمز إلى أهمية العودة إلى أخلة العلاقات الدولية في ظل ما فرضته الأحادية القطبية في عصر الهيمنة الغربية من تنكّر لمبادئ الأمم المتحدة والقانون الدولي الإنساني القائم على تامين وتفعيل قيم التآزر والتضامن الدوليين بين الأمم.

وفي هذا الصدد يجدر التذكير برفض الولايات المتحدة الأمريكية رفع العقوبات المفروضة على إيران مما ساهم في توسيع دائرة الإصابات في صفوف الشعب الإيراني نتيجة حرمان الحكومة الإيرانية من اقتناء التجهيزات الضرورية لمقاومة الوباء. وقد ألحق هذا الموقف الضرر البالغ بصورة الرئيس الأمريكي خاصة بعد اكتساح الفيروس للأراضي الأمريكية بسرعة البرق وتحول الولايات المتحدة إلى أكبر بؤرة من حيث انتشار المرض وعدد الوفيات المتوقع أن تتجاوز المائتي ألف مما قد يؤثر سلباً على حظوظ إعادة انتخابه في ظل موجة السخط والانتقادات اللاذعة التي طالته بفعل إدارته الكارثية للأزمة.

وعموماً، علينا أن نستخلص العبر من الأحادية والأناية اللتين طبعتا أسلوب التعاطي الغربي مع هذا التحدي الجماعي على المستويين الثنائي والمتعدد الأطراف حيث سارعت الدول الأوروبية، توفياً من الوباء، إلى غلق حدودها وتعطيل حرية الحركة والسفر فيما بينها والحال أنها من المرتكزات الأساسية للمشروع الأوروبي القائم على الاندماج الجماعي في كيان موحد يكون بديلاً للدولة الوطنية.

أما المؤسسات الأوروبية، فقد أثبتت عجزها عن تقديم المساعدة الناجمة والمأمولة للدول الأوروبية الأكثر تأثراً بالوباء مكتفية برفع القيود المتعلقة بنسبة العجز في الميزانية المسموح بها للبلدان الأعضاء وهو إجراء غير مسبوق تستعيد بموجبه الحكومات الأوروبية حرية توزيع مواردها المالية وتوجيهها وفقاً لأولوياتها الوطنية المنصبة حالياً على إغاثة شعوبها المنكوبة بطاعون العصر الذي قل أن شهدت البشرية مثيلاً له في تاريخها المعاصر. ولا شك أن هذا العجز سيفاقم من حدة الأزمة التي تجتاح الكيان الأوروبي منذ سنوات في ظل عودة الجدل الدائر حول مستقبله وحظوظ استمراره بصيغته الحالية في هذا المناخ من الأزمة الدولية الاقتصادية والمالية والصحية المتفاقمة.

وفي كل الحالات ستبين الاستحقاقات الانتخابية المقبلة في الدول الغربية الكبرى مدى تأثير الأوضاع الحالية على اتجاهات الرأي العام إزاء منظومة العولمة كمنط ساند في إدارة الشأن الاقتصادي والسياسي ومدى قدرة الأحزاب الوطنية على تغيير المشهد السياسي

وفي ظلّ تسارع نسق الإصابات بفيروس كورونا محلياً ودولياً يخشى أن تكون تونس على حافة السيناريو الأسوأ الذي حذر المختصون من عواقبه الوخيمة خاصة بعد تسارع نسق الإصابات بشكل متزايد لتتجاوز ثمانمائة إصابة وامتدادها إلى جلّ الولايات وعدم التقيد التام بشروط الحجر الصحي مما يحتم التحسب لكافة الاحتمالات بما فيها خروج الجائحة عن دائرة السيطرة كما حصل في عديد البلدان المتوسطية المحيطة ومنها تحديداً إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية والآسيوية وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية.

صحيح أن السلطات الحاكمة بتونس حاولت الاستفادة من تجارب البلدان الموبوءة وتجنّب تكرار أخطائها، غير أنها لم تكن موفقة بنسجها على منوال الدول الأوروبية التي استخفت في البداية باحتمالية اتساع دائرة انتشار الفيروس إلى خارج الصين ومحيطها المباشر ثم لم تتخذ التدابير المناسبة والصارمة بعد انتقاله إليها. وقد أدى ذلك إلى انفلات الأمور من أيديها خاصة في ظلّ افتضاح الحالة المزرية والنقص الفادح في الإمكانيات الذي تشكو منه المنظومة الصحية العمومية الأوروبية الغربية بفعل التدابير التقشفية المسلطة عليها منذ عقود انسجاماً مع منطقتي اقتصاد السوق الذي حوّل صحة الإنسان والمرافق والخدمات الأساسية إلى سلعة تجارية مما أدى إلى التدايعات المأساوية والكارثية الحاصلة أمامنا في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا فضلاً عن الولايات المتحدة الأمريكية.

بعض الدروس المستخلصة من التعاطي الدولي مع الجائحة

وإذا كانت هذه القوى الموصوفة بالعظمى عاجزة عن احتواء الارتفاع الجنوني لعدد الإصابات لديها مما حوّلها إلى مصدر أساسي لتفشّي وباء الكورونا على الصعيد الدولي، فكيف سيكون الحال في تونس ذات المنظومة الصحية المتهاكلة وغير المؤهلة لمواجهة الكوارث سيما إذا صدقت التوقعات السلبية والمتشائمة لجلّ الخبراء العالميين والتونسيين الذين يتوقعون أن يمتد انتشار الوباء لفترة طويلة قادمة؟ فترة تتمدد خلالها العدوى القاتلة إلى كافة أرجاء العالم لتشمل المنطقة العربية والقارة الأفريقية الفاقدة لأبسط المقومات للتعاطي بنجاعة مع مثل هذه الآفات.

ومهما يكن من أمر، فإنّ تونس مدعوة، على ضوء المخاطر المحدقة بها في علاقة بالتطورات والمستجدات ذات الصلة بهذه المحنة على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي، إلى تعديل بوصلتها باتجاه السعي إلى الاستفادة من تجارب الأطراف الدولية التي أثبتت نجاعتها وحسن تنظيمها في التعامل مع هذا الخطر الداهم وعلى رأسها الصين الشعبية وروسيا وكوبا التي سارعت بإغاثة الدول المنكوبة ومنها الولايات المتحدة الأمريكية من منطلقات مبدئية

WORLD WAR III FIGHT THE VIRUS COVID-19 CORONAVIRUS

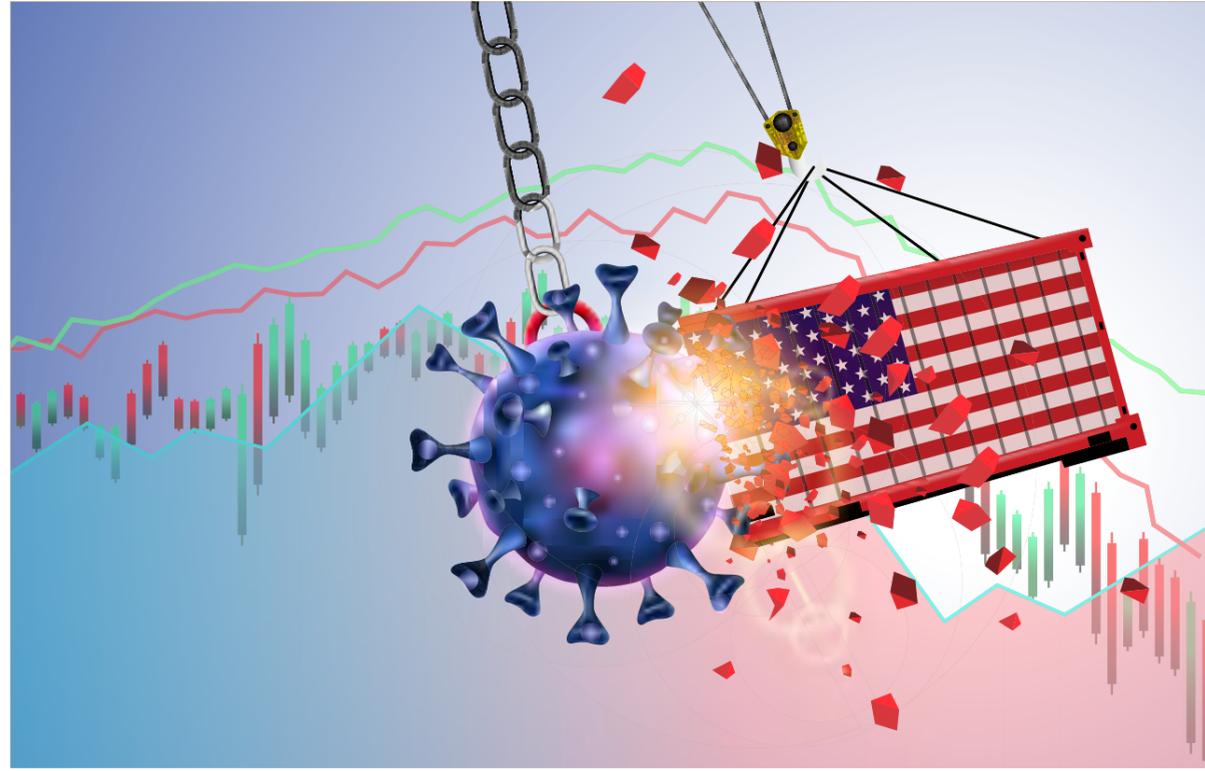


الحرب العالمية على فيروس كورونا وتداعياتها وطنياً وإقليمياً ودولياً

في تاريخ الشعوب لحظات فارقة تبيّن فيها مدى قدرة القيادات على التعاطي بحكمة ومسؤولية ونجاعة مع المحن والكوارث بهدف احتوائها والحد من تداعياتها وانتشارها داخل الحدود الوطنية وعلى الصعيد الدولي سيما عندما يتعلق الأمر ببروز خطر داهم عابر للقارات مثلما هو الحال بالنسبة إلى فيروس كورونا الفتاك الذي باغت البشرية بسرعة انتشاره إلى كافة أرجاء العالم مخلّفاً في حيز زمني وجيز أكثر من مليون وربع مليون إصابة وعدد مفعج من الضحايا جلهم من البلدان الغربية المتقدمة التي يفترض أن منظوماتها الصحية مجهزة للتعاطي مع أحلك الأوضاع وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وكبرى الدول الأوروبية.



• بقم أحمد بن مصطفى



المتكافئة المرتبطة بانخراط تونس منتصف الثمانينات في منظومة اقتصاد السوق العمود الفقري للمنوال الاقتصادي التونسي والإطار المنظم للتعاون والشراكة بين تونس وشركائها الرئيسيين بالضفة الشمالية للمتوسط وعلى المستوى الدولي. ولعل ذلك من أهم أسباب تعثر الانتقال السياسي والديمقراطي والاقتصادي بتونس بعد الثورة الذي يعزى بالأساس إلى تمسك الحكومات المتعاقبة بالخيارات الاقتصادية والدبلوماسية للنظام السابق رغم ثبوت فشلها بفعل وصول منظومة اقتصاد السوق إلى طريق مسدود ودخولها في أزمة مستفحلة منذ 2007 وهي مرشحة لمزيد التعقيد بسبب أزمة الكورونا التي ضربتها في الصميم وقوّضت أركانها. خلاصة القول لا أحد يستطيع اليوم التكهن بمآلات هذه المعضلة العالمية وتداعياتها الآتية والمستقبلية على تونس وفي العالم ولكنها تشكل بالتأكيد نقطة فاصلة في تاريخ البشرية، وقد تؤثر سلبا على السلم والأمن الدوليين خاصة في ظل عودة أجواء الحرب الباردة المواقبة للتحوّلات والمتغيّرات الحاصلة في موازين القوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية على الصعيد الإقليمي والدولي. **إ.ب.م.**

باحث في القضايا الاقتصادية والاستراتيجية

إدارة الشأن العامّ والعلاقات الاقتصادية والتجارية الدولية بما يخدم مصالحها الحصرية دون غيرها.

لكنّ هذا التوجّه الذي سعت مجموعة السبع إلى تعميمه وتكريسه على الصعيد العالمي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي أدى إلى ضرب الدور الاقتصادي والاجتماعي للدولة الوطنية وتجريدها من استقلاليتها قرارها ومن مصادر تمويلها الذاتية والوطنية ممّا كرس تبعيتها للتمويلات الخارجية والخاصة وللقرض المشروطة للمؤسسات المالية الدولية والتجمّعات الممثلة لمنظومة الحوكمة العالمية العابرة للحدود. كما تراجعت الديمقراطية الغربية بفعل انتشار هذه النمطية الاقتصادية التي لا تراعي الفوارق في مستويات التنمية ولا الحاجيات التنموية الخصوصية للدول المتخلفة حيث أصبحت الانتخابات غير قادرة على فرض مراجعة السياسات والخيارات الاقتصادية، ممّا أفرغ المنظومة الديمقراطية من أيّ مضمون حقيقي طالما أنّ التداول على السلطة أصبح في غالب الأحيان شكلياً ولا يؤدي إلى تغيير السياسات والواقع الاقتصادي والاجتماعي للشعوب إلى الأفضل.

وهذا ما تؤكده أيضا المسيرة التنموية التونسية المرتبطة بسيرورة العلاقات التونسية الأوروبية إذ شكّلت اتفاقيات التبادل التجاري غير

الموعود بها وكذلك لتعويض النقص المتوقع في الموارد الجبائية نتيجة تعطل أو تقلص الحركة الاقتصادية في عديد القطاعات الخدمية والإنتاجية.

وفي هذا الإطار لا بدّ من النظر في فتح مفاوضات مع الدائنين بخصوص تعليق الالتزامات المتعلقة بخدمة المديونية ومنها خاصة خدمة المديونية الخارجية المقدّرة بحوالي 5 من أصل قرابة 8 مليار دينار. ويكتسي هذا الأمر أهمية قصوى وهو يتطلّب في تقديري الدخول في مفاوضات على المستوى الثنائي والمتعدّد الأطراف مع الدائنين لبحث سبل إرجاء تسديد الديون الخارجية أو إعادة جدولتها ليتسنى تسخير هذه الاعتمادات في إطار الحرب على الكورونا سيّما وأنّ هذه الجائحة مرشحة وفقا لتوقعات الخبراء للاستمرار والتمدّد إلى أمد غير منظور.

كما يمكن لتونس العمل على تفعيل البنود الوقائية لاتّفاق التبادل الحرّ للسلع الصناعية الموقع مع الاتحاد الأوروبي وهي تخوّل إعادة فرض الرسوم الديوانية بشكل مؤقت للتخفيف من حجم العجز المتفاقم في توازناتنا المالية والتجارية.

وعلى صعيد متصل نشير إلى البلاغ المشترك الموجه حديثا من قبل صندوق النقد الدولي والبنك العالمي إلى مجموعة العشرين لحثها على تعليق مديونية الدول الفقيرة لتمكينها من تسخير إمكانياتها الشحيحة لمواجهة انتشار الفيروس في ربوعها. ويمكن لتونس المطالبة بتفعيل هذه الآلية لصالحها في انتظار التوصل في مرحلة لاحقة الى حلول جذرية لقضية المديونية ذات الصلة بالاختلالات الهيكلية في علاقاتنا الدولية مع شركائنا الأساسيين. ومن هذا المنطلق، تبرز الحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى مراجعة عميقة لحصيلة علاقاتنا وشركائنا مع الدول والتجمّعات الدولية ومنها خاصة الاتحاد الأوروبي ومجموعة السبع دول صناعية كبرى والمؤسسات المالية المتفرّعة عنها مع الأخذ بعين الاعتبار العقيدة الدبلوماسية لهذه المجموعة والأهداف التي بعثت من أجلها التي لا تؤهلها لمساعدة الدول المتخلفة مثل تونس على تجاوز أزماتها الاقتصادية والمالية الخانقة وبناء اقتصاديات إنتاجية موجهة لتلبية حاجيات شعوبها ووقايتها من الكوارث فضلا عن حمايتها من المخاطر الخارجية المستهدفة لمقدّراتها وثرواتها والمهددة لوجودها ومستقبلها.

لقد أثبتت التجارب التنموية الحديثة والمعاصرة في البلدان الغربية المتقدّمة وفي البلدان الصاعدة، الدور المحوري الذي اضطلعت به الدولة الوطنية المركزية على مرّ العصور في رسم المخططات والخيارات الاستراتيجية المؤسسة للنهضة الصناعية والفلاحية والعلمية والتكنولوجية التي مكّنت هذه الدول من اكتساب مقومات التفوّق والهيمنة ممّا أهلها لفرض النمط المجتمعي والمناوال الرأسمالي الاقتصادي والسياسي الغربي كأسلوب مرجعي

باتّجاه مزيد تكريس النزعات الحمائية وسياسة التوقع على الذات التي برزت في السنوات الأخيرة انطلاقا من الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى تصريحات أدلى بها مؤخرا الأمين العامّ للأمم المتحدة ومفادها أنّ هذه الجائحة ستتسبّب في ركود اقتصادي عالمي ليس له مثيل في الماضي القريب، هذا فضلا عن التداعيات الصحية والاجتماعية المأساوية التي تطال كافة أرجاء المعمورة وبصفة خاصة الطبقات الأكثر فقرا وهشاشة لا فقط بالبلدان الفقيرة بل أيضا بالدول المتقدّمة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ تونس مدعوّة إلى التحسّب لتداعيات هذه الجائحة الاقتصادية على الأمدين المتوسط والبعيد خاصة وأنّ لاقتصاد التونسي شديد الارتباط بالسوق الأوروبية من خلال اتفاقيات الشراكة مع الاتحاد الأوروبي الذي يمرّ مرحلة مفصلية من تاريخه في ظلّ الأزمة العالمية الاقتصادية المتصاعدة بفعل شبه الشلل الذي أصاب كافة أشكال المبادلات على الصعيد الدولي. وفيما يلي سنحاول رصد انعكاسات هذا الوضع على علاقات تونس الخارجية والخطوات التي يمكن للحكومة التونسية القيام بها على الصعيد الدولي لتساعدها على تأمين الإمكانيات الاستثنائية الضرورية لمواجهة آثار الأزمة الآتية والمستقبلية.

تونس في مواجهة التداعيات الدولية للأزمة

من ضمن الانعكاسات المباشرة للأزمة، ردّ الاعتبار لدور الدولة الوطنية الراعية لشؤون مواطنيها والحامية لهم في مواجهة كافة أشكال التهديدات الداخلية أو الخارجية. غير أنّها كشفت أيضا أنّ جلّ الحكومات عاجزة عن الاضطلاع بهذا الدور على النحو المطلوب لأسباب عديدة تتعلّق بإعادة توزيع الأدوار الاقتصادية محليا ودوليا لفائدة القطاع الخاصّ على حساب القطاع العامّ، فضلا عن النمط السلوكي والمجتمعي السائد في عصر العولمة الخاضعة لسلطة مؤسسات الحكومة الدولية وعلى رأسها مجموعة السبع. لكنّ الظرفية الاستثنائية الحالية أظهرت أنّه لا يمكن الاستغناء عن دور القطاع العامّ والدولة الوطنية في مواجهة الجوائح ممّا فرض على الحكومات المركزية تحمّل مسؤولياتها والسعي إلى الحصول على السلطات والإمكانيات التي تخوّل لها تلبية الحد الأدنى من حاجيات شعوبها المنكوبة وانتظاراتها.

على الصعيد الوطني ودون التقليل من أهمية الإجراءات التي اتخذتها الحكومة لمواجهة اتّساع تفشيّ الفيروس بتونس، فإنّها ظلّت تتوهم حول التدابير الاستثنائية العاجلة التي تمّ الكشف عنها وهي مركّزة بالأساس على إعادة توزيع موارد الميزانية بهدف توفير الاعتمادات اللازمة لتمويل النقص الفادح في المستلزمات الطبية وضمان استمرارية دفع المرتبات والمساعدات والتعويضات



• بقلم رشيد خشناة

من «كوفيد بنس» إلى ديمقراطية كورونا تداعيات ما بعد الحجر

قليلًا

ما عرف العالم جوائح وأوبئة، مثل التي تصطبلي الإنسانية بناها حاليا في جميع القارات. وستكون لهذه الجائحة انعكاسات عميقة وارتدادات غير مرتقبة على العلاقات الأمريكية- الصينية، والأمريكية - الأوروبية، وحتى الأوروبية - الأوروبية، إذ يتوقع المحللون صعودا صاروخيا للصين، بعد الحرب، مقابل تحبب أمريكي وأوروبي.

لماذا تفوقوا؟

يروى الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ما دار في لقاءه الأخير مع الرئيس الحالي ترامب، الذي دعاه إلى البيت الأبيض ليستمع إلى تجربته في الحوار مع الصين، فقال السلف للخلف: «أنت تخشى أن تتفوق علينا الصين وتسبقنا؟ أنا متفق معك. لكن هل تعرف لماذا تجاوزتنا الصين؟ قُمت بتطبيع العلاقات معها في 1979. هل تعرف كم مرة منذ ذلك التاريخ خاضت الصين حروبا مع أي كان؟ ولا مرة. أما نحن فبقينا دوما في حروب (متوالية). الولايات المتحدة هي الأمة الأكثر عدوانية في تاريخ العالم، لأنها تسعى لفرض القيم الأمريكية على البلدان الأخرى. أما الصين فتستثمر ثرواتها في مشاريع، مثل خطوط السكة الحديدية فائقة السرعة، عوض أن تُخصّصها للإنفاق العسكري. نحن صرفنا 3000 مليار دولار في المجال العسكري، بينما لم تُهدر الصين مليئا واحدا من أجل الحرب، ولذلك فهي مُتقدّمة علينا اليوم».

شلل عالمي

إلى ذلك، أماطت الأزمة اللثام عن اختلالات جوهرية في بلدان صناعية كبرى، ما كان أحد يتخيل أنها غير مُهيأة إلى تلك الدرجة، على صعيد البنية الصحية الأساسية، وقاية وعلاج (إيطاليا مثلا). هكذا أدى الانتشار الزاحف للفيروس إلى شل الحياة في جميع مناطق العالم تقريبا. الأنشطة العمومية ألغيت، والمهرجانات أُرجمت، وعروض الأفلام توقفت، والمباريات الكروية أبطلت. سويسرا بلد الرفاه والبدخ، ترنحت تحت ضربات الجائحة، تماما مثل القوة العالمية الأولى، التي سدّدت لها «كوفيد 19» ضربة أكبر وأخطر من ضربة بُرجي مركز التجارة العالمي في 2001

والهجوم على بيرل هاربر في الحرب العالمية الثانية. امبراطورية الشمس فرضت على نصف مواطنيها حظر التجول في كافة الأركيبيل الياباني. أما في بريطانيا العظمى، فجدندل الفيروس رئيس الوزراء بلا رحمة، وترك الجيش بلا قائد. والنتيجة أننا اليوم بإزاء أكثر من ثلاثة مليارات شخص، تمّ وضعهم قيد الحجر الصحي، الذي قد يُفضي إلى أسوأ ركود اقتصادي في العصر الحديث.

لذلك يتركز التفكير في المرحلة الراهنة من انتشار الجائحة، ليس فقط على احتواء تمددها، وإنما أيضا على توقّع ما ستحدثه من تغييرات كبرى في جوارنا الأوروبي والأفريقي. وقد واجهت القارة الأفريقية وباء «إيبولا» بين 2014 و2016، بدعم من المجتمع الدولي، فلم تتجاوز الوفيات 11310 وفاة. وعلى الرغم من الفساد وغياب الحوكمة، اللذين عطّلا في الماضي توزيع المساعدات في عدّة بلدان أفريقية، لاحظ الخبراء، هذه المرة، تحسّنا في إدارة الأزمة الصحية. غير أنّ الخارجية الفرنسية لا ترى، على ما يبدو، أي أمل من هذا النوع في المستقبل القريب، بل هي تتوقّع انهيار عدّة أنظمة سياسية في غرب أفريقيا، وخاصة دول الساحل والصحراء، ما إن يجتاح الوباء تلك البلدان بكثافة، لأنها لا تملك وسائل السيطرة عليه.

العاصفة قادمة

وحملت مذكرة داخلية أعدها «مركز التحليل والاستشراف والاستراتيجية» في الخارجية الفرنسية، توقّعات تخص احتمال سقوط بعض الأنظمة، كما في أفريقيا الوسطى ودول الساحل، جزاء العجز عن احتواء الفيروس، في مقابل نجاة بلدان أخرى تتمتع بمؤسسات أقوى، أسوة بالسينغال ورواندا وأثيوبيا.

أكثر من ذلك، يتوقّع الفرنسيون في الوثيقة، التي يبدو أنّ وزارة الخارجية نفسها هي من سرّبها إلى بعض وسائل الإعلام، وهي بعنوان «العاصفة القادمة إلى أفريقيا»، أنّ الالتزام بالحجر الصحي في البلدان الأفريقية، سيضرب بالاقتصاد الموازي، الذي بفضلته تسدّ عائلات كثيرة رمقها. ورهّا يتطوّر إلى انتفاضات وأعمال عنف. وحتى في البلدان المصدرة للنفط في وسط القارة

(الغابون والكامرون وكونغو برازافيل)، ستكون الصدمة قويّة، وقد تؤدّي إلى اهتزاز النظام الاقتصادي القائم على الريع النفطي. ومن غير المستبعد أن تلجأ بعض الحكومات إلى الفرز بين المصائب، أي بين من يحظون بالعلاج في المستشفيات، ومن تعجزُ المستشفيات عن استيعابهم، لانعدام الأماكن المتاحة. واستطرادا قد يشمل ذلك التمييز الجهات أيضا، فثُضطرّ السلطات الصحية إلى التركيز على بعض المناطق والأحياء، والتخلّي عن مناطق وأحياء أخرى. لكنّ الخبراء يُشكّكون في توقّعات المركز الفرنسي، ويعتقدون أنّ أزمة إيبولا وأزمات سياسية وصحية سابقة، صلبت عود الطواقم الطبية المحلية، وجعلتها أقدر على التعاطي مع هذا النوع من الأزمات.

الصراع على الزعامة

من هنا تأتي أهميّة استشراف ما يُسمّى اليوم التالي The day after إذ أنّ الحرب الاقتصادية ستحدث بين الصين والولايات المتحدة، على زعامة العالم، وعلى من يستحقّ أن يكون قائدا لهذه المرحلة. والأكد أنّ الفائز، الذي سيُتوجّ قائدا للبشرية في الفترة القادمة، سيُعيد تشكيل خارطة العالم ويصوغ توازنات جديدة، تضع حدّا لاتفاق يالطا، الذي قسّم مناطق النفوذ بين المنتصرين في الحرب العالمية الثانية.

بهذا المعنى فإنّ الموجة الأولى من اجتياح كوفيد 19، ستُسبّب خسائر بشرية واقتصادية كبيرة، أكثر من الموجة الثانية (المتوقّعة في الخريف). فإذا كانت الجائحة الآتية من يوهان (أو إيران؟) منرجا غير مُسجّل في توقّعات المخططين والخبراء الاستراتيجيين، فإنّ كلّ العالم بات اليوم متخوفا من الموجة الثانية، ومضطرا للرضوخ لمقتضياتها وإكراهاتها.

«كوفيد بنس»

من المؤكّد أنّ الأنظمة التي اعتادت على حماية الفساد والتستّر على الفاسدين والمهزّبين، ستنتهز الفرصة للمضي في النهج نفسه، بالرغم من مأسوية الأوضاع الراهنة. وهناك من أطلق على هذه الأعمال الإجرامية تسمية «كوفيد بنس»، في إشارة إلى ازدهار الفساد في الأوساط الحاكمة بعدة بلدان أفريقية. والأرجح أنّ هذا البنس سيزدهر مع وصول العطاءات التي وعدت كلّ من الصين وأوروبا، بإرسالها إلى الدول الأفريقية، ممّا سيُجمّع أزمة المجتمعات والنخب الحاكمة على السواء. بل إنّ الخبراء يتوقّعون زيادة كبيرة في أعمال العنف وانتشارا أوسع للجريمة مع ارتقاء قبضة الأنظمة، وهو ما سيساهم بدوره في مزيد إضعاف الأنظمة الحاكمة.

على هذا الأساس هناك من يشكّ في مدى الشعور بالمسؤولية لدى النخب الأفريقية الحاكمة، التي لا يُستبعد أن تمضي في عمليات اللصوصية والاحتيال للاستحواذ على النصيب الأكبر من

المساعدات العينية (كامات، أقنعة واقية، أدوات تحليل...) لترويجها في الأسواق الموازية.

أهمّودج ديمقراطي

أمام هذا الأهمّودج السليبي، تتبلور في آسيا حاليا نماذج مضادّة، تتفوق حتّى على المثال الصيني، الذي يعتمد، مثلما هو معروف، على نظام سياسي منغلق (استبدادي) ونظام اقتصادي منفتح (اقتصاد سوق)، فعلى بعد بضعة مئات من الكيلومترات عن شاطئ الصين برزت أمثلة آسيوية، جديدة بالاستلها من، لكونها تجمع بين النظام الديمقراطي سياسيا، والمعالجة النابضة بالحياة في تعاملها مع الجائحة. هكذا هي تجارب كوريا الجنوبية وتايوان وسنغفورة وغيرها، التي اعتمدت أسلوبا حازما في التصدي لأعراض «كوفيد 19»، وحافظت في الوقت نفسه على الحقوق والحريّات الديمقراطية الأساسية لشعبها. ومن الأدلّة على ذلك إصرار الكوريين الجنوبيين على إجراء الانتخابات البرلمانية في موعدها، أي يوم 15 أفريل الجاري، مع قيام المرشّحين بحملاتهم في ظروف خاصة.

أما على الصعيد الاقتصادي فيرجّح الخبراء أنّ المستهلكين سيُقبلون على الاستهلاك بشراهة بعد انتهاء الحجر الصحي، ممّا يُحرّك عجلة الاقتصاد ويرفع من نسبة النمو بشكل سريع، لكن إذا لم يكن الإنتاج في مستوى الطلب، ستلتهب الأسعار. كما يعتبر الخبراء نهاية الحجر فرصة نادرة لإقلاق اقتصادي بخطّ بياني تصاعدي.

التجربة الألمانية

من المهمّ أن نعرف هنا فحوى الخطّة التي وضعتها ألمانيا، على سبيل المثال، للخروج من العزل الصحي، الذي بدأ يوم 22 مارس الماضي، فهي ترفض الالتزام بمواعيد مُحدّدة، غير أنّها وضعت قائمة بالتدابير المصاحبة، التي ستُطبّقها حالما يُشرع في رفع الحجر المفرّر ليوم 19 أفريل الجاري. وبحسب تلك الخطّة، لن تنتهي الجائحة قبل سنة 2021، وستكون العودة تدريجية، ومرتبطة بمدى تراجع انتقال العدوى. وستبدأ بإعادة فتح المتاجر الصغيرة والمدارس في بعض المقاطعات، مع استمرار حظر التجمّعات الكبرى وحتى الحفلات الخاصة. كما يتّجه الألمان إلى فرض إجبارية ارتداء الأقنعة في القطارات والحافلات والمصانع والبنائات العمومية، ما أن يتمّ تصنيعها بالكميات الكافية. أما نحن فعلى أن نُعدّ العدة للخروج من تحت جناح هذه الجائحة، بأقلّ الخسائر والأضرار. ولن يتأتّى ذلك إلا بانضباط الجميع والتزامهم بالإجراءات الوقائية والعلاجية على السواء، ومحاسبة المخالفين بشدّة، لأنّ للحرب قواعد وقوانينها، ونحن مطالبون جميعا، وبلا استثناء، بالامتثال لها، وهو أضعف الإيمان. ■

ر.خ.

كذلك المواطن التونسي من الولوج للخدمات الاجتماعية بتكلفة دنيا تتماشى ومقدرته الشرائية. فما هو الاقتصاد الاجتماعي والتضامني؟ وما هي أهميته للاقتصاد التونسي. وكيف يمكن أن يخلق الثروة ومواطن الرزق؟

ما هو الاقتصاد الاجتماعي والتضامني؟

على خلاف المؤسسات العمومية التي تتحصّل على دعم مالي من طرف الدولة، تتمتع مكونات الاقتصاد الاجتماعي والتضامني باستقلالية مالية وتحمّل المخاطر المتأثية من الاستثمار. كما يتمثل النشاط الاقتصادي لهذا القطاع الثالث أساسا في الإنتاج، وبحسب بعض التعريفات، فإن المنظمات ذات النشاط الأساسي، المتمثل في إعادة توزيع الثروة، لا تدرج في إطار الاقتصاد الاجتماعي والتضامني بالرغم من أنشطتها يدخل في إطار التضامن الاجتماعي وذلك تخوفاً من المصادر المشبوهة لهذا النوع من الجمعيات. كما أنّ المؤسسات المنضوية تحت مسمى الاقتصاد الاجتماعي تضمن حدًا أدنى من التوظيف مدفوع الأجر ولا يمثل الربح الهدف الأساسي من وجودها بل الوسيلة التي تمكنها من إسداء خدمات اجتماعية حيث أنّ الهدف الأسمى للاقتصاد الاجتماعي والتضامني هو الإنسان وليس رأس المال.

فاستنادا إلى مشروع القانون الذي عرضه الاتحاد العام التونسي للشغل على البرلمان في فصله الثاني، يقصد بالاقتصاد الاجتماعي والتضامني «مجموع الأنشطة والمبادرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية ذات الغايات الاجتماعية المتعلقة بإنتاج وتحويل وتوزيع وتبادل وتسويق السلع والخدمات التي تؤمّها الذات المعنوية الخاضعة للقانون الخاص استجابة للحاجيات المشتركة والمصالح المجتمعية والتي لا يتمثل هدفها الأساسي في تقاسم الأرباح». كما تخضع القانون، في فصله الثالث مؤسسات الاقتصاد الاجتماعي والتضامني إلى سبع قواعد: «أولوية الإنسان وقيمة العمل والغاية الاجتماعية والتضامنية على رأس المال، عضوية وانسحاب مفتوح وطوعي دون تمييز مبني على الجنسية والدين والنوع الاجتماعي مع احترام الصبغة المدنية للدولة، تسيير ديمقراطي بالاعتماد على قاعدة صوت واحد لكل عضو مع شفافية التسيير، تعاون طوعي ومساعدة متبادلة بين مكونات الاقتصاد الاجتماعي والتضامني، ربحية محدودة أو معدومة وتوظيف جزء من الفواضل الصافية لتحسين الخدمات وتنمية الأنشطة، ملكية غير قابلة للتقسيم واستقلالية تجاه السلط العمومية والأحزاب السياسية».

أهمية الاقتصاد الاجتماعي والتضامني

أثبتت الأزمات الاقتصادية المتعاقبة من أزمة 1929 و2008 وأخيرا أزمة 2020 لوباء كوفيد 19 قصور نظام اقتصاد السوق

العام في تونس غير قادر لوحده على تأمين حد أدنى من الخدمات الحياتية الضرورية ولا على توفير المناخ الملائم لجلب المستثمرين من داخل البلاد وخارجها. أما القطاع الخاص، فيشهد منذ سنوات فتورا عن الاستثمار وهو ما جعل من نسبة الاستثمار الخاص من الناتج المحلي الإجمالي الأضعف مقارنة بالدول الشبيهة. فالدور الاقتصادي والاجتماعي الهام الذي يلعبه قطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني في عديد الدول يجعل من التفكير في تغيير المنوال الاقتصادي في تونس أمرا ضروريا.

أظهر المنوال التنموي المتبع في تونس قصورا في معالجة المسألة الاجتماعية، وهو ما يتجلى حاليا في عديد الأزمات التي يشهدها الاقتصاد التونسي من تراجع في جودة خدمات الصحة والتعليم والتغطية الاجتماعية ومن أزمة مالية خانقة تشهدها مؤسسات الخدمات الاجتماعية وهو ما استحاله من طرف المنوال الاقتصادي القائم على القطاعين العام والخاص. وأمام تراجع الدور الاجتماعي للدولة في السنوات الأخيرة، تحوّل جزء هام من الأنشطة الاجتماعية من القطاع العام الى القطاع الخاص وانعكس سلبا على قدرة المواطن التونسي على مجاراة نسق خصصة الخدمات الاجتماعية نظرا لتكاليفها العالية وغير المتناسقة مع مقدرته الشرائية المتهترئة. هذا التحول في المنوال الاقتصادي القائم والمتمثل في تراجع دور الدولة الاجتماعي مقابل خصصة أهم الخدمات الاجتماعية يتطلب مراجعة جذرية للمنوال القائم على القطاعين العام والخاص ويدعو إلى التفكير بأكثر جدية في اختيار الطريق الأمثل لتونس، فهل يمكن لتونس في قادم السنوات أن تسترجع دورها الاجتماعي وما يتبع ذلك من ضرورة توفير الموارد المالية لهذا الخيار من ترفيع في الضرائب أو من مزيد من التداين الخارجي على حساب السيادة الوطنية، أم تواصل في نفس النهج نحو المزيد من خصصة الخدمات الاجتماعية لإحلال التوازنات الضرورية للمالية العمومية لكن على حساب المقدرة الشرائية للمواطن التونسي؟ ومن منطلق المنوال الاقتصادي القائم، كلا الخيارين له تكاليفه الاجتماعية الباهظة فإما أن تتكفل الدولة كليًا بتوفير الخدمات الاجتماعية-وما يتبع ذلك من ضرورة الترفيع في الضرائب لتمويل ذلك-أو تحيلها على القطاع الخاص للاستثمار فيها، وفي كلتا الحالتين يتحمّل المواطن التونسي التبعات المالية لذلك. فإن ذهبنا في الخيار الأول، فالزيادة في الضرائب ستكون على حساب المقدرة الشرائية للمواطن التونسي وإن اخترنا الذهاب في خصصة الخدمات الاجتماعية، فإن هذا الأخير سيتحمّل كليًا تكاليفها الباهظة. وأمام انسداد الحلول التي يمكن أن يقدمها المنوال الاقتصادي القائم على الديون وعلى الضرائب، تأتي أهمية المنوال التنموي لاقتصاد السوق الاجتماعي والتضامني كحلّ لتونس يمكن من تخفيض العبء المالي على الدولة بدون اللجوء الى الزيادة في الضرائب ولا في الديون ويمكن

فالققطاع



الكورونا: هل سيكون قطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني عنصرا مهما في مخطط التنمية القادم لتونس؟

وضعت أزمة الكورونا التي يعيشها العالم هذه الأيام، العلاقة بين الدولة والمجتمع على محك الاختبار، فحسن إدارة الأزمة عادة ما يرتبط بوجود دولة قوية ومجتمع متماسك وواثق من مؤسساته مما يجعل من منسوب التكامل بين المؤسسات المكوّنة للاقتصاد قويا وقادرا على تطويق الأزمة. فالعلاقة بين القطاع العام والقطاع الخاص وقطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني وحسن توزيع الأدوار بينهما سيمكن الاقتصاديات المتناسكة من تجاوز مخلفات أزمة الكوفيد 19. وبالرغم من المساعدات التي تلقفتها تونس من المؤسسات الدولية وكذلك من المجتمع المدني ومن البنوك التونسية، إلا أنها ليست كافية لمحاربة شاملة لهذا الوباء في صورة انتشاره نظرا لما ما خلفه من آثار اقتصادية واجتماعية مدمرة. وما نشهده حاليا من اضطراب في تزويد السوق بالمواد الغذائية وصعوبة في إيصال المساعدات الى أصحابها وخوف من القدرة على تعبئة الموارد المالية في صورة تواصل الأزمة إلا عناوين لفشل المنوال الاقتصادي المتبع في تونس والقائم على إقصاء جزء هام من الاقتصاد التونسي، وهو قطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني.



• بقلم رضا الشكندالي

مثل هذه النوعية من الشركات إذ تطور عدد هذه الأخيرة من 151 سنة 2006 إلى 270 شركة أساسية سنة 2017. إلا أن هذا العدد يبقى ضعيفا ولا يشمل إلا 6% من الفلاحين بالرغم من حسن انتشار هذه الشركات في كل ولايات الجمهورية. وقد أحدثت ثلث الشركات التعاونية (87 شركة) منذ 2013 ويعدّ هذا الجزء بالتالي في مرحلة بدء النشاط الاقتصادي. لكنّ الثلث الآخر (87 شركة) يعيش إمّا صعوبات اقتصادية (49 شركة) أو يشهد توقفا تامّا تماما عن النشاط الاقتصادي (40 شركة) ولم يتبقّ إلا 94 شركة تعاونية للخدمات الفلاحية من بين 270 شركة أساسية في طور الاشتغال، أغلبها في الجنوب الشرقي وفي الوسط الشرقي وخاصة في قابس وصفاقس.

• مجامع التنمية في قطاع الفلاحة والصيد البحري المعرّفة بقانون عدد 43 لسنة 1999 وبأمر عدد 1819 لسنة 1999 والمتعلق بالنظام الأساسي النموذجي لمجامع التنمية في قطاع الفلاحة والصيد البحري. وحسب القانون الأساسي لهذه المجامع، فإنها تتولى إنجاز المهام التي تستجيب لحاجيات منخرطها ومتطلبات النهوض بقطاع الفلاحة والصيد البحري والخدمات المتصلة به. وتتمثل هذه المهام على وجه الخصوص في حماية الموارد الطبيعية وترشيد استعمالها وإنجاز الأشغال الفلاحية وتولي خدمات الصيد البحري وتجهيز مناطق تدخلها بما تحتاجه من تجهيزات ريفية والعناية بالغراسات والمزروعات ومداواتها وحراستها ومساعدة الهياكل المعنية على تطهير الأوضاع الزراعية وتطوير إنتاجية المستغلات الفلاحية وغيرها. وتعتبر المجامع المائية المكوّن الأساسي للمجامع في قطاع الفلاحة والصيد البحري إذ تعد 2690 مجمعا مائيا حسب آخر الإحصائيات لوزارة الفلاحة والصيد البحري. وتنقسم هذه المجامع إلى مجامع للماء الصالح للشرب (1370 مجمّع) ومجامع للري (1203 مجمّع) ومجامع مزدوجة تعتنى في الآن نفسه بتجميع الماء الصالح للشرب وتجميع الماء الصالح للري (117). ومن بين هذه المجامع، أحصت مصالح وزارة الفلاحة والصيد البحري والموارد المائية حوالي 264 مجمعا متوقفا عن العمل وهو لا يمثل غير 10% من العدد الجملي للمجامع المائية. وبالمقارنة مع إحصائيات الوزارة في سنة 2009، فإنّ عدد المجامع المائية لم يتطور بالكيفية اللازمة، إذ أحدثت 334 مجمعا فقط في غضون 10 سنوات كاملة أغلبها للري (185 مجمعا) وبخاصة في الجهات الغربية من البلاد التونسية وهي مناطق فقيرة (الكاف والقصرين وقفصة وقبلي) مقابل تلاشي 76 مجمعا مائيا جليا في الولايات الشرقية من البلاد التونسية وهي مدينين وبنزرت وقابس. وتتمركز هذه المجامع المائية أساسا في المنطقة الغربية للبلاد التونسية (62%) وبخاصة في القصرين والقيروان حيث تمتلك هاتان الولايتان خمس المجامع المائية المتواجدة في الأراضي التونسية. وقد أفادت المجامع المائية للماء الصالح

(1) الجمعيات المعرّفة بالمرسوم عدد 88 لسنة 2011 : حسب الإحصائيات المنشورة في موقع مركز إفادة بتاريخ 31 مارس 2020، يضم النسيج الاقتصادي في تونس 23 ألف و320 جمعية، منها 4 آلاف و693 جمعية في ولاية تونس لوحدها والبقية موزعة بين بقية الولايات. وتعتبر الجمعيات الموجهة لمساعدة المدارس والجمعيات الرياضية والثقافية أكثر من نصف العدد الجملي للجمعيات في تونس، فالنوع الأول والثاني من الجمعيات يمثل 20% لكل منهما والنوع الثالث يمثل 12% والوداديات 6% من النسيج التنموي والتمويلية إلا 12% والوداديات 6% من النسيج الجمعياتي في تونس. وتتمركز أكثر من نصف الجمعيات (52%) في إقليم تونس والوسط الشرقي وبخاصة في ولاية تونس (20%) وصفاقس (8%) بينما لا تمثل الجمعيات في الجنوب الغربي إلا 7% وفي الشمال الغربي إلا 9%. وتتوزع الجمعيات في تونس إلى 16 نوع حسب نوعية النشاط :

عدد الجمعيات حسب مركز إفادة بتاريخ 31 مارس 2020

عدد الجمعيات حسب مركز إفادة بتاريخ 31 مارس 2020		23 320 جمعية	
شبابية	404	مدارس	5914
طفولة	312	ثقافية وفنية	5854
أجنبية	191	اجتماعية وخريرية	6012
تشيكية وتسقيفة	89	تنموية	4242
		حقوقية وقانونية	291
		مواطنة	291
		علمية	7481
		نسائية	203
		رياضية	7982
		وداديات	2961

الهياكل المهنية الفلاحية : تتضمن هذه الهياكل الشركات التعاونية للخدمات الفلاحية وكذلك مجامع التنمية في قطاع الفلاحة والصيد البحري.

• الشركات التعاونية للخدمات الفلاحية المنضوية تحت قانون عدد 94 لسنة 2005، وهي شركات ذات رأس مال متغير ومساهمين متغيرين، تنشط في قطاع الخدمات المتصلة بالفلاحة والصيد البحري وتهدف إلى تقديم خدمات لمنخرطها بغرض تأهيل المستغلات الفلاحية وتحسين التصرف في الإنتاج. ويتمثل نشاط هذه الشركات التعاونية بالخصوص في توفير المستلزمات والخدمات الضرورية لتعاطي النشاط الفلاحي والصيد البحري وإرشاد وتأطير منخرطها لدعم إنتاجية مستغلاتهم ورفع من مردوديتها وتحسين جودة المنتجات وترويجها بما في ذلك التجميع والخزن واللف والتحويل والنقل والتصدير وتخضع الشركات التعاونية للخدمات الفلاحية الأساسية إلى إشراف مباشر من طرف والي الجهة بينما تخضع الشركات المركزية إلى إشراف مزدوج بين وزارة الفلاحة والصيد البحري والموارد المائية ووزارة المالية. وقد تأسست تجربة الشركات التعاونية للخدمات الفلاحية في تونس سنة 2005 على أنقاض تعاقدات الخدمات الفلاحية الموجودة آنذاك وقد كانت بداية 2012 الانطلاق الحقيقي لبعث

المتقاعدون، أصحاب الخبرة المهنية، وكذلك التلاميذ المنقطعون عن الدراسة نظرا للمعدلات العالية للتسرب المدرسي وحتى أصحاب الشهادت العليا الذين يقضون سنوات عديدة وهم في حالة بطالة. مقابل هذه الضغوطات، لم تتطور الخدمات الاجتماعية بل زادت سوءا بعد الثورة نظرا لشحّ موارد الدولة وصعوبة اللجوء إلى التداين الخارجي لتمويلها وزادت اشتراطات المؤسسات الدولية وخاصة منها صندوق النقد الدولي بتجميد الانتدابات في الوظيفة العمومية الطين بلة ولم يساعد القطاع الخاص على توظيف آلاف العاطلين عن العمل ممّا يستوجب قطاعا ثالثا يساعد قطاعي العام والخاص على الاستجابة إلى الطلبات المتزايدة للشغل ويوفّر الخدمات الاجتماعية الضرورية. ولعل غياب قطاع خاص قوي وقادر على توظيف آلاف العاطلين عن العمل من أسباب وهن المنوال الاقتصادي القائم. فالقطاع الخاص في تونس يتكون من مؤسسات فردية قليلة النشاط وغير مبتكرة، زاد ضعف الإنتاجية في تراجع تنافسيتها. وما يميّز هذا القطاع ضعف نسق إحداث المؤسسات، 4 % سنويا على الفترة الممتدة من 2000 إلى 2015 مقابل 10 % في بعض الدول المتقدمة كسنغفورة، 86 % منها لا تنتدب ولا عامل وحيد. ومن مخلفات المنوال الاقتصادي القائم في تونس، التراجع الهام لمؤشر التنمية الجهوية في كل جهات الجمهورية وخاصة في المناطق الداخلية إذ لم تتمكن البرامج والمشاريع المبرمجة من طرف الدولة في تحسين جاذبية الجهات للاستثمار المحلي والدولي ولا يزال مؤشر الجاذبية في كل الجهات دون المؤمل. ويرجع ذلك بالأساس إلى مركزية القرارات والتي لا تعطي للجهات دورا فاعلا في رسم السياسات الاقتصادية والاجتماعية. وبالرغم من النجاح السياسي في الانتخابات البلدية والمصادقة على مجلة الجماعات المحلية، لا تزال البلديات مرتبطة في تنفيذ قراراتها بالسلطة المركزية ولا يزال إمضاء والي الجهة شرطا من شروط المرور إلى تنفيذ قرارات المجلس البلدي. وأمام ضعف إنجاز أهم المشاريع العمومية في أغلب جهات الجمهورية، يمكن لمؤسسات الاقتصاد الاجتماعي والتضامني أن تلعب دورا هاما في لا مركزية القرارات وتفعيلها شرط أن تتوفر البيئة الملائمة لمأسسة صحيحة لهذا القطاع في إطار منوال اقتصاد السوق الحر الاجتماعي والتضامني والذي يسمح للفرد أن يكون فاعلا في الحياة الاقتصادية ومشاركا في القرارات الهامة وليس عالة على الدولة أو على القطاع الخاص ينتظر فتات شغل قد يأتي أو لا يأتي. فقطع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني، قطاع يستثمر كغيره من القطاعات ويسهم في بناء التنمية المستدامة والعدالة.

الاقتصاد الاجتماعي والتضامني في تونس

يتضمن قطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني في تونس على جملة من الفاعلين الاقتصاديين لعل من أهمهم :

الذي يعتمد على إطلاق النشاط الاقتصادي الخاص بلا قيود مقابل تهميش لدور الدولة والمؤسسات ذات المنحى الاجتماعي. فقد أدى هذا النظام الاقتصادي، والذي تعتمد عليه عديد الدول في العالم، إلى زيادة نسبة الفقر والبطالة واتساع الهوة بين الفئات الاجتماعية وتنامي حدة الإقصاء والاستبعاد الاجتماعي لعديد الشرائح الاجتماعية وهو ما مثل الأرضية المناسبة للتوترات الاجتماعية والتي مهدت للتغيير في عديد الدول في العالم. وللتقليل من حدة السياسات الاقتصادية لنظام اقتصاد السوق، ظهرت مقاربات جديدة تلزم السياسات الاقتصادية المتبعة بأبعاد اجتماعية وتعطي الفرصة لقطاعات مهمشة وفاعلين خارج الدائرة الاقتصادية للمشاركة في الحياة الاقتصادية كي تكون داعمة لاقتصاد السوق، إذ تمثل هذه الأخيرة الرأسمال الاجتماعي والذي يشمل كل المنظمات والمؤسسات المنضوية تحت قطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني حيث تهتم بمجالات التعليم والصحة والبيئة والتنمية المحلية وتوفّر التمويل الأصغر للمشاريع الصغيرة. ولعل من أهم الأسباب التي دفعت إلى الاهتمام بالاقتصاد الاجتماعي والتضامني، موجة العولمة التي أدت إلى تنميط اقتصاديات دول العالم على نظام واحد وهو اقتصاد السوق الحر وإطلاق العنان للقطاع الخاص بدون قيود مع تخلي الدولة عن قطاعات استراتيجية لصالحه عبر عمليات الخصخصة والتي طالت عديد القطاعات وهو ما تسبب في بطالة عديد العاملين فيها وحرمان شرائح اجتماعية هشة من التمتع بالخدمات الاجتماعية الضرورية من صحة وتعليم ونقل. وفي تونس، تؤكد الحصيلة الاقتصادية لما بعد الثورة، والتي تتجلى في تفاقم البطالة في صفوف الشباب المتعلم وخاصة منهم النساء واتساع الفجوة بين المناطق المرفهة والمناطق المهمشة وتآكل للطبقة الوسطى وانحسارها نحو الطبقات الفقيرة، محدودية المنوال القائم على الإقصاء، إقصاء الشباب المتعلم من الدورة الاقتصادية وإقصاء المناطق الداخلية بالرغم من توفر الموارد الطبيعية والبشرية اللازمة. ولم تساعد السياسات الاقتصادية المتبعة من طرف الدولة من زيادة في الضغط الجبائي بـ5 نقاط كاملة وفي نسبة الفائدة المديرية بـ9 مرات متتالية منذ جانفي 2013 وتراجع مستمر في قيمة الدينار التونسي على دفع القطاع الخاص إلى مزيد الاستثمار في القطاعات ذات القيمة المضافة العالية وفي الجهات الداخلية والتي لا يتوفر فيه أدنى متطلبات التنمية. فالمزاي التفاضلية للمنوال الحالي لا تزال اليد العاملة الرخيصة. والاستثمار في القطاعات ذات المحتوى المعرفي المرتفع لا يزال في مستوياته الدنيا وحتى المتطلبات الضرورية للتنمية لا تزال مفقودة في الجهات الداخلية وخاصة في المناطق التي كانت منطلقا لثورة جانفي 2011.

ومع محدودية المنوال المتبع في تونس، برزت ضغوطات عديدة غير ملبأة من طرف الدولة ولا من طرف القطاع الخاص وتخص أساسا حالة الإهمال والتهميش التي يعيشها كبار السن وخاصة منهم

ALL NEW KORANDO

UNE VALEUR SURE

OÙ QUE VOUS SOYEZ



WWW.SSANGYONGTUNISIE.COM

SsangyongTunisie.officielle

TUNIS - Rte de soussa, GP1 Km7 2033 - Mîgrine
Tél: (+216) 70 130 070 - 70 130 060
Fax: (+216) 71 425 253

SOUSSE - Rte de cointure, 4022 Z.I. Akouda - Sousse
Tél: (+216) 70 130 040 - 70 130 050
Fax: (+216) 73 343 233

SFAX - Rte de Gabes, bvd de l'environnement, km 2.5 - Sfax
Tél: (+216) 70 130 020
Fax: (+216) 74 281 020

GABES - Rte de Tunis, Km 0.5 BP 31 - 6001 Hached Gabès
Tél: (+216) 70 130 090
Fax: (+216) 75 274 151

AUTOMOBILES ZOUARI
CONCESSIONNAIRE / SAV VEHICULES DE TOURISME

ويتضمن قطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني في فرنسا 221 ألف و 325 مؤسسة تساهم في خلق 10,5% من مواطني الشغل في فرنسا حيث يمثل المشتغلون في هذا القطاع 2 مليون و 370 ألف أجير. كما يمثل قطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني مكانة هامة في اسبانيا إذ يشغل حوالي 2.2 مليون شخص ويسهم في 12% من الناتج المحلي الإجمالي حسب المعطيات المتوفرة لسنة 2013. وفي دول مثل اللوكسمبورغ وهولندا، تتجاوز مساهمة القطاع حتى 20% من إجمالي العمالة.

أما في الهند، فتمثل التعاونيات المكوّن الأساسي لقطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني إذ يبلغ عددها حوالي 600 ألف تعاونية، تتوسّع على ربع مليار عضو بما يعد الأكبر عالميا على مستوى عدد المنخرطين حيث تتوزع هذه التعاونيات على 500 ألف قرية في الهند.

الاقتصاد الاجتماعي والتضامني قطاع مهمّش في تونس

لا تشغل معظم مؤسسات الاقتصاد الاجتماعي والتضامني (54.5%) أكثر من 10 موظفين لكل مؤسسة، إذ توظف الشركات التعاونية للخدمات الفلاحية في المعدل من 1 إلى 10 موظفين. أما بالنسبة للجمعيات، فتشير المعطيات المتوفرة أن هذه الأخيرة تكاد لا تشغل موظفين، إذ جل ما يعملون فيها متطوعون وفي أحسن الحالات فهي توظف عاملا واحدا. وفي العموم، تشير بعض التقديرات إلى أنّ عدد المشتغلين في قطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني لا يتجاوز 21 ألف وظيفة، أي ما يقرب من 0.5% من إجمالي العمالة في تونس. وفي سنة 2015، فإن إجمالي مساهمة قطاع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني في الناتج المحلي الإجمالي لا يتعدى في أفضل حالاته 1%.

خاتمة

أفضى المنوال الاقتصادي المتبع في تونس إلى نتائج اقتصادية واجتماعية سلبية ظهرت خاصة في تنامي معدلات البطالة والفقر والتفاوت الاجتماعي والجهوي وهو ما يستدعي بالضرورة تغيير المنوال القائم واعتماد خيار الاقتصاد الحرّ ثلاثي الأطراف (قطاع عام، قطاع خاص و قطاع ثالث يعرف بالاقتصاد الاجتماعي التضامني) تكون فيه الدولة طرفا فاعلا يؤمن الشفافية والعدالة والنجاح الاقتصادية ويمكن كل القطاعات من المشاركة في عملية التنمية ويكون فيه الاقتصاد الاجتماعي والتكافلي طرفا هاما في صياغة القرار السياسي والاقتصادي للبلاد مما سيؤدي إلى إعادة تقييم الثروة وتقسيمها على نحو يضمن المزيد من نقاط النمو ومواطني الرزق.

ر.ش.
أستاذ الاقتصاد
بالجامعة التونسية

للشرب في 2018 تقريبا 320 ألف و 883 عائلة تونسية، 40% منها تقطن في الوسط الغربي وهي مناطق جد فقيرة.

3) التعاونيات المعرّفة بالأمر المؤرخ في 18 فيفري 1954، أو شركات التأمين ذات الصبغة التعاونية بما تنص عليه مجلة التأمين والأمر عدد 2257 لسنة 1992. وهي تحت إشراف مزدوج بين وزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة المالية. وحسب الهيئة العامة للتأمين بتاريخ 25 مارس 2020، يبلغ عدد التعاونيات 48 تعاونية منها 17 تعاونية تخص الإدارات المركزية للقطاع العمومي وبالتحديد المنخرطين من أعوان الوزارات و19 تعاونية شبه عمومية وتعنى بالمنخرطين من أعوان المنشآت العمومية والمؤسسات العمومية التي لا تكتسي صبغة إدارية و12 تعاونية تعنى بالمنخرطين من أعوان المؤسسات الخاصة أو يمثلون أشخاصا طبيعيين مستقلين. وتخضع التعاونيات الى إشراف مزدوج بين وزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة المالية.

الاقتصاد الاجتماعي والتضامني، رافد من روافد التنمية في العالم تشير بعض الدراسات الاقتصادية، إلى التعاونيات الكبيرة في العالم وعددها 300 تعاونية، حققت في سنة 2015 مبيعات بلغت حوالي 2.5 تريليون دولار أمريكي. أكثر من 32% منها ناشطة في القطاع الزراعي، 39% في التأمين و 19% في الجملة والتفصيل و 6% في قطاع الخدمات المصرفية والمالية. وخلق القطاع التعاوني حوالي 250 مليون وظيفة في العالم إذ أصبح هذا القطاع يمثل 12% من إجمالي العمالة في دول مجموعة العشرين.

وفي أوروبا يحتل الاقتصاد الاجتماعي والتضامني مكانة هامة، فهو يمثل ما بين 8 إلى 10% من الناتج الأوروبي الخام وقد خلق 13.6 مليون مواطن شغل في أوروبا في سنة 2016. ويمكن اعتبار اسبانيا والبرتغال ورومانيا واليونان وفرنسا وبعض المناطق البلجيكية من الدول التي تمتلك تشريعات متكاملة وخاصة بالاقتصاد الاجتماعي والتضامني، بينما توجد بعض التشريعات الخاصة بالمؤسسات الاجتماعية في بعض الدول الأخرى كفنلندا وإيطاليا ولتوانيا وسلوفينيا والدانمارك وهولندا وبلجيكا واللكسنبورغ. وتمتلك أوروبا رؤية للاقتصاد الاجتماعي والتضامني في أفق 2020 تعتمد على خمسة أهداف أساسية :

- تشغيل 75% من الفئة العمرية ما بين 20 و 64 سنة،
- استثمار 3% من الناتج الأوروبي الخام في البحث العلمي،
- التقليل بـ 20% من الانحباس الحراري مقارنة بمستوياته في سنة 1990،
- التقليل من التسرب الدراسي الى ما أقل من 10%
- التقليل الى ما أقل من 20 مليون شخص مهددين بالفقر والتهميش الاجتماعي.

الأطباء هم «أهل مكة» في قضية الحال



رأي

• بقلم عبد العزيز قاسم

1

لا حديث إلا عن فيروس كورونا في وسائل الاتصال وشبكات التواصل الاجتماعي في كافة أرجاء المعمورة. أخبار وأرقام يومية عن الجائحة متلاحقة متزاخمة ومتضاربة. وككل الأخبار فإنها لا تخلو من الكذب والإشاعة. فاللقاح الذي يتطلب اكتشافه وتهيبته وتصنيعه ما يناهز السنة أو أكثر فإننا نقرأ كل يوم عن اختراعه وتجربته الإيجابية هنا وهناك. إنها تخمة عسيرة عن الهضم فلماذا لا نترك الاختصاص لأهله. أما نحن فدورنا يقوم أساساً على استيعاب ثقافة الجوائح واحترام قواعد حفظ الصحة حاضراً ومستقبلاً. يجب أن يصبح غسل اليدين بموجب وبغير موجب في كل ساعة من ساعات النهار. ولقد سمعت أكثر من قائل يقول نحن أمة الإسلام مثال في النظافة نغسل أيدينا ما لا يقل عن خمس مرات في اليوم. والعلم يقول يجب غسلهما بالصابون أو ما شابه وهو ما يتناقض مع الوضوء الذي يبقى شعيرة دينية لا أكثر ولا أقل.

2

مثل هذه الهزات والأوبئة الكونية الشاملة لا تنقطع، تفصل بينها عقود تطول وتقصُر وفي كل مرة ينكب العلماء على الدراسة والتحليل والاستنتاج وإلى جانب هؤلاء يقف الفضوليون من قراء علامات الساعة ونهايات الزمان. وهكذا الناس على الدوام فريقان: نخبٌ علمية تدرك أن الحياة تعجّ بالأحياء المجهرية الخطيرة المتفاعلة المتطورة فتكشفها وتجعلها من الظواهر وتطوعها للعلاج وهناك فريق أكبر عدداً وأقل معرفة اختص بتفسير الظاهر بالغيب. فالعلم في نظر هؤلاء أصبح أشبه بسدوم وعمورة فجورا وفسادا فباء بالوباء وتهيباً للفناء. وها هي الأصوات تتعالى بأحرا الأدعية المستجابة وبالابتهالات الخاشعة والأذكار المستحبة. حتى تلفرتنا لم تتخلف عن بث حلقات حزب اللطيف. ولم لا؟ علماء النفس يعرفون أن في الماورائيات ما يبعث السكينة في الأنفس القلقة. ولكن...

3

من هذا الباب الذي لم يتمكن الفكر العلمي من غلقه خاصة في المجتمعات المختلفة، تحاول السلفية الرجعية إعادة الانتشار والتموّع لمزيد المسك بزمام أمور المؤمن وبخناق. إذا تحرك المجتمع نحو مزيد من التقدم والعدالة قالوا لا اجتهاد فيما فيه نص وإذا قضى الحجر الصحي بالبقاء

بالبيوت ومنع التجمعات ولو للصلاة احتجوا بأن تارك الصلاة كافر والعباد بالله وعلى العكس مما يقال فإن مثل هذه الجوائح تتطلب مزيد الإقبال على بيوت الله للضراعة والاستغفار والتوبة. ولا يسعنا إلا أن نؤيد ما توجه به الأستاذ حمادي بن جاب الله عند مريم بالقاضي إلى السيد عميد كلية الشريعة بأن لا يتدخل فيما ليس له فيه اختصاص. فالحجر الصحي له ضوابطه وله طواقمه الطبية. وفي هذا الظرف الاستثنائي لا حاكم إلا الطبيب والطبيبة والإطارات شبه الطبية.

4

الشعوب المتخلفة السائبة هي التي لا تحترم الحجر وساعات منع الجولان. وها نحن نرى ونسمع، رغماً عن التعليمات والإرشادات الحكومية الواضحة المتكررة، خروج الطائشين من ديارهم نهاراً حباً في تحدي «الحاكم» وللتكبير ليلا على غرار الدواغش. إن عدم الالتزام بالحجر والحظر يطيل أمد الأزمة ويهدد في أنفاس الفيروس ومثل هذا السلوك هدر لمجهودات الساهرين على أمننا الصحي والذين أطلق عليهم اسم «الجيش الأبيض». ومن المواقف التي أذهلت العالم وزادت من إكباره للصين هو التحية العسكرية المشهودة التي حيا بها الجيش بكامل الأبهة خروج الطواقم الطبية من مدينة يوهان بعد انتصارها على الوباء. إن ما نحن فيه اليوم حرب حقيقية وكل خروج من البيت خروج على القانون ولكن أكثرهم لا يعلمون. والجهل مصيبة وإذا غدته السلفية يصبح أم المصائب.

5

وفي حين أن الأطباء والطبيبات مكرومون مبعجلون في العالم تقول الأخبار عندنا إن ماوى السيارات بمستشفى الحروق البلغة بولاية بن عروس تعرض فجر يوم الأحد 12 أبريل 2020 إلى هجوم جراثيم بشرية خرقت قوانين الحجر والحظر والمروءة والأخلاق والسلوك الحضاري إذ عمدت فئة من الأوباش والمنحرفين إلى «تهشيم بلور قرابة 15 سيارة رابضة والعبث بمحتوياتها فضلا عن إلقاء بطاقات هوية أصحابها على قارعة الطريق»، بعد سرقة كل ما يمكن الاستفادة من لبسه أو بيعه. نحن نستنكر ما حصل ونرجو أن تتولى الشرطة القبض على المنحرفين في أسرع الأجال. وبالمناسبة: متى يدرك أصحاب السيارات أن كل قشة يتكونها فيها تلفت نظر السراق؟ كفى تراخيا وإذا قال من حولكم قائل إن «الثورة» أنشأت أجيالا واعية تؤمن بالكرامة فلا تصدقوه.

6

الشيء بالشيء يذكر فالنفاق على قدم وساق. لقد وقع التشنيع بالسيد نبيل القروي بتهمة استغلال مَد يد المساعدة للفقراء لأغراض سياسية وأوصلوه إلى السجن لدرء خطورته الانتخابية وها نحن نرى اليوم تجار الدين يوزعون أكياس السميد للغايات الانتخابية نفسها. هذه التحركات شبه الاجتماعية مدخل أيضا لشم الثقافة والمثقفين. وما الحملة التي قامت ضد السيدة وزيرة الشؤون الثقافية لمجرد أنها نادى بالسماح لطواقم إنتاج المسلسلات باستئناف العمل إلا دليل على أن هذه الرهوط لن تتواني عن جذب تونس إلى الورا. قرار السيدة الوزيرة قابل للنقاش وألمني أن تتراجع تحت ضغط السلفية الجاهلة.

7

قبل استفحال أمر الإسلام السياسي منذ أواسط السبعينات كان المتدينون كثرًا يحظون باحترام الجميع. كانوا يفهمون الدين ويمارسونه على أنه فضيلة مطلقة تدفع دائما إلى حب الخير وإلى فعله ما أمكن. كانت حياتهم بسيطة قائمة على الصدق والكلم الطيب. وإذا رأوا منكرا أو سمعوا عن رذيلة ازدادوا التفافا على طبيعتهم ودعوا للضالين بالهداية، عملا بالمبدأ القائل بأن أفضل المواعظ ما كان على منوال. نحن نعيش اليوم ظاهرة تستحق الدراسة والمتابعة ولقد طلبت من أحد الزملاء بأن يكلف أحد طلبته بإبلاغنا بعض الاهتمام. فالجماعات الدينية تستخدم خطابا يقوم على التكفير والبذاءة وقلة الحياء. وعلى رأس قائمة الملعونين عندهم، كل هياكل المجتمع المدني الحدائي: المبدعون في مختلف مجالات الفنون والآداب، والمناضلون في ميدان حقوق الإنسان، والنقابيون أو «النقابجية» في مصطلحهم جناسا وطباقا مع الورعات الطاهرات لإبسات النقاب. أما إبليس في نظرهم فهو الفرنكفونية. وقدما قيل: من جهل شيئا عاداه...

8

يوم 6 أفريل الجاري احتفلت النخب الوطنية بمرور عشرين سنة على وفاة الزعيم الحبيب بورقيبة باني تونس الحديثة ومحرر المرأة. وكان لا بد من التذكير بإنجازاته الكبرى. للرد على ناكري فضله ومشوحي سمعته أولئك الذين بعثوا هيكلا مكلِّفا خرب ميزانية الدولة باسم «الحقيقة والكرامة» زيف الحقائق وعبث بالمال وهذا التصرف هو الآن تحت أنظار دائرة المحاسبات ونرجو أن يتم تحقيقها بكامل الشفافية. كان على رأس هذه الهيئة امرأة نكلت ما شاء لها التنكيل بكرامة الزعيم ناسية أنها لولا مدرسة الجمهورية ومجلة الأحوال الشخصية لأقامت في البيت محجورة بين المطبخ وترقيع جوارب الأسرة.

9

علاوة عن كل إنجازات بورقيبة القائمة بذاتها والمعروفة عند كل ذي عينين وأذن أريد أن أركز على ما يمتاز به عمن سواه أعني سعة معارفه الأدبية والتاريخية والفلسفية والاجتماعية السياسية باللغتين وتوظيف مخزونه الثقافي كاملا في فهم العالم والطبيعة وفي قيادة شعبه نحو الرقي والحرية. وكما قال أحد المحللين فإن معارضي بورقيبة أنفسهم، وقد ذاقوا الأمرين، هم أبناء مدرسة

الجمهورية. صحيح أن بورقيبة لم يركز الديمقراطية، وهو في ذلك ابن زمانه، زمان التأسيس والبناء ودرء المؤامرات، ولكن الحداثة التي كان يعمل على توطيد أركانها، كانت، وهو يعلم ذلك جيد العلم، مؤدية لا محالة إلى الديمقراطية.

10

وكبرهان إضافي على مدى ثقافة بورقيبة وعمق استخلاصه من عبر الحكم، قدمت مؤخرا شهادة شخصية يطيب لي أن أخصها من جديد: من بين البرامج الإذاعية التي كان المجاهد الأكبر يستمع إليها بانتظام، أحاديث المرحوم الحبيب شيبوب عن تاريخ الحركة الوطنية من خلال الجرائد والدوريات وكان يضمن تلك الأحاديث تفاصيل وطرائف أهملها تراكم الأحداث ولكنها كانت تثير في نفس الزعيم خواطر تنبعث حيّة بعد نسيان. وكثيرا ما كان يعلّق ويستفسر ويستزيد بعد الاستماع.

ذات مرة طلب مني أن آتي إلى قصر قرطاج مصحوبا بصاحب الحديث وكانت الجلسة فرصة لتعميق البحث واستخلاص النتائج وكما هو الحال جرنا النقاش إلى الشعر والشعراء. والمعلوم أن بورقيبة كان يعتبر الشعر من سحر البيان وفيه أعمق تعبير عن مغامرة الإنسان الوجودية الكبرى. ولقد كان يحفظ قصائد كاملة بالعربية وبالفرنسية ولقد أبهر غير مرة كبار زوّاره من الفرنسيين وهو يستظهر قصيدة ألفريد دي فينبي الشهيرة «مصرع الذئب». وفي القصيدة ما ينطبق على معاناته. وفي الجلسة تلك مرّ ذكر قصيدة وعظية طريفة خفيفة في سبعة وسبعين بيتا كان طلبه العلم في الماضي القريب من جيل بورقيبة وما بعده يتعلمونها وجوبا وما زالت أبيات أو أشطار منها متداولة بشكل واسع إلى يومنا هذا في محادثات العرب في كافة الأصقاع والأمصار، منها على سبيل المثال:

كُلْ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ
إِنَّمَا الحَيْلَةُ فِي تَرْكِ الحَيْلِ
إِنَّمَا أَصْلُ الفتى مَا قَدْ حَصَلَ

اسم القصيدة «لامية ابن الوردى» لزين الدين أبي حفص عمر ابن المظفر المشهور بابن الوردى من معزة النعمان (1292-1349). كان بورقيبة يعرف ما اشتهر به الحبيب شيبوب من قوة الذاكرة فاستعرضه اللامية فشرع يتلوها دوماً لتعلم:

اعتزل ذكّر الأغاني والغزل
وقلّ الفصل وجانب من هزل
إلى أن أتمّ البيت الرابع والخمسين:

إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ
وَلِيّ الأَحْكَامِ هَذَا إِنْ عَدَلْ

استوقفه الرئيس وكّر «هذا إن عدل» ثم أضاف: ما فرط الشعر العربي من شيء وانزلق الكلام إلى المنتهي الشاعر السياسي بامتياز. هذه النادرة تدل على أن بورقيبة كان على وعي تام بلؤم «نصف الناس». وفي اعتقادي أن الزعيم ما طلب من الحبيب شيبوب تلاوة القصيدة إلا من أجل هذا البيت، بيت القصيد بالنسبة إليه. وما زالت الأيام تؤكد ذلك. وتظل ذكرى العظمة تعلق على التهريج والنباح. ولهذه القصة بالذات بقية... وبالعودة إلى العنوان، كان الفكر البورقوبي يعمل مبدأ «أهل مكة أدري بشعابها» أي الكفاءة في كل اختصاص هي الحاكمة وليس بالضرورة أن يكون «أهل مكة» من مكة. ع.ق.



الإنسان في مواجهة الجائحة: ماذا يقول الفيروس؟



• بقلم د. منجي الزيدي

أنت الجائحة العالم بفته وهو لا يشعر، فوجد نفسه يواجه كارته كبرى، وأنه واقع بين مطرقة المرض والموت وسندان خراب اقتصادي شامل ووشيك، اكتشف فجأة أن إمكانياته الصحية بتقنياتها المتطورة عاجزة عن تحمل أعداد الضحايا المتوقعين. وراعه أن «سلاح دمار شامل» لا يرى بالعين المجردة يفلت من رقابته، ويستعصي على سيطرته، ويهدد صروحه بالانهيار التدريجي؛ وأنه لا توجد مؤشرات على خلاص قريب. وأقبل بعض الناس على بعض يتساءلون ماذا أصابنا وقد حسبنا أنفسنا في حصن منيع؟ فكأنما جاء هذا الفيروس ليقول لنا، وهو يلجج بنا ضررا جسيما، بعض الحقائق.

يقول

لنا الفيروس إن الإنسان الذي ينتفع اليوم بمنجزات العقل فاقد للتفكير العقلاني. فعندما لاح الوحش من بعيد لم يصدق كثير من الناس-من فيهم قادة دول عظمى- شراسته؛ وقالوا هذا أمر يصيب الآخرين، هذا وباء في مكان بعيد، القوى العظمى لن تعجزها «أنفلونزا عابرة». بلدان عديدة تقاعست في التأهب والحيطة خوفا على اقتصاداتها وغرورا بإمكانياتها مع انعدام كفاءة مسؤوليها في إدارة شؤونها فدفعت الثمن باهظا. مجتمعات كثيرة بخلت بالتضحية بقليل من نمط حياتها، وبشيء من الحرية الفردية «المقدسة»؛ باعتهما الوحش ونشر الموت فيها.

يقول لنا الفيروس إن التقدم العلمي والتكنولوجي الرّبحي لم يحقق للإنسان مناعته الحقيقية وكرامته المنشودة إذ صنع السلاح قبل اللقاح. وإن أكبر القوى في العالم التي دجّبت نفسها بالقنابل النووية تشكو اعتلالا في منظوماتها الصحية، وقد يموت بعض الناس فيها دون علاج. وإن ترسانات الأسلحة عالية الدقة لن تفلح في صد شيء مجهري يستهدف الرئة البشرية فيفتك بها. وأن الأقمار الصناعية والمركبات المكوّبة والطائرات المسيرة عن بعد والتي تجاوزت سرعتها جدار الصوت لن تنجح في ملاحقة فيروس ينتشر على مسافة أمتار عبر الرّيف ورذاذ الغطاس والكحة.

يقول لنا الفيروس إن الطبيعة تنتفض دفاعا عن نفسها. وإنها تعاقب الإنسان الذي تفتن في استنزاف مواردها وتكتم أنفاسها وقطع جذورها وتجفيف منابعها وتلوّث مجاريها. وإن البشر يعثون بالماء والهواء والجينات والحيوانات لإشباع نهم مريض. وإن النظام الاستهلاكي المفرط يصدّد تدمير النظام البيولوجي. وإن حركة الأوبئة تتلازم مع حركة الإنسان منذ اخترع السفينة التي حملت الطاعون وقضت على الإمبراطورية الرومانية، وصولا إلى الطائرة التي حملت فيروس سارس سنة 2004 على مسافة ستة آلاف كيلومتر في أقل من 24 ساعة. وثمة 4 مليار إنسان يستخدمون النقل الجوي سنويا، ويخلفون وراءهم في السماء دخانا سائما، وينقلون في حقائبهم الأوبئة والآفات. وهناك أيضا أكثر من 250 مليون شخص يعانون من علل الالتهابات الرئوية، فضلا عن أمراض القلب وغيرها من الأدوية الناجمة عن رفاهية مزيفة عند البعض، وفقر مدقع حقيقي لدى البعض الآخر. هؤلاء يبطش بهم «كوفيد» المستبد.

يقول لنا الفيروس إن الإنسان اليوم ينتفع بمنجزات العقل ولكنه يفتقد القيم. وإن النظام العالمي متوحش وجشع ومليء بالسفالة. وها إن الفردانية المشطّة تكشف عن وجهها القبيح فرديا وجماعيا، محليا ودوليا، بتسابق محموم نحو الاستئثار بوسائل الحماية والدواء والغذاء بلغت حد القرصنة الدولية، ووصلت حد



الدعوة إلى تجريب الأدوية على سكان أفريقيا المستضعفين... وهذا قد سقط قناع «الاتحادات» و «الاعتماد المتبادل» و «التضامن الدولي» في أول محنة حقيقية؛ فواجهت إيطاليا مصيرها وحيدة، وشيخت الآلاف من ضحاياها على متن شاحنات عسكرية في جناز ليلية صامتة دون وداع... وعلى صعيد محلي سولت لبعض الناس أنفسهم المريضة محاولة منع دفن ضحايا الفيروس في المقابر القريبة منهم، وللأسف الآخر طرد العمال الفقراء الذين كانوا يخدمونهم، ولآخرين احتكار سميد المعوزين، ولم تنج الحيوانات الأليفة من نذالة البشر وجبنهم فتركت سائبة في الشوارع...

بعد انجلاء الجائحة لن يعود العالم كما كان. بعد كل كارثة يحدث تغيير في الثقافة كما قال «بوريس سيرولنيك»، بعد الصدمة سينتج المجتمع طاقة على الصمود ولكنه قبل ذلك سيعيد حساباته وترتيب أولوياته. وسيقيم الأشياء بمعايير جديدة. سيعيد اكتشاف المكان والزمان، الأسرة والأبناء، الداخل والخارج، العمل والراحة، الضعف والقوة، الحرية والقيود، الانضباط والتمرد، الصبر والتهافت، الخوف والأمن، الصحة والمرض، القرب والبعد، الموت والحياة، الروح والمادة، الدين والدنيا، الدولة والفضو... وسيعلم أن ثمة أوهاما يجب أن تتبدد، وأقنعة لا بد أن تسقط، وحقائق يجب أن تتكشف. لم تشهد البشرية جائحة استمرت إلى ما لانهاية، غير أنها تعلمت من الدمار الذي لحقها، ونهضت من انهيارها لتواصل الطريق، ولكن بأفكار جديدة ورؤى مختلفة.

لقد نبه «كامو» إلى أن الفيروس لا يموت إثمًا يختفي وينتظر في صبر وأناة ليعود من أجل شقاء الناس وتعليمهم. ولا مناص للإنسان من أن يتهيأ ويستعد بقتل فيروسات الجهل والجشع والظلم. وأن يتدرب على الحياة وفق مبدأ «انتظار ما هو غير متوقّع» كما بدأ لعالم الاجتماع «إدغار موران» وهو يتأمل مجتمعات اليوم في حبسها. ■

م.ز.م
أستاذ تعليم عال بجامعة تونس

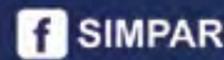
RESIDENCE LA BRISE Jardins de Carthage

Vous invite à découvrir son nouveau projet "LA BRISE" sis aux jardins de Carthage. Résidence de très HAUT STANDING abritant 17 appartements S+1, S+2 et S+3 ainsi que 2 Duplex et un grand parking sous sol.



Pour plus d'informations, nous contacter au :

simpar@planet.tn
www.simpar.tn



29 921 011 / 29 921 009



• بقلم عادل الأحمر

يوميات مواطن عيَّاش كيف شد دارو... اكتشف مرتو وصغارو

هاتفت

نحكى لكش: لقينا الحل في الماكلة مالح وحلو ، والمادام موش مقصرة من هالناحية، فريكاسي ويويو وملوي وقاطوات بالفاكية ، ويظهر لي ما عادشيعديني باب الدار، نهار لي يقولو وفي الحصار». قلت : «ولم لا تقوم بحركات رياضية، تنقص الشحم وتدور دمك شوية ؟»، فأجابني: «ياخي ما تعرفش صاحبك دهما تاغب ، وما يعرف م الرياضة كان فيراجات الملاعب ؟»... وحتى كان عملت رياضة، أهوكة نمشي م الكوجينة لبيت النوم وإلا الصالة، خمسة وإلا ستة مرات في النهار، على قد الوجبات الكبار، والكسكروتات الصغار». قلت : «هذا من نعم الكورونا على بطنك وحظك السعيد، لكن من أين لك بالفريضة والسعيد ؟». قال : «لا... تهتني، خوك من هالناحية أمور لا باس، عندي في الدار مخزن ما ناقصو كان عساس. أما في المستقبل ياش نعمل كيف أجدادنا بكري بيت مونة، ونعمل عولتي م الكسكسي للمحمصة للمقرونة، وهذا درس - كان عشنا - من دروس الكورونا... فقاطعته : «على خاطر ثمة دروس أخرى؟»، قال : «نعم، دروس وفيها أكثر من عبرة»، قلت: «مثل ماذا؟»، قال : «تقصير الكثير منا إزاء واجباته العائلية، بسبب ما نظنه رجولية، وهو في الواقع إهمال زوجة وأولاد، من أجل فعدات بين قهوة وشيشة وجباد... وأنا شخصيا كي قعدت في داري، فقت لي آنا مقصر مع مرتي وصغاري، واكتشفت في المادام مرا تحفونة، تعرف تعمل جو وموش كوجينية اختصاص مقرونة ، وعرفت لي ممكن نحكيو حكايات آخرين، غير العرك ع المصروف والتخرنين. وزاده عمري ما كنت نعرف لي ولادي في الغناء والموسيقى عندهم مواهب، وأنا لي كنت على الدار شبه غايب... والله قريب نقول : يعطيك الصحة يا كورونا اللعينة، فسدلتنا حياتنا، أما على برشة حاجات حليتلتنا عينينا». ■

ع.ل.

العيَّاش لأسأل عن أحواله وأحوال الصغار، وكان مثل كثير من التوانسة شادد الدار، توقيا من الكورونا، وتهديداتها الملعونة، فوجدته في غصرة، يشكي ويبيكي م الحصرة : «تسأل على أحوالي شنية؟ خوك فادد من هالربطية، لي هبطت عليه كي لبلية، وأنا ما ترفعت ضدّي حتى قضية، لا بل المربوط في الحبس خير مني شوية، بما أنه يعرف متى تنتهي عقوبته السجنية، وله أمل في عفو من رئيس الجمهورية».

وأردت أن ألهيه عما يعانیه، فسألته كيف يقضي أيامه ولياليه، وهو في هذه الحال، فأجابني متبرما متمقرا : «بري توة هذا سؤال؟ كيفاش نعدي في نهار، وأنا بارك في داري؟ ماني نعديه بين السهول والجبال، والمروج والتلال، وزقزقة العصافير، في الروض المطير، ومن بعد ندورها من قهوة لبار، ونكمل الليلة في بواطة نشط مع الصغار... بري أش تحبني نقول لك؟ ماني كيف الناس الكل، راکش في الدار ناكل ونرقد حتى ربي يعملنا حل، وهاني في أربعة ميتر وندور، بين الكوجينة والصالة وبيت النوم وبيت الفطور، لا شغل لي إلا مشاهدة التلفزيون، عين عليها وعين ع السمارتفون، أتابع أخبار الأنترنت، ولا حديث في هذا وذاك إلا عن عدد الإصابات، وحالات الوفيات، وتخويف من مستقبل قريب آت...».

فقاطعته: «ولماذا لا تتغير هذا الجو بقراءة كتاب ؟»، فضحك منّي العيَّاش حتى كاد يفقد الصواب: «نعم نعم؟ كتاب؟ أحنا في دارنا الكتاب ما يدورش إلا اللهم كتب القرابة متاع لولاد، وحتى المكتبة لي عندنا في الصالة مزينيتها بسرابس تاي وقهوة وبراد، يثبتو على زهاز المادام، وعاملين بيهم ديكور كيف ما في الأفلام». قلت: «كيفاش إمالا تبدل الجو؟»، فأجابني : «آه...هكاكة ما



الشيخ العلامة محمد الفاضل ابن عاشور (1909 - 1970) منارة الفكر والاجتهاد

الدين وعضو مجامع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق وبغداد، وكان قبل ذلك رئيس الجمعية الخلدونية وأحد مؤسسي الاتحاد العام التونسي للشغل. وتحرص المجلة على تجاوز مراسم التكريم والاحتفاء والتأييد ليستوي هذا الملف منبرا للتأمل والبحث والنظر من خلال طرح أسئلة جوهرية ذات صلة بالمسألة الدينية وبالفكر الإسلامي وبمناهج التفكير في قضاياها. ولعل المبحث المحوري الذي حاولنا أن نتعمق عليه مختلف المساهمات هو: ما مدى راهنية فكر الفاضل بن عاشور؟ ومن أية جهة يمكن أن يكون هذا الفكر مفيدا في فهم مشكلات الحاضر ومقاربتها؟ وكانت حصيلة هذا المسعى جملة من الفصول والمقالات لعدد من المفكرين والأساتذة الجامعيين في محاور تتصل بمكانة الشيخ ابن عاشور العلمية ومنزلته الاجتماعية، وبمساهمته في التقريب بين الرتيبونة والصادقية، وبإشعاعه في البلاد العربية والإسلامية، وبراهنية فكره، وبرؤيته لترشيد الخطاب الديني، وبخصائص منهجه في النقد والتفكير والبحث. فعسى أن يكون هذا الملف مبتدأ للعودة إلى آثار هذا العلامة الكبير بمزيد الدرس والتعميق والقراءة المعقّدة فذلك هو الإحياء الحق والاحتفاء الصادق.

د. الحبيب الدريدي

لم ينقطع سند النبوغ الفكري والإبداعي في البلاد التونسية ولم تتوقف عطاءات العقل ولم ينضب معين التأييد ولم يجف نبعه على مر العصور. فهو حلقات متصلة متتابعة لا تخبو منه شعلة حتى تذكو شعلة جديدة أكثر تألقا وتوقدا. فمن الإمام سحنون إلى يحيى بن عمر ومن ابن الجزار إلى ابن رشيق ومن أبي الحسن القاسبي إلى ابن منظور ومن حازم القرطاجني إلى ابن خلدون ومن ابن أبي دينار إلى الوزير السراج ومن سالم بوحاجب إلى خير الدين ومن إبراهيم الزياحي إلى آل ابن عاشور ومن الحداد والشاوي إلى المسعدي وخريف لبنات متماسكة في صرح الثقافة التونسية الشامخ. ووفاء لنهجها الذي دأبت عليه في مزيد التعريف بأعلام تونس وشواهد عبقريتها في الفكر والثقافة والعلم والأدب والاجتهاد تخصص مجلة ليدرز العربية ملفها لهذا العدد للشيخ العلامة محمد الفاضل بن عاشور منارة الفكر والاجتهاد المشع وذخر الثقافة النفيس إحياء للذكرى الخمسين لرحيله (20 أبريل 1970). ولا شك في أن الفقيه أحد أعلام تونس الكبار ورمز من رموز تجديد الفكر الديني، فضلا عن نشاطه الثقافي والاجتماعي والسياسي الذووب والمهام العليا التي أنيطت به، فهو مفتي الجمهورية التونسية من 1961 إلى 1970 وأول عميد لكلية الشريعة وأصول



الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور

يتحدث عن نشأته ومسيرته العلمية والمهنية

نشرت مجلة «الندوة»¹ في عددها الثامن لشهر نوفمبر 1956 (السنة الرابعة) حديثاً مع الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور تناول فيه نشأته وتكوينه ومسيرته العلمية وتجربته في التدريس والقضاء ونشاطه في الحقلين الفكري والاجتماعي، إضافة إلى رحلاته إلى عدد من البلدان العربية والإسلامية والأوروبية.

وفيما يلي نصّ الحديث :

عرفت منابر الشرق والمغرب نفْسكم الخطابي الممتاز، فهل كانت الخطابة أول ما أجهتكم إليه في نشاطكم الأدبي؟ وما هي العوامل التي كوَّنت فيكم هذه الضَّلاعة؟ ومتى كان ذلك؟

لا أشعر، ولم اشعر أبداً أنّ فيّ نَفَساً خطابياً ممتازاً، كما تدعون، والحق أنّي لا أدري بالضبط، كيف اتَّجهت إلى الخطابة ولا كيف تكوَّنت للناس فيّ نظرة القبول التي شرفت بها.

ومن الغريب أنّي نشأت بعيداً عن الصلات الاجتماعية منفصلاً عن كل بيئة خارجة عن الأسرة والبيت، فتلقَّيت في الطفولة التعليم القرآني في البيت منفرداً، ليس لي رفيق، ولم أدخل المكتب الابتدائي ولم أعرف من الأطفال غير أبناء الأقارب ولم تكن لي هواية من هوايات الأطفال، فكانت أوقاتي كلّها موزعة بين :

(1) الاتّصالات بسيدي الوالد ومحادثات فكهة معه، كانت تترقى في مستواها العقلي والأدبي، على حسب تقدّم سني واتّساع معرفتي

(2) مطالعات في الكتب، ابتدأت من مطالعة الأخبار والحكايات في كتب الدراسة الابتدائية، التي كنت أقرأ فيها بشغف في الليل،

عندما أوي إلى فراشي قبل النوم: «التمرين العباسي» و«الطريقة المبتكرة» وغيرهما، ثم ترقّت إلى كتب مدرسية في السيرة النبوية والتاريخ والأخلاق، مثل كتب الشيخ مصطفى الغلاييني والشيخ محي الدين الخياط والشيخ عبد القادر المغربي حتى انتهت إلى أمهات كتب التاريخ والأدب، مثل «رقم الحلل» و«ديوان الحماسة» و«مقدمة ابن

خلدون» و«رحلة ابن بطوطة» و«الأغاني». وكم كنت اهتَز فرحاً عندما يكتب لي سيدي الوالد قائمة في أسماء كتب ينتقيها ممّا يعلن عنه في الصحف ويرسل بها إلى المرحوم السيد محمد الأمين الكتبي لشراؤها. (3) تتبّع الأحاديث بين والدي وجدّي وعمّي والذين يزورونهم فيسمرون معهم بين محاورات العلم ومجادلات السياسة ونكت الأدب والمفاكحة. (4) تنظيم اجتماعات وحفلات لصغار أهل الدار من الأخوات والاتباع تحاكي ما أشاهد في الخارج أو ما أقرأ في الصحف أو ما اسمع الحديث عنه، مع كثير من التصرف الخيالي. وأكون أنا في تلك الحفلات صاحب الابتكار ومتوليّ التنظيم والقائم بدور الخطابة وأحياناً ألقى ما أزعمه قصائد.

وفي الحادية عشرة من عمري عندما نشطت الحياة المسرحية بالبلاد كوَّناً شبه مسرح وأصبحنا نخرج روايات تمثيلية نستعد لإخراجها بأقوى استعداد ممكن، فكوَّناً ثروة من الأزياء وأدوات الزينة ومثلنا رواية «صلاح الدين الأيوبي» و«القائد المغربي»

ثم صرت أكتب -إن صحّ التعبير- روايات مستمدة من المحيط الذي يتّصل بنا، بطلها غالباً مولانا الملك المقدّس سيدي محمد الناصر وأشخاصها من أهل بيته ورجال بلاطه.

وإنّي لاعتبر أنّ الذي كوّن فيّ الميل إلى الخطابة هو أنّ اتّصالي بالحياة في عامّة أشكالها إمّا كان من الناحية النظرية التصويرية، فأصبحت الصورة الذهنية وقالبتها التعبيري هي الأصل الوجودي لكلّ حقيقة من حقائق الحياة، وأصبح الوجود الخارجي عندي مظهراً تطبيقياً للحقائق الذهنية لا أصلاً لها.

هل لقرّاء «الندوة» أن يظفروا منكم ببسطة من حياتكم الفردية وتكوينكم العلمي؟

ولدت يوم ثاني شوال سنة 1327 الموافق 16 أكتوبر سنة 1909، ولقيت والدتي في وضعي أشدّ ما تلقى امرأة من عسر الولادة ولم يكن عاش لها ذكرٌ قبلي. وكلن جدّي والد والدي هو الذي سمّاني «محمد الفاضل». ونشأت في ظلّ العناية المتوافرة من والدتي ووالدتها ووالدها ووالدي ووالده والجدة الكبرى جدّة والدي ووالدي معاً لأنهما ابنا خالة ومن العمّين اللذين كانا للوالد بمنزلة





فيها أو في تكوينكم الشخصي على العموم؟

أهم ما كان يؤثّر في الحركة الاجتماعية بتونس في عهد شبّابي هو نهضة الأمم الإسلامية نهضة شعبية بعد سقوط الخلافة العثمانية لتحقيق آمال الخلاص اعتماداً على الكفاح الشعبي، واعتضاد بمبادئ الحرية والحقوق الدولية التي تأصلت قواعدها بعد الحرب العظمى. وكان للحركة الاشتراكية بفرنسا وعموم البلاد الأوروبية صلة بالنهضة الاجتماعية بتونس.

وقد رحلت أول مرة إلى فرنسا سنة 1926 وكان لتلك الرحلة إثر قويّ في نفسي بتوجيهها إلى تطلّب نواحي العظمة والسيادة لوطننا على نحو ما بهرني من فرنسا.

لا نشكّ في أنّ هذه الرحلة ليست الرحلة الوحيدة التي قمتم بها؛ فالندوة وقراؤها يعلمون أنّ لكم غيرها من رحلات عالمية وثقافية فما هي؟ وهل غيرت من نظر الوفود المشاركة فيها إلى تونس والمغرب العربي؟

إذا كنتم تعنون رحلتي إلى مصر العزيزة في الشتاء الماضي فإنها حقيقة لم تكن أولى رحلاتي. فقد رحلت كثيراً وزرت أكثر من مرة الحرمين الشريفين والقطر الجزائري الشقيق ومصر وسوريا ولبنان وفرنسا وإيطاليا وسويسرا. وزرت مرة واحدة المغرب الأقصى وليبيا وتركيا وألمانيا والنمسا واليونان ويوغسلافيا وبلغاريا. واشتركت في مؤتمرات علمية وربطت صلوات اعتزّ بها مع كثير من رجال الفكر والعلم والأدب. وكنت دائماً أشعر بأنّ نظرة الأمم إلى تونس نظرة اعتناء وثقة وأنّ معاملة الذين اتصلت بهم إياي كانت كلها كرم وحسن ظنّ.

كنت متتبّعاً لأعمال المجمع العظيم² منذ تكوينه سنة 1934 ومعتزّاً على الخصوص باشتراك اثنين من أحبّ الناس إليّ فيه الأستاذان الجليلان محمد الخضر حسين وحسن حسني عبد الوهاب وياشتركت سيدي الوالد في بحوثه وأعماله بالمراسلة منذ عشر سنين، وقد قطع المجمع في ماضي حياته أعمالاً عادت بالفائدة الجمّة على حياة اللغة العربية، وأهم ذلك الأبحاث الأصلية لطرائق تجديد اللغة وتوسّعها، مثل أبحاث الاشتقاق والقياس والنقل والتوليد والتعريب والاستشهاد التي صدر فيها المجمع عن قواعد منهجية، كان الفضل في وضعها وتدعيمها لثلة من أعضائه الراحلين مثل المرحومين: الشيخ حسين والي والشيخ أحمد الأسكندري والشيخ عبد القادر المغربي والأستاذ محمد كرد علي والأستاذ علي الجارم والأب أنستاس الكرملي، والباقيين منهم مثل الشيخ الخضر حسين والدكتور منصور فهمي والشيخ إبراهيم حمروش. ثم إنّ العمل الذي اضطلع به المجمع هو ما فرعه عن تطبيق تلك الأصول من تدقيق في وضع المصطلحات العلمية لمختلف فنون الاكتشاف الحديث فجاءت أوضاعاً متينة مبنية على مراعاة المعاني الأصلية للمفردات المغرب عنها معرفة عظماء الاختصاصيين وعلى مراعاة الانسجام مع مناهج الاصطلاح العلمي العربي القديم، وعلى اعتبار سلامة الأصول العربية بناء على القواعد المتسعة التي أقرّها المجمع.

الأخوين والابنين ومن الخالين اللذين كان حنوّهما على الوالدة شديداً ومن العمّات. ومع ذلك فإنّ استقامة الوالد على لينة كانت تبعدني عن الشعور بأنني «ولد مدلل» وتسير بي في طريق الجدّ، حتى أصبحت أخرج من معاملات الامتياز التي تحوطني من أهل البيت كلهم ولا سيما الجدّة الكبرى رحمها الله. وابتدأت القراءة وأنا ابن ستّ سنين فتعلّمت الهجاء بكتب مصرية ثم ابتدأت حفظ القرآن العظيم وفي العام الثالث ابتدأت أحفظ مع القرآن المتون فحفظت «الأجرومية» و«المرشد المعين» و«الرسالة» و«الألفية» و«العاصمية»، وفي السنة العاشرة من عمري أعدت حفظ القرآن سلكة ثانية وأبدأت تعلم اللغة الفرنسية على معلمين خصوصيين في ساعات معينة في المنزل.

وفي سنة 1922/1340 ابتدأت قراءة دروس في مبادئ القراءة والتوحيد والفقه والنحو بمسجد سيدي أبي حديد المجاور بيتنا بتونس بنهج الباشا. وفي آخر السنة اجتزت امتحان الدخول للتعليم الزيتوني فقبلت في السنة الثانية وتعاطيت الدروس بجامع الزيتونة الأعظم، ولم يكن له يومئذ فروع واستمرت على الدروس الخاصة باللغة الفرنسية.

واختزلت سنة أخرى من برنامج التعليم فتقدّمت لامتحان التطويح سنة 1928/1347 ونجحت. ومن ابتداء السنة الدراسية الموالية أقبلت على مزاولة الدراسات العليا بالجامعة الزيتونية وانخرطت في سلك طلبة المدرسة العليا للغة والآداب العربية بسوق العطارين وانتسبت إلى كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1931، ثم نجحت في المناظرة سنة 1932 فسمّيت مدرّساً.

ما مدى مساهمة الجيل الذي نشأتم فيه في الحركات الاجتماعية وما هو نصيبكم فيها؟ وهل تعتقدون أنّ لها حظاً في تكوينكم؟

كان خروجي من الصبا إلى الشباب مقترناً بانبعث الحركة الوطنية ونشاط الصحافة والحركات الاجتماعية والأدبية. فكنت اتبّع تلك الحركات باهتمام وأتعرّف تفاصيلها ورجالها. ومع ذلك لم اتصل مباشرة بأيّ حركة منها إذ كان نطاق تنقّلي بين الجامع والبيت ونظام أوقاتي مضيقاً عليهما جداً بمراقبة سيدي الوالد. فلم أبدأ اتصاليّ المباشرة بالصحف والجمعيات إلّا بعد دراستي الثانوية سنة 1928. ومن يومئذ انغمست في العمل بالجمعية الخيرية وقدماء الصادقية ولجان الحفلات بالمرسى والمنظمات والنوادي التي أنشأتها أنا وثلة من أخواني الطلبة. ثم كان الأستاذ المرحوم عبد الرحمان الكعّك هو الذي ربطني بالخلدونية فدخلت في مجلسها الإداري سنة 1932 وابتدأت، بتوجيه رحمه الله، المحاضرة على منبر الخلدونية وكان موضوع محاضرتي الأولى «القاضي الفاضل».

تكاد الحركات الاجتماعية تكون وليدة الوعي العالمي الحديث، فهل كان انبعثها في جيلكم بتونس عن صلة مباشرة بالعالم الخارجي؟ وهل كان للترحل عندكم -بصفة خاصة- من يد في توجيهكم نحو المساهمة



الإمام و«الندوة» تريد اغتنام هذه الفرصة لتستفيد منكم بمعلومات عن مشاركته في المؤتمر.

رحلت للاشتراك في مؤتمر المستشرقين عدّة مرات، ولكن المرة التي كنت فيها بصحبة سيدي الوالد هي التي انعقد فيها المؤتمر بإستنبول في سبتمبر 51 وكانت رحلة أعدّها من غرر الحياة وكان سيدي الوالد كما كنت أنا مدعوًا إلى حضور المؤتمر بصفة شخصية، فلم نكن نمثّل دولة ولا منظمة وكانت لنا فرصة لنزور تلك المدينة التي هي أمّ التاريخ الحديث ومجلى الجمال الساحر ومجمع الكنوز النفيسة من المعالم والآثار والكتب. وكان معنا هناك للغرض نفسه سيدي حسن حسني عبد الوهاب واقتصر هو وسيدي الوالد على تتبّع نتائج البحوث في الجلسات العامة واشتركت أنا في أعمال اللجان وألقيت محاضرة باللغة الفرنسية عن كتاب غريب لابن حزم في الاحتجاج لمذهبه ضدّ القياس، وقد ترجمتها بعد إلى العربية ونُشرت في عدد من المجلة الزيتونية سنة 1952.

1 - مجلة شهرية تونسية أسسها حمّادي النيفر، صدر عددها الأول في جانفي 1953 وعددها الأخير، وهو عدد مزدوج، في جانفي 1957. من أبرز محرريها الشاذلي القليلي وأحمد بن صالح ومصطفى الفيلاي ومحمد مزالي.

2- معجم اللغة العربية، وقد اختير الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور عضوا بالمجمع سنة 1961، ضمن الأحد عشر عضوا الذين صدر قرار جمهوري مصري بتعيينهم من البلاد العربية. انظر مقال عز الدين المدني بعنوان «مساهمات تونسية في مجمع اللغة العربية بالقاهرة» موقع ليدرز العربية الالكتروني ومجلة ليدرز العربية عدد 10 أكتوبر 2016.

3 - ابتدأت في عام 1953 رحلته مع الخطط الشرعية، فقد صدر أمر بتاريخ 5 نوفمبر 1953 بولايته مفتيا مالكيًا بالمحكمة الشرعية. ولم يطل به الأمر إلا قليلا في هذه الخطة الشرعية حتى اختير لقضاء الحاضرة، وهي الخطة التي شغلها قبله ومن بيته جدّه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الأوّل سنة 1267هـ/1850م، ووالده محمد الطاهر، وذلك سنة 1331هـ/1913م. وكان الشيخ الفاضل هو آخر من تولى هذه الخطة الشرعية بالديوان (المحكمة الشرعية) الذي دام قرنا كاملا. فقد أحدث الديوان عام 1856 وأغلق عام 1956، إثر الاستقلال، ذلك أنّه وخذّ القضاء وأدمجت المحاكم الشرعية بقضاتها وسائر موظفيها في إطار محاكم الحقّ العام وذلك حسب أمر مؤرّخ في 25 ديسمبر 1956. وفي أول أكتوبر من عام 1956، سمّي الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور رئيس دائرة محكمة التعقيب في خطة محدثة، بعد أن باشر قضاء الحاضرة حوالي سنّة أشهر (الموسوعة التونسية).

4 - كانت محاضرات الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور نصوصا مهية للنشر وقد صدر له نصّ محاضرة عنوانها «فلسطين الوطن القومي للعرب» كان ألقاها على منبر الخلدونية في رسالة صغيرة باسم معهد البحوث الإسلامية نشرت سنة 1948، شأنها شأن المحاضرات حول «الحركة الأدبية والفكرية في تونس» التي صدرت في كتاب بالقاهرة، في سنة 1956 و«المحاضرات المغربية» الصادرة عن الدار التونسية للنشر سنة 1974 ومحاضرات أخرى جُمعت في كتاب «محاضرات» صدر عن مركز النشر الجامعي سنة 1999. ومن إنتاجه القلمي المؤلفات التالية:

- أركان النهضة الأدبية في تونس، مكتبة النجاح، تونس، 1963
- أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، مكتبة النجاح، تونس، 1965
- تراجم الأعلام، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970
- التفسير ورجاله، من منشورات: الأزهر - مجمع البحوث الإسلامية 1970
- ومضات فكر، الجزء الأوّل، تونس 1981، والجزء الثاني، تونس 1982.

وإنّ المجموعة الهائلة من المفردات التي تشتمل عليها المجلدات الثمانية التي صدرت من مجلة المجمع لثروة طائلة لنهضة الفكر العربي وضمان لتعريب العلم الحديث. وإنّ من أهمّ الاقتراحات التي أنوي التقدّم بها إلى المجمع ترجع إلى البحث عن وسائل تعليم النحو بطريقة تضمن تطهير العربية من اللحن.

بدأتم حياتكم العامة بالتدريس وكلّتموها بالقضاء. فأَيّ الميدانين كان عندكم أعلق بالانفس؟

على شعوري العميق بشرف العمل القضائي³ وشرف الانتساب إلى سلسلة الماضين من قضاة الإسلام بإفريقية والانتساب إلى تلك الأسرة الشريفة الموقرة من المعاصرين فأني لا أنكر أنّ الميدان التدريسي هو أعلق الميدانين بالانفس.

لقد تهنأ...فإنّ توجّهنا إلى تتبّع هذه الجوانب العديدة في حياتكم الحافلة أنسانا جانبا يراه عارفوكم من أهمّ جوانبكم : الخطابة والمحاضرة . إنكم اشتهرتم بالمحاضرة والخطابة وفي الناس من يميل إلى إحداهما. فهل تجدون هذا الميل. وإلى أيتهما؟

حقًا إني أجد إثارة لأحد الجانبين على الآخر وإني إلى المحاضرة أشدّ ميلا مني إلى الخطابة.

يعلم متتبّعو إنتاجكم الأدبي أنّ ما ينشر لكم من آثار هو في الغالب ممّا خاطبتموه أو حاضرتم به. فهل لكم أن تحدثوا قراء «الندوة» عن إنتاجكم القلمي الصرف؟

إذا استثنيت المقالات التي نشرت لي في المجلات العلمية الأدبية فأني لا أجد إنتاجا قلميا أحدثكم عنه وإنّ استغراق الدروس والأشغال لأوقاتي هو أعظم حائل دون ذلك. وبعد فمتى ثبت رأس المال حتى يسأل عن إنتاجه⁴.

يردّد الشباب في مجامعه نشيد ينسبان لكم ويدلّان على جانب آخر فيكم. هو جانب شاعريتكم، فمتى عالجتهم الشعر وهلا نفحتم قراءنا بشيء منه؟

كنت نظمت أناشيد للشبان زمن الأزمة القومية سنة 1939 محافظة على روح التوجيه الوطني للشباب وتحديا لمحاولة حكومة فيشي فرض أناشيد أجنبية على طلبة المدارس. ولست مدعيا أيّ شاعر وإن تعاطيت نظم مقاطيع وقصائد كنت راضيا عن بعضها أحيانا.

ذكرنا حديثكم عن رحلاتكم برحلتكم إلى مؤتمر المستشرقين بصحبة سماحة شيخ الجماعة والدكم



صحة بداعية العقل والإصلاح، الشيخ محمد عبدو، أثناء إقامته بتونس على فترتين. ولقد اشتهر الشيخ ابن عاشور ببحوثه الإسلامية، وخاصة بتفسيره للقرآن الذي عنوانه: «تفسير التحرير والتّوير» - تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد - كثيرا ما استشهد فيه بصاحب الكشاف، المعروف بإعمال العقل في تأويل المُشكّل من آيات القرآن.

وكان الشّيخ ابن عاشور أدرى الناس بنقائص المناهج التقليدية في التعليم، لتوليّه مشيخة الزيتونة، ومحاولته إدخال ما كان يراه ضرورياً من الإصلاحات. لذلك اهتم، في تربية ابنه، بتوحي طرائق تساعد على حسن التحصيل، وثثقيف الفكر، وصفاء القريحة، وانطلاق اللسان.

الإسلامية، مُحيطا باللغة العربية وأدبها، إحاطة نادرة لدى أهل عصره : بشهادة من عرفه عن قرب، التونسي المعترّب بالديار المصرية، «الخضر حسين»، الذي آلت إليه، في فترة من حياته، مشيخة الأزهر، بالقاهرة.

وكان الشّيخ الطاهر على دراية باللّغة الفرنسيّة. فقد كان سي الفاضل يهاتف أحيانا والده، من الخارج، طالبا منه النّظر في بعض المراجع الفرنسيّة، لمدّه بمعلومة معيّنة، كان يحتاج إليها.

ذلك أنّه حفّت بنشأة الشيخ الطاهر، هو أيضا، ظروف عائلية استثنائية؛ ثم أخذ عن كبار مشايخ الزيتونة، ممن عرفوا بشمول النظر، وصحة الاجتهاد؛ ثم انعقدت له

وهمزل العائلة، مكتبة هودجّية، كما وكيفا، ورث الشيخ ابن عاشور رصيدها عن الأجداد، وزاد في إرثها، طيلة عقود الطلب والتدريس. وكان يرشد ابنه إلى وجوه الاستفادة من عيونها، ومما كان له، على هوامش بعضها، من تعاليق، هي عصارة تمحيصه وتدبره. ومن حظّ الإبن أن أخذ عن هذا الوالد الهمام زبدة العلوم التقليديّة، في أصولها وفروعها.

وبتوجيه منه، كذلك، عرف أهميّة الاستعانة بمراجع أجنبية، في مواضع مُعيّنة، كان أطلع عليها الشيخ، ووقف على مدى تقدّمها في التنقيب عن المعلومات الصحيحة. فكان الإبن ينهل، منذ صباه، من معين قل أن أتيح مثله لأترابه، إذ كان الشيخ ابن عاشور قمة في العلوم

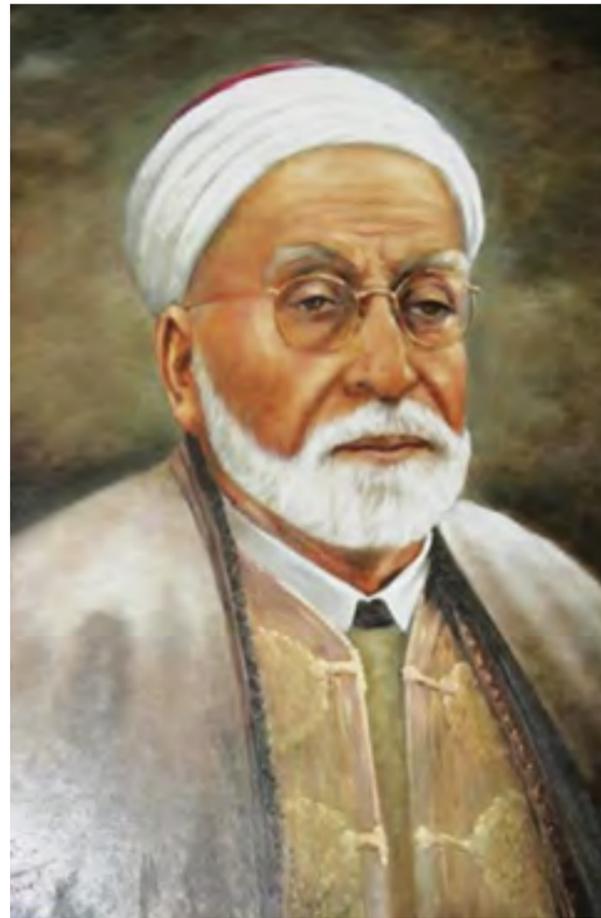


محمد الفاضل ابن عاشور في ظلال الشيخ والده

من دواعي الاعتزاز، الحديث عن علم كبير من أعلام تونس، الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور: عُرف بعطائه الفكري وكفاحه الاجتماعي، ذودا عن الإسلام والوطن. وفي سبيل ترسيخ ثقافة أصيلة مواكبة للعصر.. الشيخ الفاضل حقيق ببالغ العناية، لما له من فضل على الثقافة الإسلامية، عامة، وعلى الثقافة التونسية خاصة، ولما تحلّى به من خصال جعلت له، في تونس، منزلة اجتماعية لا مثيل لها، وحظوة عالية في المجمع العربية والإسلامية التي انتسب إليها، وفي المؤتمرات التي شارك فيها. ومعلوم أن هذا الرجل الفذ من أسرة عالية الشأن، أسرة علم وجاه، ذات أمجاد علمية، طارفة وتليدة، لكن ذلك لم يقعه عن الجهد، والحرص في الدرس؛ ولم يثنه عن دوام الطلب والتحصيل، اقتداءً، لا شك بوالده المبرور، الشيخ الطاهر ابن عاشور بزد الله ثراه. ولما تيفع الإبن البكر، نظم له والده، داخل المنزل العائلي، دروسا أولية تؤهله للالتحاق بجامع الزيتونة؛ كما كلف، في نفس الوقت، من لقنه مبادئ اللغة الفرنسيّة؛ وكان ذلك حرصا أن يكون له اطلاع على الثقافة العصرية. وكان الشيخ الوالد يتابع باهتمام خطوات ابنه، ويسهر على توجيهه الوجهة الصحيحة، وفق ما استخلصه من تجاربه الطويلة، مدرّسا، ورائدا في طليعة الرّواد المُصلحين للتعليم الزيتوني.



• بقلم الشاذلي القليبي



على أن علاقة الوالد بابنه، لم تكن علاقة أستاذ بتلميذه؛ إذ كان الشيخ ابن عاشور يضي عليها مساحة من الودِّ والمفاكهة والانشراح.

ولمَّا تقدّم الإبن في مراحل دراسته، كان والده يدعوهُ إلى حضور مجالسه الخاصة، التي تتعدّد بمنزله، وتضمّ عليه من المجتمع، وثلة من المدرّسين، ورجال الأدب والصحافة. كان «سي الفاضل» - كما يحلو لوالده أن يدعوهُ - كان إذًا في مقتبل العمر، وزاده الله «بسطة في العقل والجسم»، ولحن الصوت وبراعة القول.

وكان الشَّيخ الطاهر يحثُّ ابنه الشاب على المشاركة في الحديث، بحضور كبار زوّاره؛ كما كان يُعوّده الارتجال، في بعض المناسبات. ممَّا جعل الشبل، منذ شبابه، ينجح من أية رهبة، في حضرة عظماء القوم، أو كبار شيوخ العلم والأدب. ورغم أن العائلة كانت على قدر من الرخاء واليسر، فإنّه لم يكن ليُتصرّف - حسب عبارته - تصرّف «الطفل المدلل».

وهو، في حديث له، يعزو ذلك إلى أن الشَّيخ الوالد كان دومًا يأخذه بما سمَّاه «الاستقامة»، لا شدّة ولا صرامة؛ فصرفه ذلك إلى الحزم والجدّ، منذ صباه. ثمّ، لمَّا انتسب إلى جامع الزيتونة، كان تنقله من منزله - بضاحية المرسي - إلى وسط مدينة تونس، مُنظّمًا بدقة ومراقبة عين ساهرة. فجعله ذلك بمعزل عمَّا يخوض فيه أترابه، من شؤون المجتمع؛ فلم يكن يعرف عنها إلا ما يطرق سمعه من أحاديث عائلية، أو ما يراه في بعض الروايات المسرحية - كان يحضرها، بمعية كبير من أقاربه.

ولمَّا كانت معرفته بالمجتمع «معرفة نظرية» - كما يقول - فقد أراد أن يفرغها في صيغة أدبية، من خلال مشاهد مسرحية، كان يقيمها في البيت العائلي، بمعية من أمكن من أقاربه؛ ومُقلدًا للطريقة المسرحية، الرائجة إذًا، في تضخيم الصوت، وتضخيم النطق؛ وكثيرًا ما كان يقوم فيها بدور الخطيب؛ ويقول، في هذا الشأن، مُتواضعًا، «وأحيانًا ألقى فيها ما أزعمه قصائد». ويقول إنَّ هذه التمارين

أصلت في نفسه الميل إلى الخطابة، وجرّأته على الارتجال، في ملا من الناس. كان الشيخ ابن عاشور مُدركًا لما عليه ابنه من نبوغ، وما يتحلّى به من علوِّ الهمة في الطلب؛ فعوّده إعمال العقل، والنظر في الأمور بميزان المنطق. وكان «سي الفاضل» يأخذ عن والده، مشافهة أو بقراءة مؤلّفاته؛ وكثيرًا ما كان أوّل قارئ لمخطوطاته، قبل طبعها ونشرها. ومن أهمّ ما لُقّن الشيخ ابنه، التميّز بين منطق طلب العلم ومنطق طلب التقوى؛ وأنّ العلم له مقتضياته، وللتقوى فروضها - وإن كان كلّ منهما في حاجة إلى الآخر: التقوى ضرورية للتحكّم في المقاصد العلمية، والعلم مفيد في إنجاز الأعمال الصالحة.

هذه النظرية المُميّزة بين قُطبي الاجتهاد - العلمي والديني - تأصّلت في فكر الشيخ الفاضل، وأكسبته مزيدًا من القدرة على مواجهة الذين تلقّوا ثقافتهم في الكليات العصرية. وممَّا أخذ أيضًا الإبن عن والده أنّ التعليم مُرتبط بمقتضيات العصر، واحتياجات المجتمع. فلا بدّ من تطوير المناهج القديمة، وإثراء محتويات برامجها. لذلك كان والده يحثّه على متابعة محاضرات «الجمعية الخلدونية»، باعتبارها نافذة على الثقافة العصرية. ولعلّ، لهذا الغرض أيضًا، تمّ فيما بعد، توجيه الأحفاد إلى المعاهد العصرية، حيث تسنى لهم بلوغ مراتب نابها.

ولعلّ الشيخ الإمام كان يُريد لابنه أن يكون، معًا، عديله فيما أتقن وشهد له فيه بالرئاسة، ثمّ مُتصفا بما كان يتمنّى لنفسه، ممَّا لم يبلغه بسبب الظروف؛ فأراد نسخة من نفسه مطوّرة، بما يحصل عليه من أدوات فكرية وثقافية تُمكنه من اقتحام المجتمع الجديد الذي كانت به البلاد على مخاض. فأتاح الظروف للإبن ما لم تتح للوالد: قدرة فائقة على الخطابة، في أيّ موضوع يعرض له في المجتمع، دون استعانة بورقة. إذ الشيخ الإمام كان، طيلة حياته المديدة، منقطعًا لمجالسة كتبه، ومزاولة مؤلّفاته - حضوره في المجتمع لا يكاد يتجاوز المناسبات التقليدية. فلعلّ أمّله كان أن يحظى ابنه بما حُرّم هو منه.

وفعلا سيستسى لشيخنا الفاضل أن يكون عند أمل والده، وأن يكون له في المجتمع سبْحٌ عظيم - وإن لم يُقدّر له أن يعيش طويلًا. فلقد اجتمعت لسي الفاضل، فعلا، شروط التحصيل طابًا، وأركان النجاح مُدرّسًا، وقواعد الفوز رائدا اجتماعيًا. فبقدر ما كان الشَّيخ الإمام، زينة المجالس، ورجل البحوث العلمية، والدراسات المرجعية، كان ابنه النابغة ومضات فكره تأخذ الألباب، ونبضات خطبه تشدّ الأسماع: «جمع فأوعى»، ودانت له اللغة بما رُحبت، واعترف له الجميع بعلوِّ الكعب، ورجاحة الفكر، وسحر البيان. فللرجل، في المجالس العلمية، كلمة لا تُردّ، وفي المواطن الاجتماعية، حضور متميّن، وبراعة في القول لا تُضاهى، وفصاحة لسان يُغبط عليها. وكان، في مجالسه الخاصة، مع أقاربه أو إخوانه، منشراح للسان، جميل الوصال، لا تزمت ولا ابتدال. وأمّا، في المجتمع، فعفيف اللسان، كريم اليد، سريع البديهة، لا يواجه بمكروه.

ولئن كان من أسرة مرموقة، كما أسلفنا، فلم يكن متبجحًا بأمجاد، ولا معتدًا بجاه، بل دومًا كظيم الاعتزاز، متورّعًا عن الخيلاء، متفتّحًا إلى سائر مخاطبيه بعذب الكلام.

ولئن كان مدفوعًا إلى الجدّ والكّد، فإنّ ذلك لم يطمس في جبلته ميلاً قويًا إلى المداعبة مع أقاربه وإخوانه، وتعاطي الهزل الفكري الذي من شأن أهل الأدب.

وكان لذلك كثير الارتياح إلى صحبة من كان يُسميه «الفقيه»، مودّة وتفكّها. وكان «الفقيه» من أبرز وجوه المجتمع الزيتوني، أعني النابه الذكر الشيخ المختار بن محمود. فالشيخ الفاضل نموذج فريد من علوِّ الهمة، وأريحية السخاء، ولطيف التواضع؛ يشقّ الطريق لتيّحة من دونه، سنًا أو منزلة، دون ما استتكاف. وكان الشيخ، أستاذًا، تحفّه، من قبل طلبته، المحبّة والاحترام؛ تخرّجت على يده أفواج ممن جمعوا بين الأدب والفقه. وإدراكًا منه لضرورة الأطلاع على طرائق البحث الحديثة، فتح الطريق - وهو عميد كلية الزيتونة - أمام جيل جديد من المُخضرمين، على

غرار من لقبه - في تقديم لمحاضرة مشهودة، حضرها الرئيس بورقيبة - ب«الشيخ الزيتوني، والدكتور الصربوني»، إشارة بهما إلى أحد أنبغ طلبته وأقرب مُريديه، صديقنا الأديب الكبير، والفقيه الأريب، المرحوم الحبيب بلخوجة، الذي اقتفى أثر شيخه عن جدارة، ونال من المراتب ما شرف بلاده.

وكان للشيخ الفاضل، بالمدرسة الصادقية، دروس هي أشبه بالمحاضرات، يستمع إليه تلاميذه في مثل الانبهار. أهمّ ما خلّفته عندنا ووقر في أنفسنا، ولع شديد بالعربية، واستشعار عميق لجلال حضارة الإسلام. أمّا خارج أوقات الدرس، فكُنّا نُتابع خطاه، وهو يمرّ بشوارع المدينة، محاطًا بكوكبة من طلبة الزيتونة - تلتحق بهم أحيانًا، في الأسواق، زمرة من الكهول المعجبين، يقومون، لردّ تحيته ب«الكب» عليه (تقبيل كتفه احترامًا وتقديرًا)، ويمشون إلى جانبه خطوات، لعلّهم يسمعون منه. ولاشكّ أنّ الشباب المتخرّجين من المدرسة

الصادقية مدينون للشيخ الفاضل - ولكوكبة من مشائخ الزيتونة - بما حصلوا عليه من ثقافة إسلامية، ومن تمرس بعلم العربية، ومن عميق الشعور، لديهم، بالانتساب إلى الحضارة العربية الإسلامية.

والمجتمع التّونسي، بأسره، مدين لأولئك الشيوخ الأجلّاء، وفي مقدّماتهم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وابنه الفاضل، بالتقارب بين الأجيال الزيتونية والأجيال الصادقية، نتيجة ذلك التعليم المزدوج - بين عصري وتقليدي - الذي انتهجته المدرسة الصادقية تحت إدارة من كان يفهم فوائدهم تلك الازدواجية، الأستاذ محمد عطية، رحمة الله عليه وجازاه خير الجزاء. ولو لا ذلك النهج القويم، لكان المجتمع في انقسام ثقافي خطير على مستقبل البلاد.

من تلك الدروس - التي كان المدير عطية ينتخب لها من بين أكابر شيوخ الزيتونة - فهما أنّ الإسلام رسالة حضارية، بقدر ما

هو هُدًى ديني. ومن خلال انبهارنا باللغة التي كان يتكلّم بها إيلنا، شيوخنا - وكذلك أساتذتنا - أحسنا أنّ مصير العربية مرتبط بنهضة أهلها، إذا هم غيروا ما بأنفسهم، ونفضوا الغبار عن أحوالهم؛ وإذا هم قدروا على حماية حضارتهم من المسخ الذي عتبته التخلي عن اللغة العربية.

لغة القرآن - الفصحى من لسان قريش - من الوضوح والتبيين ما يجعلها جديرة بأن تسعى إلى منزلة اجتماعية، فلا تبقى محصورة في الكتّابات، أو في الخطابات الرسمية - على ما يعتريها إذًا من اضطراب الألسن. ولا أستبعد أن يكون للتعليم، منذ البدء، دور فعّال في تحقيق هذا السعي.

فكما أنّ «الفرنسية»، مثلاً، تترسّخ لدى الأجيال بواسطة برامج التعليم، فليس من الصعب أن يبيث التعليم، عندنا، لسانًا فصيحًا، مُبنيًا، لا غرابة ولا تكلف. لم يكن الشيخ الفاضل،



■ فضيلة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور مع والده محمّد الطاهر بن عاشور يتوسطهم الأديب طه حسين.

TUNISAIR vous accompagne vers de nouveaux horizons

Au départ de l'Afrique, TUNISAIR vous rapproche de l'Europe, du Moyen Orient et de l'Amérique du Nord, avec plus de 850 connexions par semaine via Tunis, au départ d'Abidjan, Alger, Casablanca, Constantine, Bamako, Dakar, Le Caire, Niamey, Nouakchott, Ouagadougou, Oran, Conakry et Cotonou.



GET CLOSER

الخطوط التونسية
TUNISAIR

tunisair.com

أغلب مشايخه، وعن سائر الأتراب والزملاء، وصار له صيت ذائع في البلاد، وخارجها

غالبا ما كانت أسفاره قاصدة، لحضور مؤتمرات، أو المشاركة في أشغال مجمع اللغة العربية، بالقاهرة، حيث كان يحظى بفائق الاعتبار لدى أساطين الفكر والثقافة، وفي مقدمتهم من لُقّب بـ«عميد الأدب العربي» نابغة العصر طه حسين. مداخلاته، بالمجمع، كانت دوما، محل إعجاب لسرعة بديهته، ولسعَة علمه، ولبيان خطابه، ولإشعاع حضوره.

وفي القاهرة، وفي سائر العواصم العربية، كانت له علاقات مرموقة، وصدقات حميمة، في أوساط العلم والفكر والصحافة - إلى جانب ما كان له من صلات في الدوائر الحكومية. كانت له بالمغرب، في عهد الملك الراحل الحسن الثاني، حظوة عالية، فريدة، إذ جعله العامل المغربي رُكنا ثابتا للدراس الحسنية، المقامة بمحضره، في أيام رمضان.

والذي يختص به من بين علماء الأزهر والزيتونة، ما كان يلقاه من اهتمام لدى المستشرقين كافة، يتحدثون عنه بإعجاب، ليحسن معالجته لقضايا العصر، الاجتماعية منها والثقافية؛ لكن أيضا لاهتماماته، التي كانت تتجاوز المجالات العلمية والثقافية. فدروسه ومحاضراته كانت تطفح بالمقاصد السياسية الحضارية، إذ كان يهدف من خلالها، إلى تحريك نفوس مستمعيه - خاصة منهم تلاميذ الصادقية وطلبة الزيتونة - وإلى إثارة مشاعر الغيرة فيهم على وطنهم وحضارتهم. فمن خلال التذكير بأمجاد الماضي، كان يقصد إذكاء الروح الوطنية، وإقناع الشباب بأنهم ينتمون إلى حضارة عظيمة، واجبههم الاعتزاز بها، وعدم التفريط في كنوزها.

ولم يكن الشيخ الفاضل بمعزل عن قضايا المجتمع، السياسية منها والاجتماعية؛ فقد ساهم مساهمة مشهودة في تأسيس الاتحاد العام التونسي للشغل، وألقى، في مؤتمره الأول، خطبة يلهج بذكرها من أدركنا من المناضلين القدامى. وقد كان الشيخ الفاضل من رجالات مؤتمر «ليلة القدر»، الذي أعلن حقّ تونس في الاستقلال - مع ما كان في هذا الموقف من

رحمه الله، مُتزمًا في أمر من أمور الدين، ولا مُتشدّدًا في توجيهه، ولا مغاليًا في أمر أو نهى؛ بل انشراح في الصدر، وسماحة في الفكر، يبرى العبادة قُربى، دون ما انقباض في النفس، ولا غلُو في القصد.

يحضرنى، في هذا المضمار، ما قاله لي يوما، وكُنّا في عمرة، أواسط الستينات، إذ سألته، عند دخول الحرم المكيّ، عمّا ينبغي أن يُقال من أدعية وابتهالات؛ فأجابني، بصوته الجهوري اللطيف: قل ما شئت، ما تفيض به نفسك، ما يتبادر إلى لسانك. كان الشيخ الفاضل رجل المحاضرات اللامعة، المنعشة، التي لا يُجاربه فيها أحد من معاصريه. إذا حضر تسلسلت جُملة، فيضا مُنهمرا، في ارتباط عجيب، بصوت فخم، تتخلّله أحيانا رقة، وتعلوه أحيانا بحة.

لا يخالط لغته لحن شائع بين الخاصة، ولا عبارة دارجة، وإنّما التزام دائم بالفصحى، في أبلغ تعابيرها، وأجزل صيغها.

لم نره، قط، قرأ من ورقة؛ ولكن يمينه «مطوية» يلقبها أحيانا أثناء ارتجالاته المشرفة. يفتنم كلّ المواضيع بغزارة فكر، وكأنّها من صلب اختصاصه؛ وكأنّه سبق له، فيها، تدبّر واستعداد. خطبه مرصعة بآيات، يستحضرها بيسر، فيُنزلها ببراعة - مع استشهادات شعرية، مما أخذ عن الشيخ والده، الذي تعتبر ذاكرته «ديوان العرب».

إذا تكلم سي الفاضل في الأدب، فهو القدوة، وصاحب المعرفة الشاملة؛ وإذا تناول مسائل في التفسير ورجاله، كان إمام العارفين، لا يُسقى له غبار؛ وإذا طرق أحداثا تاريخية، تجاوز التفاصيل إلى ما ترمز إليه من معانٍ وعبر؛ وإذا خاض في حضارة الإسلام، حرّك النفوس بالفخر والاعتزاز؛ وإذا تحدّث عن الإيمان، كان الأمثل، في فقه جوهر العقيدة، وحسن الإحاطة بأركان الدين؛ لكن، أيضا، الوفي لروحية الإسلام، سلوكا وحضارة، فيما يُوصي به من أخذ بالمقاصد، وما يحض عليه من تطوّر - اقتداء بالإمام والده، صاحب التأليف المرموق عن مقاصد الشريعة. لكلّ هذه الخصال، تميّز الرجل عن

ش.ق.

الإسلامية عامة ولدى التونسيين على وجه الخصوص تعود إلى أنه أسس تيارا قويا جديدا من الروح التحررية والإيجابية والنظر العقلي والعلمي 6. وهو ما يفسر في تقديرنا إسناد متأخري الإصلاح في القرن التاسع عشر وتلاميذهم أحد أبرز منجزاتهم التربوية (الجمعية الخلدونية) إلى ابن خلدون دون غيره من أعلام الثقافة العربية الإسلامية في تونس.

وليس مستغرب أن تكون هذه المعاني محور المحاضرة الافتتاحية للجمعية الخلدونية التي ألقاها الشيخ سالم بوحاجب (ت1924) أحد أشهر رجال الإصلاح في القرن التاسع عشر بتاريخ 15 ماي 1897 إذ صدع في هذه المحاضرة التي أراد أن تكون بوصلة لهذه المؤسسة التحديتية بأن «عمران الأرض منوط بتدبير الإنسان إذ جعله الله الخليفة فيها ورُكّب فيه العقل الذي هو الآلة الوحيدة لذلك التدبير» 7 في نزوع غير مألوف وصادم للمؤسسة الزيتونية التي هيمنت عليها ثقافة المرويات والنعنة، من أحد كبار رؤوسها المتمردين عليها.

وأكد الشيخ الفاضل انتصاره لهذه الروح وعمله على ترسيخها في سياق احتفائه برأي الفيلسوف محمد إقبال (ت1938) الذي اعتبر أن ختم النبوة بالرسالة الإسلامية هو من وجه آخر ثقة في العقل وتشريف له وإعلان عن أن بناء العالم وتشديد الحضارة الإنسانية منوط به في المقام الأول 8.

وتجدد الملاحظة إلى أن الشيخ الفاضل خصّص غير قليل من مؤلفاته للتراجم، مركزا في شخصيات الأعلام الذين ترجم لهم على عدم ركونهم للقديم واستقلالية تفكيرهم ومنزعتهم الاجتهادي، من ذلك قوله في ترجمة الشيخ سالم بوحاجب: «كان من أول المنددين بما أصبح عليه متأخرو الفقهاء من التمسك بطواهر النصوص والإعراض عن تحقيق المناط وصار من أشهر الدعاة إلى مراعاة مقاصد الشريعة وتطبيقها على الأحوال الحاضرة» 9.

وفي سياق بيان رفض والده الشيخ محمد الطاهر لاسترجاع المعارف القديمة وسعيه نحو الاجتهاد والابتكار المعرفي قال إنه «ما دُرس

العائلي إلى أسرة من أسر الأرسقراطية البلّدية. وأكد الرجل على مرجعية هذه الثنائية (الروح التحررية الاجتهادية فكريا/ الروح الوطنية اجتماعيا وسياسيا) بالنسبة إليه، في سياق بيانه للهدف الذي من أجله تأسست الجمعية الخلدونية سنة 1896 وهي من أبرز إنجازات الإصلاح في القرن التاسع عشر إذ كانت لاحقا ملتقى النشاط الفكري والسياسي والنقابي والأدبي، وفيها ترعرع الشيخ الفاضل شابا وتولى رئاستها كهلا، حيث قال: «كانت روحها الثقافية غربية (تحديثية) وغايتها وطنية، تعمل على بث روح التطور في الوسط الشعبي وتدخل إصلاحا جوهريا على الفكر

والمجتمع» 3، إذ تلبّس بهما خلال قرون مديدة سيئ التأويل وقصر النظر وتعظيم القديم، ما جعل المعاني تقصر عن غاياتها حتى أن مرامى الدين الحنيف ابتعدت عن أنظار العلم وانحرفت عن مسار الحركة الحضارية 4. مثلت هذه العوامل والقوادح موجها أساسيا لشخصية الشيخ الفاضل الذي انبرى - تبعا لذلك - ينسب في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية بالبلاد التونسية خاصة وبالغرب العربي الإسلامي عامة للاستدلال على أن المنزع العقلي والروح الاجتهادية مثلا جوهر هذه الثقافة وجعلها ثقافة تفكير متطور واجتهاد متواصل، قبل أن يستحوذ عليها التحجر والعلو وتفرض المحافظة وصايتها عليها.

المنزع العقلي والروح الاجتهادية جوهر الثقافة العربية الإسلامية

ما فتئ الشيخ الفاضل يؤكد في سائر ما كتب أن الرسالة الإسلامية جاءت لإعطاء الإنسان ما به كمال الإنسان وإعطاء الحياة ما به تتقدم الحياة، اعتمادا على ثققتها في العقل آلة لفهم العالم وعلى الاجتهاد وسيلة لجعله قابلا على الدوام أن يتجه نحو الأفضل والأقوم، معتبرا أن العقل مصدر قوة للثقافة العربية الإسلامية وعملا رئيسيا لازدهار المجتمعات العربية الإسلامية 5.

وذهب إلى أن رمزية العلامة عبد الرحمان بن خلدون (ت1406) فبالثقافة العربية

هذا وذاك تولى الشيخ الفاضل وظائف ومسؤوليات سامية في التدريس والقضاء والإفتاء بما يسمح بالقول إن الرجل ما ترك مجالا من مجالات الفعل الوطني التأسيسي إلا ساهم فيها بقسط وافر أو غير قليل.

نحو مسيرة التحرير والتنوير

ينحدر الشيخ الفاضل من أحد أشهر البيوتات العلمية في البلاد التونسية. فجدّ والده الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الأول (ت1868) من أبرز علماء القرن التاسع عشر بالبلاد التونسية وله في الإتحاف ترجمة غنية جاء فيها «لم يلبث أن طمّح إلى الغايات البعيدة فنالها وفاض بالعلم حوضه... وجرى مع فحول الفقهاء في مضمارهم ومعارك أنظارهم» 1.

أما والده الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ت1973) فهو من أساطين الاجتهاد الإسلامي المعاصر ومن أبرز علماء تونس على مدى تاريخها المديد، تشهد على ذلك مؤلفاته التي شملت كل مجالات الثقافة العربية الإسلامية، ومن أشهرها تفسير «التحرير والتنوير» و«مقاصد الشريعة الإسلامية».

ولا شك في أن الشيخ الفاضل قد نهل من هذه الروح التجديدية التي انبعثت داخل أسرته أولا وعبر تتلمذه المباشر على والده في جامع الزيتونة ثانيا. كما مثل السياق التاريخي الذي عايشه طيلة عشرينات وثلاثينات وأربعينات القرن العشرين خاصة أخصب فترات التاريخ الوطني التونسي المعاصر سياسيا واجتماعيا وثقافيا، فقدح فيه هذا السياق الاهتمام بالنشاط الوطني والاجتماعي وحرّضه على المساهمة الفاعلة فيه، وهو ما عبّر عنه بقوله: «أهم ما كان يؤثر في الحركة الاجتماعية في عهد شبلي هو تحقيق آمال الخلاص اعتمادا على الكفاح الشعبي واعتضاده بمبادئ الحرية والحقوق... وكان لذلك أثر قوي في نفسي لطلب نواحي العظمة والسيادة لوطننا» 2. فالروح التحررية الاجتهادية فكريا، والروح الوطنية سياسيا أساس الشخصية القاعدية للشيخ الفاضل دون إغفال عامل الانتماء

والى



في راهنية فكر الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور



• بقلم د. جمال الدين دراويل

من المعلوم أن شخصية الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور (1909-1970) متعددة الأبعاد، إذ هو رجل العلم والفكر ورجل الإصلاح الديني والتنوير الاجتماعي، وهو الناشط المدني في عديد الجمعيات ومن أبرزها الجمعية الخلدونية التي ترأسها وجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين. كما أنه من مؤسسي الاتحاد العام التونسي للشغل سنة 1946 إذ عمل جنبا إلى جنب مع الزعيم فرحات حشاد من أجل تأسيس المنظمة العمالية الوطنية التي عاضدت العمل الوطني وشدّت أزره.

لعزيز عليك إحميه

حتى 5 د
بـ 5 في الشهر*

حاجتنا الأكيدة لتدبرها ووضعها على محك المساءلة والبحث، من أجل أن تستمر روح التحرير والتنوير في ثقافتنا، فتضع حداً لموجات الغلو والتطرف التي أثبتت وقائع التاريخ ومازلت على أنها من مقاتل ثقافتنا ومن مهالك مجتمعتنا.!

ج.د.

على القديم من أخطر ما أصاب هذه الثقافة من المعوقات.

وفي المستوى العملي، كانت حياة الشيخ الفاضل مسيرة عطاء سخي في مجال العلم والتدريس وفي إطار العمل الوطني والاجتماعي، مسيرة شاهدة على احتفاظ كثير من أفكاره وأنظاره براهنتها، وعلى

مادة إلا وضع فيها كتاباً» 10 خلافاً لما دأب عليه شيوخ جامع الزيتونة من التعويل على ما أنتجه القدامى، على خلفية التوهم أنه أعلى ما وصلت إليه الهمة المعرفية.

في المقابل، شدد على أن ما أعاق الثقافة العربية الإسلامية أن تتفتق وتبدع وما حال بين الاجتماع العربي الإسلامي أن يتطور ويتقدم هو الغلو والتعصب وضيق النظر، إذ كان لذلك سيء الأثر فانحاز الدين جانباً وإنجاز العقل والعلم جانباً آخر وتقابلت العصبية بالعصبية، وثبت كل فريق في مكانه بينما الحياة تسير وتتشكل بلا توقف.11.

على سبيل الخاتمة

جمع الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور بين طرفي معادلة (المعرفي/ الوطني). فكان في المجال العلمي تنويرياً عملاً على إعطاء الشخصية العربية الإسلامية عامة والتونسية خاصة طابع التوازن والإيجابية والاعتدال الذي يجعلها شخصية إيجابية وفاعلة ومبتكرة تنخرط في العصر الحديث بثقة وتبصر، وتتفاعل مع الفكر البشري بعيداً عن الاستعلاء الموهوم والصراع المحموم من جهة، وإعطاء الانتساب للثقافة العربية الإسلامية دلالة على انبيازه لروح الاجتهاد والابتكار والتفكير العقلي الواقعي والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية من جهة أخرى. واعتبر أن التعصب والانغلاق والانكفاء

المصادر

- 1- ابن أبي الضياف (أحمد) إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، وزارة الثقافة الدار العربية للكتاب تونس 1999 ج 8 ص 165.
- 2- ابن عاشور (محمد الفاضل):
- 3- الحركة الأدبية والفكرية بتونس، بيت الحكمة قرطاج 2009 ص 17
- 4- الحركة الأدبية م ن ص 121
- 5- التفسير ورجاله، دار الكتب الشارقة تونس 1966 ص 169
- 6- دراسات إسلامية، الدار التونسية للنشر 1971 ص 21
- 7- ومضات فكر ج 2، الدار العربية للكتاب تونس 1982 ص 178
- 8- ابن عاشور (محمد الطاهر) أليس الصبح بقريب الشركة التونسية للتوزيع 1967 ص 103
- 9- دراسات إسلامية م ن ص 21
- 10- أركان نهضة الأدبية بتونس مكتبة النجاح دت ص 18
- 11- الحركة الأدبية... م ن ص 97
- 11- ابن عاشور (محمد الفاضل)، محاضرات، مركز النشر الجامعي تونس 1999 ص 407

إنت ليّا و أنا ليك



الدار التونسية للنشر، ص 197). ولذلك فإن الحقيقة الأولى للدين هي العقيدة الفردية، وهي التي تؤسس قيمًا لكل مناحي الحياة العامة، وبهذا المعنى وافق ابن عاشور ابن خلدون في جعله «شؤون السياسة وال عمران والصناعة والعلم في الدولة الإسلامية، تبعًا للدين (روح الحضارة، الرياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، 1992، ص 66). ولا سبيل في رأيه إلى إعادة تشكيل الوعي الفردي، إلا سبيل التربية. ولذلك رأيناه في مختلف كتاباته يعطي قيمة كبيرة لـ«الصورة التربوية التي تكوّنت بها شخصية الفرد المسلم» (روح الحضارة، ص 38). وعلى هذا الأساس فسّر ازدهار المجتمع الإسلامي وانحطاطه: فالعامل الأصلي الذي ولد العصور الذهبية في تاريخ الحضارة الإسلامية هو -كما يقول- «العامل التربوي الإسلامي الذي كوّن الفرد قبل أن يكون المجتمع، ومهد للثقافة طريقها، قبل أن يتناول عناصر المعرفة التي ألفت كيانها». وأصبح العامل التربوي الإسلامي الذي كوّن الفرد، عقلاً ونفساً وخلقاً وسلوكاً «هو العامل الأصلي الذي ولد الحضارة، وكوّن المجتمع الأمثل، ومهد للثقافة طريقها إلى تناول عناصر المعرفة، وتؤلف كيانها». (روح الحضارة ص 39). وفي المقابل اعتبر ابن عاشور أن الابتعاد عن أخلاق الإسلام التي تؤمنها التربية الإسلامية، هو الذي تسبب في تدهور الحضارة، ويستشهد بالزهاد العباد والصوفية الذين يجسّدون التمسك الفردي للدين، من قبيل أويس القرني والسري سقطي والجنيد والغزالي. ونظر إلى الحركات الإصلاحية من زاوية ما نقدته من التدهور الأخلاقي ممثلاً في أخلاق الفرد، من قبيل الدعوة الإصلاحية التي بناها الأفغاني على مبدأ «إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم» (الرد 11/13)، والدعوة الوهابية التي حصر ابن عاشور قيمتها في ما دعت إليه من إصلاح أخلاقي فردي (روح الحضارة ص 42-43)، رافضاً بوضوح جانبها التكفيري (محاضرات مغربيات، ص 103).

إن التركيز على مفهوم الفرد ومسؤوليته وقدرته على الفعل، يفضي إلى نتيجتين: الأولى هي فتح باب التجديد الذي تغلقه بصفة شبه آلية دعوى التزام الجميع بما استقرت عليه الجماعة فكراً وسلوكاً منذ القديم، والثانية هي توفير شرط بناء الدولة الحديثة وهو «المواطن الفرد» المسؤول عن أفعاله، وعن كيفية انخراطه في المجموعة. وعلاوة على هذا وذاك تظل الفردية، ووضوح دائرة الشأن الخاص، مقوماً من مقومات المجتمع الحديث، وهذا ما كرّسه خطاب ابن عاشور.

2. تجاوز ابن عاشور «العقل الأشعري»

إلى جانب مفهوم الفرد، اعتنى ابن عاشور كثيراً بتحليل مفهوم العقل. وهما مفهومان متكاملان في تأسيس المنظومة الفكرية الحديثة. فقد تكرّر استعمال مصطلح «العقل» في كتابات ابن عاشور، في دلالات تختلف عن تلك التي استقرت في الخطاب الديني الكلاسيكي: إنّه يستعمله في ضوء المرجعية الحديثة التي تربطه بـ«العلم» في مختلف الحقول المعرفية، وبالمدنية في مختلف مكاسبها. بينما استعمله علماء أهل السنة التقليديون في تقابل مع النقل، فرفضه بعضهم بسبب

في هذا المقال أن نبين بعض مقومات «البروز التونسي» في خطاب محمّد الفاضل بن عاشور، انطلاقاً من الدلالات الجديدة التي استعمل بها جملة من المفاهيم، كان لها أعمق الأثر في بلورة فكر تنويري مثل الخلفية الثقافية لتحديث المجتمع التونسي. وهي مفاهيم: «الفرد»، و«العقل»، و«الاجتهاد».

1. من مفهوم «الجماعة» إلى مفهوم «الفرد»

عندما نعود إلى مفهوم «الجماعة» الذي ساد في مصادر الفكر الإسلامي الكلاسيكي المتداولة، تطالعنا دلالات السلطة الموجهة للاختيارات والمواقف المجمع عليها. وهي دلالات مستمدة من القداسة التي أضيفت على الالتزام بمقولات الجماعة ومواقفها، ومن الربط الشرطي بين هذا الالتزام والنجاة في الدنيا والآخرة. فقد اعتبر علماء أهل السنة لزوم الجماعة أصلاً من أصول الدين أمرت به النصوص، وعمل به أهل الحق. وأكّدوا في مختلف مصادرهم، أن «نتيجة الجماعة رحمة الله ورضوانه وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة؛ ونتيجة الفرقة عذاب الله ولعنته» (أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، العربية السعودية، 2004، ج1، ص 17). ولا يعنينا مفهوم الجماعة هنا باعتباره مقابلاً لمفهوم الفرقة والبدعة، أو ما شابههما، بل يعنينا من حيث هو تحويل للقيمة الاعتبارية في المجتمع، من مستوى الفرد إلى مستوى المجموعة. فالمجموعة هي التي تحدّد للفرد اختياراته، وتضبط له سلوكه، ولا تترك له هامشاً يتحرّك فيه، إلا هامش حسن الاتباع والانسجام. والمجموعة بهذا المعنى، هي التي تجسّد مفهوم «الرعية» في بنية النظم السياسية التقليدية، وهي التي تضمن شروط الخضوع «لراعي».

في هذا السياق الفكري الكلاسيكي الذي كانت المؤسسات الدينية التعليمية منخرطة فيه -كما في ذلك مؤسسة جامع الزيتونة- تنجم مواقف مخالفة، مواقف فذة أصحابها متعدّدو المرجعيات المعرفية، أترؤوا مرجعيتهم الدينية التقليدية بأخرى معاصرة تضرب بأسباب في الحقول المعرفية الحديثة. ومن هؤلاء محمّد الفاضل بن عاشور، المفكر الذي سيقدّم تصوراً جديداً لعلاقة الفرد بالمجموعة وسيقلب المعادلة السائدة، من فرد سلبي منفعل بما تفرضه عليه المجموعة، إلى فرد فاعل مؤثّر في المجموعة موجه لها نحو آفاق جديدة تختلف نوعياً عما ساد طيلة القرون الماضية. فقد ركّز ابن عاشور كثيراً على مسألة التربية التي يتلقاها الفرد، وعلى ما تتيحه له من اكتساب قيم تؤهله للانخراط الفاعل في واقعه، واكتساب وعي يؤهله للتفكير العقلاني القادر على التمييز بين المفيد لمجتمعه والمضّر به. فالتغيير الأول الذي يحرص ابن عاشور على إحداثه هو تغيير ثقافة الفرد وقيمه ونظراته إلى نفسه وإلى المجتمع. لأنّ التغيير عموماً ينطلق من كلّ واحد على حدة ليصل إلى المجموع. والدعوة الإسلامية نفسها جاءت لتؤكّد «الشخصية الفردية للإنسان وتجعلها مدد الشعور بالذات شعوراً فردياً أولاً ثمّ شعوراً اجتماعياً مرتباً عليه». (المحاضرات المغربية،



محمّد الفاضل ابن عاشور وتحديث الخطاب الديني في تونس

دعوات الإصلاح الديني في العصر الحديث متعدّدة، ومعظم روادها، عندما انطلقت في القرن التاسع عشر، مفكرون مشاركة اشتهروا بخطابات نقدية، تهدف إلى تخليص التراث الديني مما لم يعد يتماشى وروح العصر، وإلى فتح باب الاجتهاد والتجديد. كان هذا مع محمّد عبده، والكواكبي، والأفغاني، والطهطاوي، وغيرهم.. لكن لم يكن لدعواتهم أثر كبير في تغيير مجتمعاتهم. لأنهم اعتمدوا مفهوم الاجتهاد والتجديد في دلالاته القديمة التي تمنع المساس بالآيات الاجتهاد في حد ذاتها، وتقصره على القياس على الاجتهادات السابقة. وفي اتجاه مغاير، كان تحديث الخطاب الديني في بلاد المغرب، وفي تونس تحديداً، يتطوّر مدفوعاً بإرادة إصلاح عميق لواقع مجتمعهم حتى ينخرط في ما سمّاه خير الدين التونسي تيار الحدّثة الجارف، ومن أحمد بن أبي الضياف، إلى الطاهر الحدّاد، إلى النعالي، إلى محمّد الفاضل بن عاشور، وغيرهم.. ظهر خطاب زيتونيّ حامل لدلالات جديدة لمفهوم «الاجتهاد» وجملة المفاهيم الواقعة في مداره. هي دلالات تؤسس لضرب من التشريع يتجاوز الحدود التي رسمها الأسلاف، ويساهم عملياً في تغيير الواقع الاجتماعي. إنّه -وفق عبارة محمّد الفاضل بن عاشور- «البروز التونسي» الذي أنتجته جملة من العوامل الخاصة بهذا البلد. يقول ابن عاشور في هذا السياق: «كان للبروز التونسي من الخصائص الإقليمية ما كوّن له ميزة تجعله شعبة ذات كيان واضح من شعب التاريخ الإسلامي في العصر الحديث» (ومضات فكر، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982، ص 379).



• بقلم د. ناجية الوربي

وينبّه إلى التغيّر النوعي الذي حدث في واقع المجتمع، والذي يتطلّب مواقف ورؤى مغايرة لما كان في العهود البائدة. يقول: «أما بالنسبة إلى القرنين الأخيرين فإنّ الأوضاع انقلبت انقلاباً تاماً بحيث أصبحت المسائل المدوّنة في كتب الفقه قليلة النظائر في الحياة العملية الحاضرة، وذلك هو الذي جعل مشكلة الاجتهاد مصوّرة في يومنا الحاضر بما لم تتصوّر به في القرون الغابرة ولا يمكن أن تتصوّر به» (ومضات فكر ص 39). ويكفي أن نتبّع الحضور المكثّف لمصطلحات من قبيل: «التجديد»، و«مقاصد الشرع»، و«المصلحة»، في خطابه، حتّى نقف على الأهميّة الخاصّة التي يوليها للخطاب الديني المتفاعل إيجابياً مع العصر. ويؤسّس ابن عاشور هذا التفاعل الإيجابي على حقيقة البعد التاريخي للمنظومة الفقهية القديمة التي لا تزال تمارس سلطة على المحافظين من علماء الدين. فكلّ المذاهب الإسلامية «تجمعها كلمة الإسلام، وتجمعها النسبة إلى القبلة» (محاضرات، مركز النشر الجامعي، 1999، ص 105)، وهي لا تعدو أن تكون تفاعلات متعدّدة مع الأصل النصّي. فالفقه المالكي -على سبيل المثال- هو صدى لواقع بلاد المغرب في الماضي، كما في الحاضر والآتي: ولم يزل «الفقه حيّاً، نامياً متجدّداً ولم تزل روح المذهب المالكي بذلك سارية في حياة المغرب، وروح المغرب سارية في حياة المذهب المالكي» (محاضرات مغربيات، ص 88). ومن باب «الحياة» التي ينبغي أن تظلّ ملازمة للفقه، سيشرّح ابن عاشور للاجتهادات النوعية التي ميّزت تونس الحديثة. فهو لن يقف عند رسم التصرّوات النظرية للاجتهاد والتجديد، بل سيكون ضمن العلماء الفاعلين في اجتهادات «مجلة الأحوال الشخصية» التي لا تزال إلى اليوم علامة فارقة في قوانين الأحوال الشخصية في العالم العربي. هي اجتهادات تدخل بشكل مباشر في إعادة هيكلة المجتمع وفق القيم الاجتماعية والسياسية الحديثة. ويكفي أن نعود إلى شهادة قدمها مجايل لابن عاشور وهو أحمد المستبري في كتابه «شهادة للتاريخ» (تونس، دار الجنوب، 2011)، لنتبيّن بوضوح الدور الذي قام به في ظهور هذه المجلة. يقول المستبري: «ومع فكرة التقنين المكتوب الموحد-التي ليست من ابتكارنا كما قلت- خامرتنا فكرة اغتنام فرصة التقنين، لإدخال إصلاحات هامة على التشريع في مادة الأحوال الشخصية (منع تعدد الزوجات، وجوب عرض الطلاق على القاضي، تحديد سن أدنى للزواج، وجوب موافقة المرأة على الزواج، إلخ..) وهي إصلاحات، في نظرنا، لا تتنافى مع أحكام القرآن والسنة، ويفرضها تطور المجتمع التونسي... هذا، دون الدخول في التفاصيل، أتعرض في ما يلي إلى ثلاث مسائل أثارت الجدل والنقاش، وأحياناً «التفاوض» بيني أنا وبورقبيّة من جهة، والمشائخ الطاهر بن عاشور، وابنه الفاضل، وعبد العزيز جعيط، من جهة أخرى. وكان الشيخ الفاضل، في الغالب، يقوم بدور الوسيط والموفق» (ص 104-107). بهذا الدور، ترجم ابن عاشور عملياً جملة المبادئ الفكرية التحديثية التي بنى عليها خطابه، والتي لا يزال -بفضلها- إلى اليوم متجاوذاً للكثير من أطروحات المؤسّسات الدينية في العالم العربي. ■

ن.و.
أستاذة بجامعة تونس المنار،
عضو بيت الحكمة

هذا الأساس لا يحتوي الدين على العلوم، ولكنه يحتوي على الأساس الخلقي والقيمي الذي يبعث على إبداع العلوم. يقول ابن عاشور: «من دعوة الدين والإيمان بها، اكتسب الشعب الذي استجاب لتلك الدعوة وإمتاز بذلك الإيمان، خللاً نفسية جديدة.. لم يستند علمياً، ولا صناعةً ولا قوةً مادية، ولكن الذي اكتسبه من الخلال، طوّع له العلم، والصناعة والقوة المادّية». (روح الحضارة، ص ص 72-73). إذن بتوفّر الأساس القيمي المستمد من الدين، يفسّر ابن عاشور نجاح المسلم قديماً في استيعاب المعارف التي أخذها عن بقية الحضارات وصاغ منها، ومن الإضافة إليها، حضارته. وبانعدامه في العصر الحديث يفسّر فشل المسلم في التفاعل إيجابياً مع الحضارة الأوروبية الوافدة: «ثم هجمت عليه في حياته العملية مدنيّات أجنبية عنه، فيها العلم، وفيها الصناعة، وفيها القوة، وفيها الحكمة، فلم يجد من إرادته ما يتناول به هذه المدنيّة، كما تناول المدنيّات التي احتكّ بها من قبل، يوم كانت إرادته الدينية قوية سليمة، فوقف أمامها جامداً، واعتبرها من جملة صور الحياة التي كان من قبل، آمن بانفكاكها عن الدين» (روح الحضارة ص 77-78).

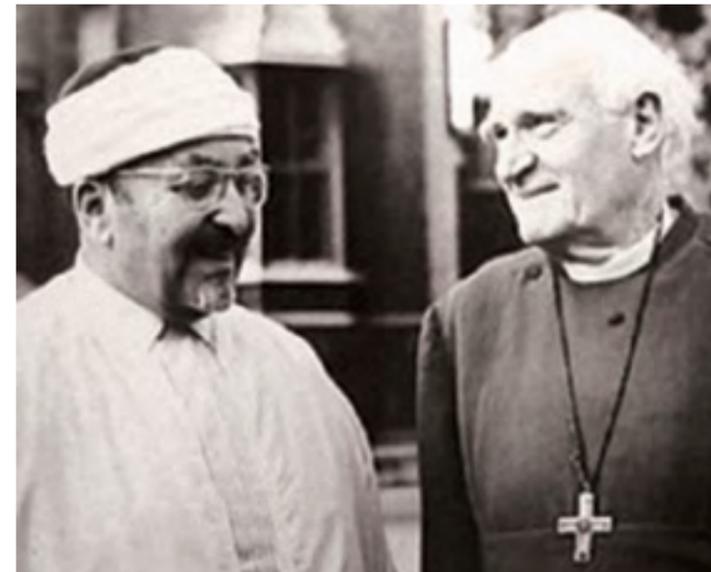
وبقدر ما حرص ابن عاشور على إبراز الدور القيمي للدين في بناء الحضارة، حرص على إبراز التفاعل الخلاق بين السياقات الثقافية المختلفة، بفضل الإثراء المتبادل بينها في نطاق المعرفة الكونية: فالالتقاء بين الثقافة الأوروبية والثقافة الإسلامية مثلاً، يحدث «احتكاكاً بين العقلية الغربية والعقلية الإسلامية، وتنقدح منه شعلة مذهب فكري حقيقي، له نظرياته الأصلية، وقواعده الأساسية، واتجاهاته المجردة التي تصوّر الأشياء على ما عليه حقيقتها وذاتها» (الحركة الأدبية والفكرية في تونس، جامعة الدول العربية، 1956، ص ص 13-14). وبنفس الدرجة، كان حرصه على إبراز الأدواء التي ألحقها الاستعمار بالشعوب، وممّوذه هو الشعب التونسي الذي عانى من الاحتلال الفرنسي: فهذا الاحتلال «كارثة عظيمة نزلت بالبلاد» (الحركة الأدبية والفكرية، ص 29)، وعطلت تطورها. ويعكس هذا التمييز بين الوجه العلمي للحضارة الأوروبية والوجه الاستعماري، النزعة الإنسانية عند ابن عاشور: فهو يؤمن بضرورة التلاقح والتحاوّر بين الثقافات في الجانب المعرفي الذي لا يخضع لمعايير الانتماء الدينية والقومية، ويؤمن أيضاً بفائدة الانفتاح على روافد الفكر الإنساني. وفي خطابه تتجاور الإحالات على المفكرين الغربيين من قبيل أوغست كونت، وهربرت سبنسر، ومونتسكيو؛ والإحالات على أعلام الفكر الإسلامي: قديمهم وحديثهم.

3. مفهوم جديد للاجتهاد

تخلّلت دلالات التجديد العديد من السياقات في خطاب ابن عاشور. وهي دلالات تختلف عن تلك التي كانت تظهر من حين إلى آخر داخل المنظومة الدينية التقليدية. واختلافها عائدٌ إلى ارتباطها بما تقتضيه المرحلة التاريخية الحديثة التي يمرّ بها المجتمع العربي. ففي مقال «قضية الاجتهاد»، ينقد ابن عاشور جمود الفقهاء في عملهم التشريعي،

المثلثات والفلك والهندسة والطب والطبيعة وعامة نواحي الحكمة التي كانت مشتركة بين الأمم» (ومضات فكر، ص 378). وبنفس المنطق اعتبر ابن عاشور أنّ التقهقر الحضاري في الثقافة الإسلامية بدأ عندما «انفصل مجرى الحكمة العقلية عن مجرى الحكمة الدينية» (ومضات فكر، ص 379). ولعلّه من الدال أن نجده يؤسّس «معهد الفلسفة» عندما ترأس جمعية الخلدونية وأراد أن يطوّر مناهج الدراسة فيها (المنجي الصيادي، الجمعية الخلدونية، 1898-1958 رائدة النهضة في المغرب العربي، تونس، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، ص 126).

أما الأساس الذي أقام عليه ابن عاشور الانسجام والتكامل بين الدين والعلم، فهو أساس قيمي بعيد عن التصوّر التقليدي الذي طغا في القرن العشرين، وظلّ سارياً إلى اليوم لدى بعض التيارات، وهو أنّ النصّ المنزل يحتوي على كلّ العلوم وعلى كلّ حقيقة علمية تُكتشف. يتمثل هذا الأساس القيمي في كون الدين والإيمان مُدّان الفرد بجملة من القيم هي التي تضمن فاعليته وحرصه على تحقيق المصلحة للمجموعة التي ينتمي إليها، وطنياً وعالمياً. وعدّ ابن عاشور ازدهار الحضارة الإسلامية في السابق وليد تشبّع المسلم الفرد بهذه القيم: «كان المسلم الذي هو منشئ تلك الآثار الباهرة من الحضارة، سيدها ومعمّرها بإيمانه القوي، وروحه المتقددة، وفكره المتوثّب، وخلقه الطاهر، وسلوكه الأمين» (روح الحضارة ص 69). وكذلك كان تفسيره للتقهقر الحضاري الذي حدث. إنّه ناتج عن فقدان المسلم «لما كان عنده من قوّة في الإيمان، والروح والفكر والخلق والسلوك» (روح الحضارة ص 69)، ومن استقامة وإخلاص في سلوكه (روح الحضارة، ص 71). ومن هنا ميّز بين مجال خاصّ بالدين وله وقّعه الهامّ في نفسية الأفراد، ومجال خاصّ بالعلم، فيه يستثمر الإنسان عقله في إبداع المعارف: «ولمّا عرف نواحي الوجود على ما هي عليه، بنظره الديني، أتجه إلى بحث ما اشتملت عليه تلك النواحي من التفاضل. فتكوّنت فيه داعية طلب العلم على اختلاف مواضعه وفنونه، فاصطنع العلوم التي هي من التراث الإنساني المشترك، وابتكر العلوم التي هي من التراث الإسلامي الخاصّ» (روح الحضارة ص 73). وعلى



هذا التقابل، وقبله بعضهم الآخر -وهم الأشاعرة- بعد أن حصروا دوره في الاستدلال على خدمة ثوابت النقل. ولئن احتفظ ابن عاشور بمبدأ الجمع بين النقل والعقل كما فعل الأشعري، رافضاً مبالغة المعتزلة في اعتماد العقل ومبالغة الحنابلة في اعتماد النقل، فقد اختلف عن الأشعري في كيفية الجمع: فالأشعري «كان ينصر عقائد أهل السنة بطرائق استدلال أهل الاعتزال» (محاضرات، ص 95)، أي كان ينصر النقل بالعقل، بينما سيقبل ابن عاشور المعادلة لينصر العقل والمعارف العقلية بالنقل في اتجاه التسويغ لها «شرعياً». إنّه يتجاوز الدلالة الأشعرية للعقل باعتباره مجرد «وسيلة» للدفاع عن النقل، ليؤسّس للدلالة الحديثة للعقل باعتباره مقوّمًا من مقوّمات المدنيّة التي رآها مجسّدة في «روح الحضارة الإسلامية». على هذا الأساس عرّف ابن عاشور الإسلام بكونه «دين العقل، أو دين العلم أو دين المدنيّة» (روح الحضارة الإسلامية، ص 29). وعرّف طريق المسلمين بكونه طريق النظر العقلي: «فالإسلام يدعو البشر إلى سبيل من النظر العقلي يسلكونه متجرّدين عن آثار الوراثة والعصبية، متخلصين من تضارب القوى الذهنية بين عقلية وإحساسية واعتقادية، حتّى يصلوا بأنفسهم إلى إقامة الحكمة الحق، المتجانسة مع العقل الصحيح والفضيلة السليمة» (ومضات فكر، الدار العربية للكتاب، 1982، ص 146). وكثيراً ما تتكرّر دلالات محورها تجانس العلم مع الدين وتساند العقلي والنقلي: «وظهر بذلك، التساند العجيب، والتواصل الذي نجده بين المسائل الفلسفية، أو الرياضية الصميّة، وبين المسائل الدينية العريقة في المعنى الديني، من العقائد والشرائع» (روح الحضارة، ص ص 33-34). لكنّ هذا التساند لم يعد في اتجاه واحد، العقل فيه مجرد وسيلة، بل اتخذ اتجاهها جديداً العقل فيه هدف مطلوب لأنّه منتج الحضارة. وقدّم ابن عاشور تصوّراً لماضي الحضارة الإسلامية أوضح من خلاله مدى الانسجام الذي سجّل فيها بين علوم العقل وعلوم الدين، ما جعلها حضارة شاملة ومتوازنة. يقول: «كانت العلوم بأسرها عناصر للثقافة الإسلامية، بين ما هو سالف الوضع للثقافة الإسلامية، من العلوم ذات الصبغة الإنسانية العامة، وهي الرياضيات والطبيعات، والعلوم الإنسانية والحكمية، وبين ما هو ناشئ من الثقافة الإسلامية، وهي علوم العقيدة والشريعة، والآلات المختصة بها من الفنون النظرية، والعلوم اللغوية» (روح الحضارة، ص 33). وخلافاً للصورة التقليدية التي لازمت حضور الفلسفة في كتب أهل السنة، تحضر في خطاب ابن عاشور صورة مغايرة، صورة العلم المساهم في تحقيق نهضة الأمة، من خلال علاقات التأثير والتأثير التي جمعه ببقية العلوم. فقد عدّ الإقبال على الفلسفة منذ العهد العباسي، تعريباً وإنتاجاً، علامة من علامات البناء الحضاري، فأشاد به الإقبال العظيم على علوم الأوائل.. وعلى تعريب الحكمة»، مثلما أشاد بالنتيجة الباهرة لتكامل العلوم عقلية وشرعية: «وجاء المتكلمون يصلون بين العقيدة والمنطق، والحكماء يربطون بين الشريعة والحكمة، حتى أصبحت العلوم كلّها متواصلة الأنساب. واستأثر المسلمون بكنوز الحكمة الشرقية والغربية، فأثروا بالآية العجيبة في توليد المعارف واكتشاف أسرارها، وأصبحوا القائمين على سيادة العقل الإنساني باختراعهم في الجبر والمقابلة وحساب



تتقوم بها واستصفاً القوانين الكبرى التي تحكمها والأصول العامة التي تنبني عليها والمسك بالثوابت التي تقودها وتوجهها. فالمزج التي انفرد بها والخصيصة التي تملكها دون غيره والمرتقى الذي سما إليه وحده هو أنه كان يقصد إلى ضبط فلسفة كل علم يدرسه وكل مبحث يفحصه، فقد كان شاغله الأساسي شاغلاً إبتيمولوجياً يتصل بمناهج المعرفة أكثر من المعرفة ذاتها وبآليات التفكير أكثر من مواضيع التفكير، ولهذا السبب كانت مقارباته فريدة وطرائق تعاطيه لمسائله عالية الطبقة بعيدة المتناول، وإن كانت عند قارئه سائغة قريبة المآخذ ولكن فيها من الإبهار والأخذ بمجامع القلوب الشيء الكثير.

وهو فوق كل ذلك يخطب ويكتب بلسان عربي مبين يجمع إلى صفاء العبارة ورشاقة التركيب متانة الأسلوب وسلاسة الانتظام واتساق الإيقاع مما يجعله مثال القوة البيانية للعربية الحديثة. ولعله ينفرد عن كتاب المشرق والمغرب جميعاً بطابع مميز فيه من سحر البيان وطلاوة الأسلوب وعمق الفكرة ونفاذ التحليل ما لم يجتمع لكاتب غيره.

وإن هذه الخصال المميّزة لتبين في مؤلفاته كلها:

ففي كتابه النفيس « الحركة الأدبية والفكرية في تونس » ثماني محاضرات ألقاها بمصر سنة 1956 حول تطور حركة الفكر والأدب في البلاد

ولعل مصدر هذه الريادة المطلقة خصلتان اثنتان أساسيتان :

• أولهما ثقافته الموسوعية الجامعة، ولكنه ليس ذلك الموسوعي الذي يأخذ من كل شيء بطرف فيلم بعض أصناف العلوم وضروب المعرفة إماماً طفيفاً سطحياً ولا يظفر منها إلا بالمبادئ العامة الفضفاضة والظواهر الإجمالية الأولية، ولكنها الموسوعية التي تعني الجمع بين طائفة من العلوم المتظاهرة المتضاربة جمعا يقوم على أساس من المعرفة العميقة المتينة والإلمام باللطائف والدقائق والتفاصيل الجزئية والتفاريق. وهو على غرار عظماء المفكرين لا يقنع بالتمثل والوعي والإستيعاب وإنما دأبه الابتكار والإضافة والتشقيق والافتراع بما أوتي من قدرة عجيبة على الاستقراء الثاقب والتحليل المستفيض، فهو يتشرب من عيون كل علم وينابيع كل فن ما يرشح بها على قرائه معرفة متجددة ورأيًا مبتكراً مستطرفاً حتى ينسبك أصل مغزاه وأول وزده. فلا مرأه أنه فقيه عالم ومجتهد عارف وهو أيضاً قاض أحاط بالأحكام الشرعية والقوانين الوضعية في الشرق والغرب، وهو إلى ذلك أديب ناقد يتناول النثر بجميع أجناسه والشعر بمختلف أضره، وهو مؤرخ مُحقق ومترجم للأعلام وفي مَدَقِّق.

• ثانيهما منهجه المتفرد في التفكير، فهو ينحو في كل مسألة يزاورها إلى الظفر بالكليات التي

كتب الرجل في مسائل العقيدة والشريعة أبان عن عقل فيلسوف متبصر وفكر عالم متبحر تتضاءل إزاهه كتابات المتفهمين وتتضع أعمال المجتهدين، وإذا كتب في قضايا الأدب والفكر أسفر عن منهاج ناقد ضليع تام الأداة وقسطاس دارس بصير مكتمل العدة والجهاز يُزري بمقالات الكتاب والنقده وفصول القراء والمؤولة، وإذا تعاطى حوادث التاريخ وأطواره ومنعطفاته وجدته إزاء ناظر حكيم متدبر وفاحص خبير متفكر يفحص أمه المؤرخين ويُلجم أنجب الباحثين.

ففي كل فن زاوله وفي كل علم خاض غماره كان كمن ينام ملء جفونه عن شواردها في حين ما يزال الخلق إلى اليوم يسهر جزأها ويختصم، ولا يكون ذلك إلا عن موهبة مؤتلة وتكوين منقطع النظر وسعة اطلاع لا تُحد ويقظة ذهن لا تتأخر إلا للمعدودين من البشر، فمذهبه في التفكير والكتابة مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ولا تجتمع في صدر كل أحد.

إن الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ليس مجرد علم من أعلام الفكر البارزين وليس شخصية علمية ودينية وثقافية لامعة فحسب، بل لقد اكتسب تلك القيمة الرمزية التي تجعله معبراً عن ريادة ثقافية وعلمية تشمل جيلاً كاملاً ومتبوعاً منزلة القيادة الفكرية والإصلاحية في عصره ومجمعه.

فإذا

الشيخ العلامة محمد الفاضل ابن عاشور ناقدًا وباحثًا

ما أشد تفريطنا في أمرنا وتهاوننا في حق الأفاضل من أعلامنا وضعف تقديرنا لما أوتوه من عبقرية نادرة ونبوغ مكين! ... ذلك هو الخاطر الذي يلوح بفكر المرء بعد الفراغ من قراءة آثار الشيخ العلامة محمد الفاضل ابن عاشور وإنعام تأملها. فالشيخ، في الحقيقة، ليس «شيخاً بالمعنى المتداول في الأوساط الدينية البسيطة وإنما هو مفكر خطير ودارس ألمعيّ وباحث أريب قويّ العارضة حادّ الذكاء، ولكن آثاره لا تلقي اليوم من الاهتمام ما هي به جديدة ولا تجد من الاحتفاء والاعتناء ما يجعل الأجيال الحاضرة تجتني ثمارها وتغنم فوائدها.



• بقلم د. الحبيب الدريدي

ATL Leasing, L'allié de votre succès



ATL LEASING

ATL Leasing, vous offre la possibilité de louer les biens dont vous avez besoin pour votre activité pendant une période pouvant atteindre 84 mois. En fin de période vous en devenez propriétaire.



Plus qu'un leasing...

والمحصل أن النظر في مجمل أعمال الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور يُلاحظ أن هذا العلامة الفذ، وإن فارقتنا منذ نصف قرن، قد اكتسب بآثاره القيمة راهنية لا تُنازع. وإن هذه الراهنية لتبين في مظاهر عدّة:

• أولها أنه خلع على الفكر الديني صبغة فلسفية عميقة ارتقت به من التعاليم الفقهية التقليدية إلى النظر العقلي المجرد بما يرفعه إلى منزلة فيلسوف الفكر الديني الحديث (راجع مثلا دراسته لمسألة التكليف أو لمسألة الفكر المقاصدي في كتابه «المحاضرات المغربية»)، وهو في ذلك يُجيب عن كثير من المسائل الخلافية الراهنة ويسمو بالمباحث العقدية والشريعة إلى مستوى من الجدل عال يُعتبر اليوم درسا بليغا لبعض الأوساط التي نزلت بهذا الجدل أحيانا إلى درجة مسفة.

• ثانيها أنه صاحب منهج في التفكير مبتكر مستطرف لأنه بحث دائما في كل ما تناوله من قضايا عن القوانين المتحكمة في الظواهر والكليات المقومة لها والفلسفة الموجهة لمسارها، وهو منهج يتميز به وينفرد يجعله راهنا على الدوام لأنه يضع به الأصول الثابتة والأفكار المرجعية والقواعد المؤسسة التي لا غنى عنها لكل من رام البحث فيها بعده.

• ثالثها قدرته الفائقة على مفارقة الوصف والعرض والاستظهار إلى التحليل والاستقراء والاستنباط، وهو بذلك يُمهّد المسالك البكر ويفتح الآفاق الواسعة ويفترع المباحث المستجدة ويُلهم من يسير في أثره سبل التحديث والتجديد.

• رابعها إيمانه الراسخ بأن في الثقافة العربية الإسلامية من أسباب الغنى والقوة ما يجعلها أساسا متينا لكل حركة في التحديث والإصلاح وأن الاغتناء من الثقافات الغربية واسترفادها ينبغي أن يتم في اعتداد كامل بالثقافة الأم بعيدا عن مزالي المسخ والاستلاب، وهو يُعتبر بذلك صاحب رؤية متبصرة في مسألة المناقفة والحوار بين الحضارات يجدر الاستئناس بها. ح.د.

أما في كتابه «أركان النهضة الأدبية بتونس» فقد ترجم لعشرة من كبار الأعلام التونسيين في السياسة والفكر والأدب (قبادو، خير الدين، سالم بوحاجب، محمد بيرم، محمد السنوسي، البشير صفر، محمد الخضر حسين، الثعالبي، نازلي فاضل، صالح السويدي) فجاء الكتاب أهودجا أمثل عن الوجه الذي تصير بمقتضاه الترجمة للأعلام وكتابه سيرهم مدخلا صالحا إلى كتابة التاريخ وفق منطقي مبتكر وفي إطار رؤية مجددة وبناء محكم الاتساق. فمن خلال سير الأعلام يرصد الأفكار الكبرى التي وجهت مسار التاريخ معرضا عن الحوادث العابرة والوقائع العارضة ومنصرفا إلى تحليل ما قد يكون خفيا محتجبا من العوامل المؤثرة، وهو ضرب من الاستقراء لا يصدر إلا عن عقل وافر وأطلاع واسع ونظر ثاقب ودكاء حاد.

وكذلك فعل في كتابه «أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي»، وهو يضم خمسة عشر فصلا في الأعلام وفي الجماعات (الفقهاء العشرة، أهل الرباط) ممن طبع تاريخ المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثامن الهجري. فقد اتخذ تراجم الأعلام سبيلا إلى بناء خطة لوضع تاريخ المغرب العربي، ذلك أن كل علم كان ممثلا لطور أساسي من أطوار ذاك التاريخ الممتد طويلا، بل كانت سيرة كل علم معبرة عن الأصول المهمة لكل مرحلة والظواهر المميزة لها والخصائص المقومة لمبتدئ مسارها ومنتهاه.

ومما قد يعزب عن كثير من الناس أن الشيخ العلامة محمد الفاضل ابن عاشور قد وضع مقدمة لكتاب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» لحازم القرطاجني الذي حققه ودرسه الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة في إطار أطروحة نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة باريس سنة 1964. وقد كانت مقدمة عجيبة الشأن هي الأخرى فقد استطاع في صفحات قليلة أن يسير أغوار كتاب مشكل عسير ويستخلص عصارته وأن يضبط صلته بما سبقه من كتب البلاغة والإنشاء ونقد الشعر ضبطا علميا دقيقا ويحدد منزلته منها وما يفترق به عنها، وذلك بعد أن صنّف كتب البلاغة والنقد في التراث العربي أصنافا تفصيلية جزئية ما أظن أن أحدا قد سبقه إليها.

التونسية من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، وإن بدت في الظاهر محاضرات متفصلة متباينة فإنها في الحقيقة وحدات متلاحمة متواشجة تنتظم في سلك واحد وتربط في نسق منسجم وضع فيها تاريخا دقيقا ومعتمقا للثقافة التونسية الحديثة يقوم على صهر عجيب لعوامل السياسة وحركة المجتمع مع اتجاهات الفكر وأنظمة التعليم ومنازع الصحافة ومذاهب الأدب، ويستند إلى استقرار للدواعي والبواعث والأسباب وتدبر للمظاهر والتجليات وتحليل للعلائق والأواصر والصلات واستنباط للنتائج والقوانين والأحكام، كل ذلك عن نظر فاحص متأن وغوص على خفي الحقائق وربط للمعلومات بعلمها ورسم دقيق لمسارات تطور الأفكار والمذاهب والنزاعات.

فالكاتب هو دون منازع أوفى تاريخ للفكر التونسي مختلف نواحيه وللثقافة التونسية بشتى فروعها في تلك المرحلة الدقيقة، فهو يدرس السياق التاريخي العام وأثره في توليد الأفكار والاتجاهات، ويكشف كيف اعتملت تلك الأفكار ومخضت فتجسدت في حركات ومؤسسات وجمعيات، ثم عبرت عن نفسها في وسائل تنطق بهواجسها وتطلعاتها من صحف ومجلات ومحاضرات ومسامرات وكتب ومنشورات ومصنفات، ثم يُبين مساهمة ذلك كله في إبراز أعلام وقادة ورموز فاعلين في السياسة والفكر والثقافة والأدب، ولكنه يُحلل في أثناء ذلك ما بين تلك الأفكار من اصطراع وتنازع ظاهر أحيانا وخفي أحيانا أخرى وما تشف عنه تلكم الصراعات من جدل بين قيم متعارضة متقابلة وتصورات متضادة متنافرة. وإن قارئ الكتاب لا يقضي العجب من التسيج المحكم الذي حاك فيه المؤلف مسار الصراع بين نزعات التحديث والتجديد ونزعات المحافظة والجمود منذ التنافس الأول بين الزيتونة والمدرسية الحربية بباردو ومحاولات التوفيق بين واجب الحفاظ على مقومات الشخصية العربية الإسلامية ومقتضيات الأخذ بأسباب النهضة والترقي. ومن أدهش ما في الكتاب تلك الصفحات القلائل التي خصصها لأبي القاسم الشاذلي فأحاط في بضع فقرات بشاعريته ولخص عبقريته تلخيصا لم ترق إليه أية دراسة حول الشاذلي.

تعليق

الشيخ علم من أعظم ما أنجبت تونس من العلماء الأعلام ورواد الإصلاح التربوي والديني والاجتماعي والثقافي، نال السبق والريادة في مجالات عدّة وخاصة في العلوم الدينية والفلسفة الإسلامية واللغة العربية.

فهو «العالم» المتميز والمتقّف الموسوعي الذي لقبه معاصروه، منذ شبابه بـ«العلامة البحر». وفي هذا المعنى حسبنا ما كتبه عنه تلميذه، ورفيق دربه، وملازمه، وابنه الروحي الشيخ محمد الحبيب بلخوجة، رحمه الله، «هرعنا شاباً إلى حلقات دروسه ومجالس محاضراته (...). فوجدنا علامة بحراً يحدثك عن كل شيء، ويحاضر في كل شيء، فمن درس في الأدب أو البلاغة أو اللغة إلى تقارير في التفسير والعقيدة، ومن بحث في الملل والمذاهب العقدية والكلامية إلى محاضرة في الاجتماع وأصوله والعمران البشري ودعائه، ومن بيان وتوضيح الفروع الحكمية والفقهية مستندة إلى دراسات تاريخية وفلسفية وتقييم حضري لكل الأحوال والملابسات والأطوار والعصور، شاهدنا ذلك ولمسناه في مختلف الفنون التي كان يدرّسها بالجامع الأعظم، تلقيناه وعشناه في المحاضرات والتدوات والمؤتمرات التي كان يلتفت فيها الناس من حوله ليفيدوا من معارفه، ويغترفوا من فيضه، ويرتووا من مناهله».

وقد اضطلع، بدور علمي تربوي كمدّرس بالجامع الأعظم وبالمدرسة الصادقية وبالمعهد العالي للحقوق وبكلية الحقوق بتونس، وكعضو بمجمع اللغة العربية بالقاهرة وعضو برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وتولى مهام شرعية سامية كمفت مالكي (1953) ثم كقاض مالكي بالمحكمة الشرعية (1956) ثم كرئيس دائرة محكمة التعقيب (1956)، وكان له في الأربعينيات من القرن العشرين دور اجتماعي طلائعي ولا سيما كرئيس للجمعية الخلدونية منذ سنة 1945 التي أنشأ صلبها ثلاثة معاهد عليا لمعاودة التعليم الزيتوني (معهد البحوث الإسلامية ومعهد الحقوق العربي سنة 1946 ومعهد الفلسفة سنة 1949)، ودور سياسي كعضو بالديوان السياسي للحزب الحر الدستوري الجديد إثر مؤتمر ليلة القدر سنة 1946، بدور نقابي كمؤسس، وأول رئيس للاتحاد العام التونسي للشغل سنة 1946، ودور قومي كمناصر ومعرف بالقضية الفلسطينية منذ نهاية الانتداب البريطاني قبل الإعلان الرسمي عن قيام الكيان الصهيوني، وبعده خلال حرب فلسطين سنة 1948.

لقد كانت وفاته صدمة كبيرة وكانت مصدر حسرة وحزن عميقين، لا في بلده تونس فقط، ولكن في عموم العالم العربي والإسلامي وأيضاً في الدول الغربية التي زارها خلال حياته (فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة، وما إلى ذلك). وقد أوفدت البلدان الشقيقة والصديقة وفوداً رسمية لحضور الجنازة وتقديم التعازي للعائلة وكذلك للحكومة والشعب. وكان موكب دفنه، في 22 أبريل 1970، في مقبرة الزلاج حدثاً وطنياً نادراً، حضرته حشود كبيرة من الرجال والنساء الذين أصروا على التجمع بالمرسى، مقر إقامته ومسقط رأسه التي ولد بها في 16 أكتوبر 1909، وفي طريق موكب الجنازة من مدينة المرسى إلى العاصمة وفي المقبرة نفسها لتوديعه الوداع الأخير.

هذا وقد حضر موكب الجنازة أعضاء الحكومة، برئاسة الوزير الأول آنذاك، الراحل الباهي الادغم، والمشائخ وأساتذة وطلبة الكلية الزيتونة، وطلبة

الشيخ من أجيال مختلفة من الزيتونيين والصادقيين والجامعيين، والوفود الرسمية وخاصة الوفد المغربي الذي أرسله الملك المرحوم الحسن الثاني، وأعضاء السلك الدبلوماسي والقضاء، إلخ. وتولى الأستاذ محمد مزالي وزير التربية القومية آنذاك، تأبينه بعد أن تولى والده، الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، إمامة صلاة الجنازة بإيمان وشجاعة ورضاء بقضاء الله لا مثيل له.

وخلال إحياء أربعينيته في موكب مشهود بالمسرح البلدي بتونس برئاسة صديقه الدكتور الصادق المقدم، رحمه الله، وبحضور وفود من عدة بلدان، رثاه الشاعر عزيز أباضة، باسم مجمع اللغة العربية بالقاهرة بقصيدة عصماء مما جاء فيها:

خلفت (مجمعك) الحزين وأنت في
وفي كل معضلة تهيج به
تدلي به مستوثقا متواضعا
وإذا خطبت فمصقع مسترسل
وإذا احتشدت محاضرا أو شارحا
وإذا سكت فرب صمت، فاصل
وجمعت بين العلم والأدب

واليوم، وقد مرّ نصف قرن كامل على رحيل الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، فإن ذكراه لا تزال عالقة في النفوس، حية في تونس والعالم العربي والإسلامي. فصوته الجهوري وفصاحته وبلاغته التي جبل عليها منذ الصغر لا تضاهي حتى يومنا هذا، مازالت محاضراته تشدّ الخاض والعام لما تتولى الإذاعة الوطنية، خلال شهر رمضان بالمملكة المغربية الشقيقة في نطاق الدروس الحسينية في حضرة الملك الراحل الحسن الثاني. وللأسف الشديد لم تحتفظ الإذاعة التونسية بأحاديثه الأسبوعية التي دأب على تسجيلها منذ بعث الإذاعة التونسية سنة 1938، والتي جعل لها عنواناً «حديث الأربعاء» بمناسبة حلول عميد الأدب العربي، الدكتور طه حسين بتونس سنة 1957 وحضوره موكب نهاية السنة الدراسية بالجامعة الزيتونية بحراب جامع الزيتونة المعمور مصحوبا برئيس الحكومة الزعيم الحبيب بورقيبة وعميد الجامعة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

وفي هذه المناسبة، لا يسعنا إلا أن نترحم على الفقيد العظيم راجين متضرعين من المولى جل جلاله، أن يجازيه الجزء الأوفى عما قدّم للبلاد والعباد، ونتقدّم بالشكر الجزيل لمجلة «ليدرز» ومديرها المؤسس، السيد توفيق الحبيب، عما يوليه من اهتمام لتخليد ذكرى رجال ونساء تونس الأفاضل، وكذلك لرئيس تحرير النسخة العربية من المجلة، الأستاذ عبد الحفيظ الهرقام، لما أبداه من عناية وحسن اهتمام لتخليد هذه الذكرى. وما أحوجنا اليوم لأعلام مثل الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، ونحن نعيش دهرا صار الدين فيه مطية سياسية يركبها الكثيرون، واختلط فيها الحابل بالنابل، حتى أصبح التفقه في الدين والإفتاء ذريعة لبثّ التفرقة بين أبناء الشعب الواحد وإقصاء نصف المجتمع، ولتغصّب الأعمى ورفض الآخر وبثّ ثقافة العنف والموت. ■

رافع بن محمد الفاضل ابن عاشور



نصف قرن منذ وفاة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ما أحوجنا اليوم لعلماء مثله



يمر هذه السنة، 2020، نصف قرن بالتّمام والكمال على رحيل المنعم المبرور، الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، مفتي الجمهورية وعميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، يوم 20 أبريل 1970. عن عمر لم يبلغ بعد الستين سنة. ومع ذلك فإن ذكراه وإشعاعه ما زال قائمين إلى اليوم، وكأنه لم يغادر الحياة ولم يزل بيننا.



• بقلم رافع ابن عاشور



سد النهضة الإثيوبي حين تفقد هبة النيل هيبتهَا

أيامًا معدودة بعد فوز أبي أحمد رئيس الوزراء الإثيوبي بجائزة نوبل للسلام بعنوان سنة 2019، لجهوده من أجل تحقيق السلام والتعاون الدولي. وخاصة لمبادرته الحاسمة لحل النزاع الحدودي مع إريتريا، «خاطب برلمان بلاده يوم الثلاثاء 22 أكتوبر 2019 بشأن «سد النهضة» فقال: «لا توجد قوة قادرة على منعنا من إتمام بناء السد... وإذا كانت ثمة حاجة لخوض حرب فيمكننا حشد ملايين... وإذا تسنى للبعض إطلاق صاروخ، فيمكن للبعض الآخر استخدام قنابل. لكن هذا ليس في صالح أي منا...» وقد جاء هذا الخطاب ردًا على تلويح مصر بنقل خلافها مع إثيوبيا حول السد إلى مجلس الأمن الدولي ومجلس السلم والأمن الإفريقي، لحماية مصالحها المانية، فأنار ضجة واسعة النطاق في القاهرة التي أعربت عن صدمتها من لهجته التصعيدية، ورأت فيه تهديدًا صريحًا من رجل كان أقسم للرئيس المصري عبد الفتاح السيسي، في جوان 2018، على عدم المساس بأمن مصر المائي.



• بقلم محمد إبراهيم الحصاربي

وقد كان ذلك أمرا طبيعيا، فهذا الخطاب انتقل بالسجال السياسي الدائر بين البلدين منذ سنوات عديدة إلى استخدام سجل حربي صريح وخطير، وهو يؤشر على وصول المفاوضات التي كانت جارية بين البلدين منذ شروع إثيوبيا سنة 2011 في بناء السد، وخاصة خلال السنوات الخمس الأخيرة، إلى طريق مسدود، وعلى نزوع أديس أبابا، وهي توشك على الانتهاء من البناء، إلى التشدد في التعاطي مع هذا الملف الشائك. وقد تجسّم هذا التشدد، لاحقا وبصورة واضحة في امتناع إثيوبيا عن المشاركة في اجتماع المفاوضات النهائية الذي استضافته واشنطن يومي 28 و29 فيفري 2020، وعن التوقيع على الاتفاق الذي صاغته الولايات المتحدة في ضوء المفاوضات التي جرت بين الدول الثلاث (إثيوبيا ومصر والسودان) خلال الاجتماعات الأربعة التي عقدها وزراء الموارد المائية بمشاركة ممثلي الولايات المتحدة والبنك الدولي.

وفي حين حضرت مصر الاجتماع ووقعت على الاتفاق بالأحرف الأولى، علّلت إثيوبيا تعييبها بأن «فريق التفاوض لم يكمل مناقشاته مع الخبراء المحليين وأصحاب المصالح في إثيوبيا»، كما أعلن وزير خارجيتها في 03 مارس 2020 أنّ بلاده «عازمة على الشروع في ملء خزان السد بدءا من شهر جويلية المقبل».

والأمر المؤكّد، في نظر الملاحظين، أنّ تعلّل إثيوبيا بالحاجة إلى مزيد من الوقت لاستكمال مناقشاتها الداخلية، ليس مقنعا، وإنّما هو تعلّة تنذر بها من باب المماطلة والتسويف.

إنّ إثيوبيا تنظر إلى «سد النهضة» الذي تُقدّر كلفته بخمسة مليارات دولار والذي سيكون أكبر سدّ في إفريقيا وعاشر السدود في العالم من حيث إنتاج الطاقة الكهرومائية على أنّه مشروع الأمة الإثيوبية التي يربو تعدادها على 105 ملايين نسمة معظمهم تحت خط الفقر، وهو بالنسبة إليها كالسدّ

العالي بالنسبة إلى مصر، فهي تعوّل عليه في تحقيق نهضة تنموية شاملة لاسيما وأنّه يُنتظر، عند بدء تشغيله، أن يمكّنها من إنتاج ستّة آلاف ميغاوات من الطاقة الكهربائية، أي ما يوازي ما تنتجه ستّ منشآت تعمل بالطاقة النووية، وهو ما سيجعلها أكبر دولة مصدّرة للطاقة في إفريقيا...

ثم إنّها تعتبر أنّ الاتفاقيات الدولية التي وزعت حصص مياه نهر النيل والتي أبرمت سنوات 1902 و1929 و1959 ليست سوى اتفاقيات «استعمارية» لأنّها أبرمت في عهد الاستعمار، ولأنّها لم تأخذ مصالحها بعين الاعتبار، بالرغم من أن 80% من مياه النيل تسقط فوق أراضيها وأثلها حقًا أصيلا في استخدامها.

وفي هذا السياق يجدر التذكير بأنّ اتفاقية سنة 1929 منحت مصر حقّ الاعتراض على أيّ مشاريع إنشائية على طول مجرى النيل وروافده، أمّا اتفاقية سنة 1959 التي جاءت تعضيدا لاتفاقية سنة 1929، فقد منحتها 55,5 مليار متر مكعب، ومنحت السودان 18,5 مليار متر مكعب، أي ما يساوي على التوالي 66% و22% من إجمالي تدفقات مياه النيل التي تبلغ 84 مليار متر مكعب... وانطلاقا ممّا تقدّم فإنّ إثيوبيا تعتبر أنّها ليست مُلزّمة باحترام ما جاء في هذه الاتفاقيات، ومع ذلك فإنّها أبلغت مصر أنّ ملء خزان السدّ الذي يتسع لـ74 مليار متر مكعب سيتمّ في فترة زمنيّة معقولة ومتماشية مع غزارة أو شحّ الأمطار ومع منسوب فيضان النيل.

ومع التأكيد على أنّ الحلّ الوحيد للخلاف مع مصر هو المفاوضات ثمّ المفاوضات، فإنّ إثيوبيا تقول على لسان وزير الخارجية إنّ «الأرض أرضنا، والمياه مياها، والمال الذي يُبنى به سدّ النهضة مالنا، ولا قوة يمكنها منعنا من بنائه»، أما التحذيرات المصرية المتكرّرة «فليست في صالح الجميع».

في المقابل تؤكّد مصر أنّ مشروع السدّ يشكلّ «تهديدا وجوديا» لها، وتشدّد على

أنّه لا يمكن لدول حوض النيل بناء سدود إلا بالتشاور معها وموافقتها، وهي تلاحظ أنّ حصتها الإجمالية من مياه النيل تكاد تفي بالحد الأدنى من احتياجاتها خاصة وأنّ تعداد سكانها وصل إلى 100 مليون نسمة، وأنّ حصّة الفرد المصري من المياه انحدرت إلى حوالي 700 متر مكعب سنويًا، في حين أنّ حدّ الفقر المائي الذي حدّدته الأمم المتحدة هو 1000 متر مكعب سنويًا. وهي تخشى إنّ أصرت إثيوبيا على إتمام عملية الملء في خمس سنوات وليس عشر أو سبع سنوات كما تريد هي، أنّ يؤدّي ذلك إلى بوار قرابة مليون فدان من الأراضي الزراعية، وإفقار أكثر من خمسة ملايين مزارع يعملون فيها، والإضرار ببحيرة ناصر، وبالسدّ العالي لقلة المياه التي ستصل إليه واللازمة لتشغيل توربيناته المولدة للكهرباء. وإلى ذلك، فإنّ مصر تعتبر أنّ الاتفاقيات الدولية المنظمة لجرّان مياه النيل مُلزّمة وأنّ إلزاميتها مستمرة، وأنّ القول إنّها وُقعت في عهد الاستعمار قول لا يُعتدّ به، فهي اتفاقيات يجب أن تُحترم كما تُحترم، على سبيل المثال، اتفاقيات ترسيم الحدود كما هي حتى لا تفتح القارة الإفريقية على نفسها بابًا لا ينغلق من الحروب والنزاعات الحدودية.

وعلى هذا الأساس فهي تصرّ على ضرورة أن تُحترم دول المنبع حصتها من المياه، وأنّ تعترف بحقّها في الموافقة المسبقة على أيّ منشآت تقام على طول نهر النيل أو أي من روافده، ومعنى ذلك، كما ترى القاهرة، أنّ سيادة إثيوبيا على نهر النيل الأزرق الذي يجري في إقليمها، وسلطتها على إدارة وتشغيل وملء سدّ النهضة باعتباره يقع في أرض إثيوبية، وتم تشييده بأموال إثيوبية، ليستا مُطلقتين، وأنّ ملكيتها الخاصة للسدّ لا تحرّرها من ضرورة الالتزام بمبدأ الاستخدام المنصف لمياه نهر النيل، ومبدأ عدم الإضرار بالغير في استخدامها.

وبناءً على كلّ ذلك فإنّ الدّولة المصرية بكلّ مؤسساتها، كما أكّد الرئيس عبد الفتاح السيسي في الخامس من أكتوبر 2019،

ملتزمة بحماية حقوقها في مياه النيل، ومستمرة في اتخاذ ما يلزم من إجراءات على الصعيد السياسي، وفي إطار محدّدات القانون الدولي لحماية هذه الحقوق.

ومن خلال الموازنة بين رؤيتي البلدين، يمكن أن نلاحظ أنّهما على طرفي نقيض، وأنّ الفجوة بينهما شاسعة، ففي حين يتّسم موقف أثيوبيا بالتصلّب والتصعيد، يتّسم موقف مصر بنوع من الرخاوة واللينة الزائدتين، ويبدو أنّ ذلك راجع إلى إدراكها أنّ «سد النهضة بُني وَفُضِيَ الامر»، وأنّه لم يَبْقَ أمامها إلا التسليم بالأمر الواقع.

إنّ مصر التي سمّاها هيرودوت «هبة النيل» فُقدتْ، على ما يبدو، هيبته في التعامل مع هذا الملفّ الشائك، وذلك لأسباب عديدة لعل أهمّها التالية:

1- أنّها أخطأت واركتبت خللاً «استراتيجياً» عندما وقّعت مع السودان وإثيوبيا في مارس 2015 بالخرطوم اتفاق «إعلان المبادئ» الذي فتح المجال أمام أديس أبيبا لبناء السدّ، ذلك أنّها تسرّعت في التوقيع قبل أن تستكمل المشاورات اللازمة وقبل الانتهاء من الدراسات المتعلقة بأضراره المتوقّعة.

ثم إنّ هذا الاتفاق الذي تمّ التوصل إليه بعد مفاوضات مُضنية كان في صالح إثيوبيا حيث أنه مكّنها من وثيقة قانونية تقرّ بحقّها في بناء السدّ.

ولا شكّ أنّه نصّ على أنّ الدُول الثلث مُطالبّة باتخاذ كافة الإجراءات اللازمة «لتجنّب التسبّب في صرر ذي شأن خلال استخدامها للنيل الأزرق (أي النهر الرئيسي)»، كما نصّ على التزامها بالتسوية السلمية ل«منازعاتها الناشئة عن تفسير أو تطبيق هذا الاتفاق بالتوافق من خلال المشاورات أو التفاوض وفقاً لمبدأ حسن النوايا»، مع اللجوء إلى الوساطة الخارجية في حال عدم التوصل إلى اتفاق، غير أنّ هذين البندين جاءا فضفازين وغير مُلزمين.

2 - أنّها لم تحسن إدارة علاقاتها مع السودان الطرف الثالث المعني بسدّ النهضة، حتّى يكون

سندا لها في هذا الملفّ، فهي لم تحلّ بعدُ الخلاف الحدودي القائم بينهما.

ثم إنّ سدّ النهضة الذي سيساعد على ضبط جريان المياه أثناء فيضان النيل، سيعود بالنفع على السودان حيث أنّه سيمكّنه من التزوّد بالكهرباء بأسعار اقتصادية، كما سيساعده على حلّ مشكلة الطمي الذي يسدّ الترع والقنوات، ممّا سيخفّف عليه عبء تطهيرها...

ولذلك كلّه، لم يكن غريباً أن يحتفظ السودان على القرار الذي أصدره مجلس وزراء الخارجية العرب في 05 مارس 2020 لدعم موقف مصر في مفاوضاتها مع أثيوبيا بشأن سدّ النهضة.

3 - أنّها لم تعدّ تتمتع بذات الثقل السياسي الذي كانت تتمتع به في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وحتّى توقيعها على اتفاقيات كامب ديفيد، سواء داخل البيت العربي أو داخل البيت الإفريقي، وهو ما يُضعف قدرتها على المواجهة السياسية والدبلوماسية مع أثيوبيا التي ما فتئت تعزّز مكانتها على الصعيدين الإقليمي والدولي.

4 - أنّها بحكّم دخولها في محاور عربية ضدّ أخرى، وبحكّم تورّطها في العديد من النزاعات البيئية العربية لم يعدّ بإمكانها أن تعوّل على دعم عربي شامل وفعال لموقفها، خاصة وأنّ بعض المصادر تؤكّد أنّ حليفيتها الأساسيتين المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة تتعاونان مع إثيوبيا، وتسعيان إلى تعزيز علاقاتهما بها، وتدعيم استثماراتها فيها وبالذات في المشاريع الزراعيّة في منطقة سدّ النهضة.

والغريب أنّها بالرغم من ذلك، وبالرغم من إدراكها أنّ قرارات جامعة الدول العربية لا تسمن ولا تغني من جوع، فإنّها استصدرت خلال الدورة الأخيرة لمجلس وزراء الشؤون الخارجية العرب قراراً يرفض أيّ مساس بحقوقها التاريخية في مياه النيل، ويدين أيّ إجراءات أحادية قد تقوم بها أثيوبيا لملاء خزّان السدّ.

5 - أنّها، عندما خيّم الجمود على المفاوضات بينها وبين إثيوبيا، بعد أن كانت قدّمت لأديس

أبيبا في أوت 2019 رؤيتها بشأن قواعد ملء وتشغيل سدّ النهضة، فضّلت توسيط الولايات المتحدة من أجل كسر هذا الجمود، في حين أنّ إثيوبيا كانت تريد توسيط اتحادية روسيا، فلقد طلب الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي من الرئيس دونالد ترامب وساطته عند لقاؤهما على هامش أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر 2019.

وفي حين وثّقت مصر في رعاية الولايات المتحدة للمسار التفاوضي، وفي «الدور البناء» الذي يمكن أن تلعبه في مساعدة أطراف الخلاف على التوصل إلى الاتفاق المنشود، يبدو أنّ إثيوبيا كانت أميل إلى التحفظ، وبالفعل، فإنّها توجّهت تحفّظاً بالامتناع عن المشاركة في اجتماع المفاوضات النهائية والتوقيع.

وهي لم تكثّف بذلك، بل إنّها أعربت عن «خيبة أملها» من البيان الذي أصدرته وزارة الخزانة الأمريكية بعد فشل الاجتماع، وأبدت فيه معارضتها للبدء في ملء السدّ دون إبرام اتفاق بين الدول الثلاث (مصر وإثيوبيا والسودان)، مؤكّدة على قلق دولتي المصبّ من تشغيل السدّ، قبل استكمال جميع تدابير السلامة اللازمة للتشغيل وفقاً للمعايير الدولية.

وقد وصفت أديس أبيبا هذا الموقف الأمريكي بأنّه «غير مقبول على الإطلاق»، واتّهمت واشنطن بتجاوز دورها كمراقب محايد، وقالت إن المعلومات التي تمّ تزويد الرئيس الأمريكي بها عن السدّ، غير دقيقة وغير ملائمة.

وفي بيان مشترك أكّدت وزارات الخارجية والطاقة والمياه الإثيوبية أنّ أديس أبيبا ستبدأ في مطلع موسم الأمطار هذه السنة أي في جويلية المقبل، عمليّة ملء خزّان سدّ النهضة بالتوازي مع استكمال البناء، وذلك استناداً إلى حقّها في الاستخدام العادل والمُنصف لموارد النيل.

ولاحقاً قرّر مجلس الوزراء الإثيوبي عدم المشاركة في أيّ مفاوضات بشأن السدّ قد تضرّ بمصالح البلاد الوطنية.

غير أنّ وزير الخارجية الإثيوبي الذي وصف البيان الأمريكي بأنّه «غير دبلوماسي»، خفّف من حدّة هذا الموقف حين أعلن أنّ بلاده ستستمر في المحادثات التي تجري بوساطة أميركية، إلا أنّه حدّر واشنطن من تسريع العملية أو محاولة التأثير على نتائجها.

والحقيقة أنّ أديس أبيبا ما كانت لتتقدّم على التغيّب وعلى انتقاد واشنطن، بكلّ هذه الحدّة، لو لم تكن تعلم جيّداً أنّ الضغط الأمريكي المتوقّع عليها سيكون محدوداً ولا تأثير حاسماً له.

ويستبعد الملاحظون في هذا السّياق أن تمارس الولايات المتحدة ما يكفي من الضغوط على أثيوبيا من أجل إقناعها بأنّ عدم الوصول إلى اتفاق لن يكون في صالحها، أو في صالح المنطقة بأكملها، ومن أجل دفعها إلى تليين موقفها وتقديم التنازلات المطلوبة، بل إنّ من غير المستبعد أن تنتهي واشنطن إلى تكريس الوضع القائم، وإلى فرضه على القاهرة من منطلق أنّ الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة كانت وما تزال تستهدف إبقاء مصر في حالة ضعف مستمرة حتّى لا تشكل أي شكل من أشكال التهديد لإسرائيل...

وهكذا فإنّ طلب مصر وساطة أمريكا بالرغم من الحديث المتواتر عن «وجود تفاهات إثيوبية إسرائيلية أميركية لحرمانها من حصتها من مياه النيل» يشكّل مظهراً آخر من مظاهر الخلل الاستراتيجي في تعاملها مع هذا الملفّ.

6 - أنّها، إلى ذلك، لا تستبعد حتّى إمكانية اللجوء إلى توسيط إسرائيل رغم كل ما يروج عن دورها في خلق الخلاف وتغذيته، ففكرة مشروع سدّ النهضة، كما تؤكّد مصادر متعدّدة، هي بالأساس فكرة إسرائيلية لها أهداف معلنة وأخرى خفيّة وهي تصبّ كلّها في إبقاء مصر ضعيفة مهذّدة في وجودها بسبب الأزمات المتلاحقة التي تعيشها.

إنّ إسرائيل التي ترتبط بعلاقات تاريخية قديمة مع الدولة الإثيوبية منذ عهد الإمبراطور هيليا سيلاسي، ما انفكت تحاول تطويق مصر

بحزام معادٍ لها من الجنوب، وفي هذا النطاق تنزّلت الدراسات المشتركة الإثيوبية الإسرائيلية الأمريكية التي تم إنجازها فيما بين 1958 و1964 بخصوص إقامة سلسلة من السدود ومنها سدّ النهضة في 27 موقعاً في إثيوبيا... غير أنّ هذه الدراسات ظلّت حبيسة الرّفوف، ولم تجد طريقها نحو التنفيذ في ذلك الوقت لأنّ مصر كانت أيام الرئيس الراحل جمال عبدالناصر مهيبة الجانب حتّى إنها استطاعت، في تلك الفترة بالذات إبرام اتفاقية سنة 1959 لتقاسم مياه النيل، وهي الاتفاقية التي ترفض أثيوبيا، اليوم، الاعتراف بها.

بيد أنّ إسرائيل التي تريد، من ناحية أولى، أن تحافظ على الجبهة المصرية هادئة آمنة باستمرار، ومن ناحية ثانية أن تواصل التغلغل، اقتصادياً وأمنياً، في القارة الإفريقية، خاصة بعد أن تحقّق انفصال جنوب السودان عنه، دأبت طيلة العقود التي أعقبت التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد على العمل بالتنسيق مع حلفائها ومع البنك العالمي وحتّى مع أصدقائها الجدد في منطقة الخليج على المساهمة في تمويل وإنجاز المشاريع الكبرى في إفريقيا التي يمكن أن تحقّق لها هاتين الغايتين، وقد كان مشروع سدّ النهضة على رأسها.

وليس غريباً في ضوء ذلك أنّ الحكومة الإثيوبية تعاقدت مع شركة «رافيسل» الإسرائيلية المتخصصة في الصناعات الحربية، للتزوّد بمنظومة الصواريخ الدفاعية Spyder-MR لتأمين السدّ، والمنطقة المحيطة به من أي هجمات جوية أو صاروخية، كما عهدت إلى شركات إسرائيلية أخرى تعمل في مجالات قواعد البيانات والاتصالات من أجل تأسيس الشبكات الخاصة بالسدّ.

وتأسيساً على جملة ما تقدّم من معطيات، فإنّ الملاحظين يرون أنّ مصر ستكون، وهي في وضعها الراهن، بحاجة إلى أن تعمل، مضطّرة لا مختارة، على التوصل مع أثيوبيا إلى حلّ سلمي عبر التفاوض، ولا شيء غير التفاوض، وأنّ تتجنّب أيّ شكل من أشكال التصعيد، وألاً تصغي إلى بعض الأطراف التي بدأت، بعد فشل المفاوضات، تتحدّث عمّا تسمّيه نُدّر الحرب التي بدأت تلوح

في الأفق، وكأنّها تدعو إلى الحرب، وتحرض عليها، وتوسوس لكلا الطرفين باللجوء إليها...

وحتى يظلّ النيل الخالد، كما أكّد الرئيس عبد الفتاح السيسي في بعض خطاباته «يجري بقوة رابطاً الجنوب بالشمال برباط التاريخ والجغرافيا»، فإنّه سيكون من الضروري للقاهرة ولأديس أبيبا على حد سواء أن تتوقّفا عن تبادل الاتهامات بالمسؤولية عن الخلاف بينهما، وأن تستبعدا أيّ تلويع بإمكانية اللجوء إلى استخدام القوة أو التهديد باستخدامها، لأنّ الحلّ لا يمكن أن يكون عسكرياً، بل إنّ الخيار العسكري لا يمكن إلاّ أن يعقدّ الوضع.

على أنّ القاهرة ستكون مدعوّة، بالتوازي مع ذلك، وعلى المدى المنظور، إلى القيام بعملية «تحشيد دبلوماسي» قوية، على كافة الأصعدة، إقليمياً وقارياً ودولياً، مع الاعتماد على خطاب مُقنع ذي مصداقية وبعيد عن المبالغة في تقدير الأضرار المتوقّعة، وذلك حتى تدفع المجتمع الدولي إلى التحرك من أجل ممارسة الضغوط اللازمة على إثيوبيا لكي لا تشرع في ملء خزّان السدّ دون اتفاق معها، ومن أجل مساعدة الجانبين على حلّ خلافهما سلمياً، وإن لزم الأمر البحث عن صيغة ما لدعما مالياً وفتياً جبراً لما سينجم لها من أضرار عن أيّ نقص في كمية المياه التي ستصلها عند تشغيل السدّ.

ثم إنّها، مستقبلاً، ستكون بحاجة ماسّة إلى أن تراجع سياساتها وأن تعدّل خياراتها على الصعيدين العربي والإفريقي أولاً، وعلى الصعيد الدولي ثانياً، حتى تخلع من رقبته رنقة الهيمنة الأمريكية الإسرائيلية عليها، وحتّى تسترجع مكانتها ودورها الريادي وخاصة هيبته المفقودة في المنطقة وفي العالم...

فهل ستفعل..؟

إنّنا نأمل ذلك، فما أحوجّ المنطقة بعد زلازل «الربيع العربي» إلى بناء معادلات جديدة تعيد إليها التماسك والتوازن بعد طول ارتباك واضطراب. ■

م.ا.ح



تركيا في محيطها الإقليمي سياسة خارجية متقلبة وتحالفات غامضة

(الجزء الثاني)

باتت السياسة الخارجية التركية محط أنظار الباحثين والمحللين في عهد الزعيم رجب طيب أردوغان الذي غير ثوابتها ومركزاتها التي دأبت عليها منذ تأسيس الجمهورية التركية ودخل في صراعات مع حلفائه التقليديين حول قضايا أساسية تتعلق بأمن تركيا وتماسك التحالف ووحدة الصف داخله وصيانة المصالح الكبرى لأعضائه. وقد تعرّضنا في الجزء الأول من هذا المقال إلى مختلف المراحل التي مرت بها السياسة الخارجية التركية منذ صعود حزب العدالة والتنمية الإسلامي إلى سدة الحكم في 2002 ورأينا كيف تعاملت القيادة التركية مع ثورات «الربيع العربي» باعتماد سياسات نظر لها أحمد داوود أغلو وزير الخارجية ورئيس الوزراء السابق. وتناولنا المرحلة الأخيرة من تحوّل السياسة الخارجية التركية التي أعاد فيها أردوغان تقييم الأولويات التركية في المنطقة وخاصة على الساحة السورية.



• بquam محمد لسير

نطرح

في هذا الجزء من المقال الأسباب التي أدت إلى هذا التحوّل وتأثيراتها المحتملة في تحالفات تركيا التقليدية.

1 - أدركت تركيا أنّ الغرب يريد فرض قيمه عليها ولا يسمح لها بتطوير رؤى سياسية مختلفة تخوّل لها الانفتاح على الشرق مثل الحصول على صفة الشريك في الحوار مع منظمة تعاون شنغاي أو الانضمام إلى مجموعة BRICS أو إنشاء منطقة نفوذ على أسس إيديولوجية تقوم على الخصوصية القومية والتاريخية والدينية. ويذكر أنّ دعاة التحرّر من إملات الغرب يؤسسون مواقفهم على خلفية عدم احترام البلدان الغربية نفسها لقيم الديمقراطية ولحقوق الشعوب عندما تتعارض مع مصالحها السياسية والاستراتيجية (عدم القبول بالنتيجة التي أفضت إليها الانتخابات في الأراضي الفلسطينية في 2006 والتي فازت بها حماس، القبول بالانقلاب العسكري في مصر، دعم أنظمة أخرى غير ديمقراطية في المنطقة، تسليح الفصائل الكردية المناهضة لتركيا...). ورغم عدم نجاح سياسة داوود أغلو إزاء العالم العربي بسبب طموحها المبالغ فيه، إلا أنّها أسست لرؤية مستقلة لما عسى أن تكون عليه مصلحة تركيا في محيطها من منطلق أنّ رياح التغيير في عالم المستقبل ستهب من الشرق وأنّ تركيا دولة صاعدة في منطقتها ووجب احترامها.

2 - انتماء تركيا إلى الغرب بما يمثله من انضمام إلى الحلف الأطلسي في 1952 ومجلس أوروبا في 1949 ومنظمة التعاون والتنمية في أوروبا في 1960 واعتماد منظومة الحقوق والحريات الغربية وإلغاء الإسلام كدين للدولة وإحداث ثورة ثقافية موالية للغرب ومناهضة للتقاليد التركية، كلّ ذلك لم يؤهل تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبي. وقد اختزل أردوغان هذا الوضع خلال زيارة لفرنسا عندما خاطب الرئيس Macron قائلاً: «تركيا تقف أمام باب الاتحاد الأوروبي منذ ثمانينات القرن الماضي» فردّ الرئيس الفرنسي

بالقول: «نقترح على تركيا الدخول في شراكة متقدّمة مع الاتحاد الأوروبي» ممّا يعني أنّ تركيا أصبحت غير مؤهلة للعضوية.

3 - أدت الخلافات بين تركيا والدول الغربية بخصوص التطوّرات على الساحة التركية وتفاعلات الأزمة السورية وموضوع الأكراد والتحوّل في السياسة الخارجية التركية إلى ما يشبه السّجال السياسي الذي أضرب بالعلاقات التقليدية بين الجانبين. على سبيل المثال: أرادت تركيا القضاء على معازل الانفصاليين الأكراد في عفرين وتلّ أبيض وراس العين والقامشلي وغيرها من المواقع الحدودية الممتدّة حيث توجد قواعد أمريكية تحتمي بها الفصائل الكردية المتحالفة مع واشنطن. وقد شاهدنا التوتّر في العلاقات التركية الأمريكية من جرّاء حملة «غصن الزيتون» في عفرين ودعوة قوّات حماية الشعب الكردية للانسحاب من منبج وتهديد أنقرة بالتوغّل العسكري في المنطقة إلى حدود جبل سنجار بالعراق لطرد المسلّحين الأكراد. وقد أكدّ رئيس الوزراء التركي آنذاك - بن علي يلدرم - الموقف التركي من هذا الوضع بالقول: «لن تسمح تركيا بإنشاء كيان إرهابي على حدودها» وأضاف: «من المحيّر وغير المقبول أن يعتمد بلد يُفترض أن يحمي حدود الحلف الأطلسي إلى تقديم الدّعم السافر لكيانات مسلّحة تستهدف حدودنا».

4 - نلاحظ في المقابل مزيداً من التّلاقح بين تركيا من جانب وروسيا وإيران من جانب آخر يمكن حصره في العناصر التالية:

• لا يخضع التعاون بين الثلاثي التركي الروسي الإيراني إلى منظومة قيم أو إملات أو شروط مسبقة وهناك إقرار بضرورة احترام مواقف كلّ الأطراف.

• هناك اعتراف ضمني بأنّ الدول المعنية هي قوى إقليمية لها مصالح سياسية واستراتيجية ومن حقها المساهمة في صياغة النّظام الإقليمي الجديد.

• توجّس هذه البلدان من الأقليات العرقية والمذهبية التي تشكّل تهديداً مباشراً أو غير

مباشر لوحدها الترابية. ويعدّ موضوع الأكراد عاملاً أساسياً في التفاهات بين تركيا وإيران خاصّة في حين تخشى روسيا من توظيف الجهاديين لضرب الأمن والاستقرار فيها.

• الاعتقاد بأنّ نهاية القطبية الأحادية أصبحت واقعا وأنّ قوى عديدة في العالم تطمح إلى لعب دور في إرساء نظام عالمي جديد قوامه التعددية. ومن ضمن هذه القوى روسيا وتركيا وإيران التي أصبحت تنافس الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط سواء بعودتها القوية إلى المتوسط (روسيا) أو بالسعي إلى امتلاك القوة النووية (إيران) أو بإنشاء منطقة نفوذ في الجوار (تركيا، إيران) أو بالدخول في تحالفات وتجمّعات إقليمية كبرى كمنظمة شنغاي ومجموعة البريكس (روسيا).

• اعتقاد الثلاثي الروسي الإيراني التركي أنّ الوقت قد حان لتفنيذ مقولة أنّ الولايات المتحدة (والغرب عامة) هي من يصنع السّلام ويعلم الحرب في الشرق الأوسط وهو ما يتجلّى في منابر الحوار والتفاوض الموازية في الأزمة السورية التي تشرف عليها روسيا مع تركيا وإيران ((استانة، صوتشي).

• بروز روسيا وتركيا وإيران على الساحة كقوى إقليمية وازنة أدّى إلى تفاهات بينها لصيانة المصالح وتقاسم النفوذ إلا أنّ آثار صراعات سياسية وإيديولوجية ومذهبية مع دول أخرى في المنطقة، وهناك اعتقاد بأنّ التّقارب التركي الإيراني يعدّ ردّة فعل على سياسة وليّ العهد السعودي المدعومة من قبل الولايات المتحدة والتي تندرج في إطار محور جديد يضمّ المملكة العربية السعودية ومصر ودولة الإمارات العربية. هذا المحور لا يلتقي مع مصالح تركيا التي ندّدت بالإطاحة بحليفها الإسلامي الرئيس المصري محمد مرسي ورأت فيها استهدافاً لنفوذها في المنطقة.

كذلك شكّل التحوّل في موقف واشنطن من الخطّ الإسلامي الذي تعتمده القيادة التركية عاملاً مساعداً حيث لم تعد الحكومات

الأمريكية ترى في تركيا نظاما إسلاميًا معتدلا وباتت تعول على المملكة العربية السعودية للقيام بهذا الدور في إطار النظرة السياسية «المجددة» لولي العهد محمد بن سلمان. وبما أن الغمد لا يتسع لسيفين كما يقال، هناك صراع بين المملكة وتركيا على الريادة في المنطقة من ناحية حماية المسلمين السنة والدفاع عن مصالحهم وترى كل منهما أنها تمتلك المقومات التي تسمح بتحقيق ذلك.

• وضع القوة الاقليمية الذي يمتاز به كل من روسيا وتركيا وإيران بعد أن أمسكت بخيوط اللعبة في سوريا أدى بطبيعته إلى تمدد هذه القوى واعتمادها لسياسة الاستقطاب وإنشاء المحاور ويتجلى ذلك في الصراع على النفوذ في المنطقة بين تركيا والمملكة العربية السعودية على سبيل المثال حيث سعى البلدان إلى تعزيز جانبيهما بإبرام توافقات جديدة مع أطراف مختلفة بغرض التوقيع الاستراتيجي وانتقلا من وضع الحليف الداعم للمعارضة السورية إلى وضع الخصم المنافس على الريادة والنفوذ في الشرق الأوسط. ولنا في تطورات الأزمة بين قطر والمملكة السعودية مثال على سياسة الاستقطاب والمحاور حيث اصطفّت تركيا بسرعة إلى جانب قطر وأرسلت قوة إضافية تعزز الحضور العسكري التركي في الإمارة.

مآخذ الغرب على السياسة التركية

هذا التحول في السياسة الخارجية التركية وإن لقي استحسانا وقبولاً لدى روسيا وإيران رغم المعوقات الايديولوجية والمذهبية فقد أثار حفيظة الغرب وبدأ يثير الشكوك حول انتماء تركيا الفعلي إلى عديد المنظمات والهيئات الغربية مثل الحلف الأطلسي والمجلس الأوروبي فضلا عن مواصلة مفاوضات العضوية في الاتحاد الأوروبي معها والتي باتت مجمدة بفعل التوتر المستمر في العلاقات بين الجانبين، فهل سنشهد في المستقبل القريب خروج تركيا من الحلف الأطلسي الذي انظمت إليه في 1952 في خضم الحرب الكورية التي شاركت فيها إلى جانب الولايات المتحدة؟ وهل ستتمكن الأصوات المنادية بطرد هذا البلد من المنظمة من التأثير على الموقف الأمريكي المتدرد؟

عندما نستحضر القرارات السياسية التي استهجنتها الغرب في السنوات القليلة الماضية ومآخذ تركيا على حلفائها الغربيين ندرك مدى حساسية الموقف بالنسبة إلى الطرفين.

دون الرجوع إلى رفض البرلمان التركي السماح للقوات الأمريكية بالعبور لمهاجمة العراق خلال حرب 2003 يمكن ذكر التعاون فيما يشبه التحالف الظرفي بين تركيا وروسيا وإيران في إطار المسارين المستقلين «أستانا» و«سوتشي» وكذلك اتهام القيادة التركية للولايات المتحدة الأمريكية بدعم الإرهاب (في إشارة إلى مساندة واشنطن سياسياً ومادياً لوحدة حماية الشعب الكردية المتواجدة بشمال سوريا).

هذا إلى جانب تطور آخر خطير يتمثل في اقتناء تركيا لأحدث منظومات الدفاع الجوي الروسي (S-400) وهي بادرة غير مسبوقة لعضو في الحلف الأطلسي قد تكون لها تداعيات خطيرة على الأنظمة الدفاعية الجوية للحلف حيث يمكن للخبراء الروس الذين سيدربون الطواقم التركية على استعمال المنظومة الجديدة تسريب أسرار عسكرية تخص أسلحة الحلف وخاصة منها الطائرة الحربية الأمريكية الجديدة F35 التي ساهمت تركيا في تصنيعها. مع العلم أن أعضاء في الاتحاد الأوروبي مثل بلغاريا وسلوفاكيا لازالوا يمتلكون المنظومة الصاروخية S-300 التي ورثوها عن ماضيهم الشيوعي.

كما تعيب واشنطن على تركيا عدم التزامها بالعقوبات ضد إيران في إطار الملف النووي الإيراني وتتهمها بضرب التوازنات في شرق المتوسط بإعلان مسألة التنقيب عن النفط والغاز في المنطقة دون وجه حق هدفاً استراتيجياً يخول لها إبرام اتفاقات وتفاهات مشبوهة.

ومن ضمن المآخذ الأخرى على تركيا اتخاذ مواقف عدائية ضد شركاء الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة من ضمنهم مصر والإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية وعدم الانصياع لمطالب الإدارة الأمريكية الداعية إلى تطبيع العلاقات مع إسرائيل وتوجيه الانتقادات إلى سياسة الرئيس الأمريكي إزاء الملف الفلسطيني....

هذا التوتر في العلاقات مع الحليف الأمريكي يقابله وضع مماثل في العلاقات مع الاتحاد

الأوروبي الذي استهجن بانتظام الانفلات السلطوي في تركيا وما أدى إليه من انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان خاصة بعد عملية الانقلاب الفاشلة في 2016. هذا السلوك الذي تراه المجموعة الأوروبية منافياً لقاعدة الديمقراطية يفاقم الشكوك إزاء أهلية تركيا لعضوية الاتحاد.

وقد كشفت تطورات الملف السوري عن مواقف سياسية تركية عديدة مناهضة للمصالح الأوروبية والغربية عموماً من ضمنها موقف المتفجع على ممارسات التنظيم الإرهابي داعش في المنطقة إلى حين تدخل القوات العسكرية الروسية وانطلاق التحالف بين واشنطن والقوى الديمقراطية السورية، وتسهيل عبور الجهاديين الأوربيين إلى سوريا عبر الأراضي التركية.

ويعيب الاتحاد الأوروبي على تركيا خاصة اجتياحها لشمال سوريا لطرد الأكراد حلفاء الغرب في الحرب ضد داعش، وإبترازها له عبر السماح لأفواج اللاجئين السوريين بالعبور إلى اليونان خلافاً لما ينص عليه الاتفاق المبرم بين الجانبين في 2015 وترى القيادات الأوروبية أن تهديدات أنقرة المتكررة باتخاذ إجراءات مماثلة ضد الاتحاد الأوروبي كلما تفاقم ضغط اللاجئين على أراضيها لا تليق بعضو في الحلف الأطلسي مرشح للانضمام إلى الاتحاد. إلا أن الأزمة الأخيرة التي جذت بمنطقة أدلب بين القوات السورية ووحدات الجيش التركي في أواخر فيفري وبداية شهر مارس الماضي شهدت نفس الإجراء الذي أفضى إلى توتر العلاقات من جديد بين تركيا واليونان بصفقتها بوابة الاتحاد الأوروبي بالنسبة إلى اللاجئين.

هذه العلاقات التي لم تعرف الاستقرار منذ الاجتياح التركي لشمال قبرص في 1974 شهدت تطوراً آخر في أواخر السنة الماضية عندما أبرم أردوغان مع السراج، نظيره في حكومة الوفاق الليبية، اتفاقية تعاون عسكري أغضبت اليونان التي رأت فيها انتهاكاً لحقوقها البحرية وطلبت دعم ومساندة الحلف الأطلسي.

ولتركيا بدورها مآخذ على حلفائها الغربيين. من ذلك اعتقادها بأنها لا تتلقى الدعم في محاربتها للإرهاب الذي يهدد وحدتها

وسلامة ترابها والمقصود هنا هو «وحدات حماية الشعب الكردية» المنضوية تحت راية «القوى الديمقراطية السورية» المتكوّنة أساساً من العناصر الكردية في سوريا وهي فصائل متحالفة مع الغرب ومعارضة للنظام السوري ولا ينطبق عليها مفهوم الإرهاب الذي تنعتها به تركيا. وكثيراً ما تحتد النقاشات بين الجانبين حول هذا الموضوع خلال الزيارات الرسمية أو بمناسبة اجتماعات الحلف الأطلسي وتجدر الإشارة هنا إلى زيارة أردوغان إلى واشنطن في نوفمبر الماضي حيث هاجم عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي سياسة الزعيم التركي بحضور الرئيس دونالد ترمب وانتقدوا بشدة ممارساته ضد الأكراد بحجة محاربة الإرهاب مشككين في نفس السبب في مساهمة بلاده في الحرب ضد تنظيم داعش الإرهابي.

كما تجدر الإشارة كذلك إلى زيارة أردوغان لفرنسا في جانفي 2018 وإعلان الرئيس ماكرون خلالها أن وضع حقوق الإنسان في تركيا لا يترك أي مجال للتقدم في مفاوضات انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي.

والملاحظ أن العلاقات الفرنسية التركية بدأت تتدهور منذ أن اعترفت حكومة الرئيس ساركوزي بإبادة الأرمن من قبل تركيا في 1915 وهي على المحك في عهد الرئيس الحالي بعد أن استقبل قيادات تنظيم «القوى الديمقراطية السورية»، ودعا مؤخرًا في لقاء مع الأمين العام للحلف الأطلسي إلى التفاوض حول دور هذه المنظمة ومدى الانسجام بين أعضائها بعد أن وصفها بأنها في حالة «موت دماغي» في إشارة إلى الدور التركي داخلها.

ومن ضمن المآخذ الأخرى التي ساهمت في تأزم الأوضاع مع الدول الغربية والولايات المتحدة على وجه الخصوص الموقف الغربي الفاتر إزاء المحاولة الانقلابية الفاشلة في تركيا الذي أثار شكوكاً في إمكانية ضلوع المصالح الأمريكية في هذا الحدث الخطير، ورفض واشنطن القاطع تسليم الداعية فتح الله كولن المقيم بالولايات المتحدة والمتهّم من قبل السلط التركية بتنظيم محاولة الانقلاب.

كما تشكو تركيا من الإجراءات العقابية التي فرضتها عليها الإدارة الأمريكية إثر صفقة المنظومة الصاروخية مع روسيا والتي ألغت بمقتضاها تزويد تركيا بالطائرة الحربية F-35. وقد يمتد أثر هذه الإجراءات إلى شركات المناولة التركية التي تصنع جزءاً من قطع غيار هذه الطائرة المتطورة جداً.

أهمية تركيا الاستراتيجية

هذه المآخذ التي نسوقها على سبيل المثال لا الحصر تبين مدى تباعد سياسات الأطراف المعنية في السنوات الأخيرة. فهل تبنى باقتراب موعد القطيعة بينها؟

إنّ الرهانات والمصالح الكبرى التي تجمع بين الأطراف والتبعات الخطيرة التي يمكن أن تنجر عن خروج تركيا من التحالف قد تجعل القطيعة المتوقعة أمراً يصعب تحقيقه.

فبقاء هذا البلد داخل الحلف الأطلسي يكتسي أهمية بالغة نظراً لحجمه الديمغرافي (82 مليون نسمة) وامتلاكه لثاني أكبر جيش في المنظمة بعد الولايات المتحدة الأمريكية. وتأتي تركيا في مرتبة متقدمة من ناحية الشراءات العسكرية الغربية أساساً التي بلغت 18,2 مليار دولار في 2017 ما يبوّؤها المركز الثالث في المنطقة بعد المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وقبل إيران وإسرائيل.

وتعدّ تركيا الضامن لحرية المرور في المضائق (البوسفور والدردنيل) بمقتضى معاهدة Montreux وهي وريثة الامبراطورية العثمانية ولها تأثير في آسيا الوسطى في ظرف يشهد فيه العالم صعوداً متواتراً للصين وروسيا. وهي تحتلّ كذلك موقعا جغرافياً استراتيجياً يسمح بمرور العتاد العسكري الأمريكي خاصة في حالات التدخل في آسيا الوسطى وقرب الحدود الجنوبية للفيدرالية الروسية وفي الشرق الأوسط. وقد أصبحت تركيا لبنة أساسية في الحلف بحكم إيوانها لمركز قيادة القوات البرية في ازмир (Landcom) ولمحطة رادار كبيرة بالقاعدة العسكرية Kurecik في ملاطيا جنوب شرق

QNB pour les entreprises, les meilleurs services adaptés à vos futurs projets.



يمكن تلخيصه في الملاحظات التالية:

حدّد منظر السياسة الخارجية التركية أحمد داوود أغلو جملة من الأهداف أساسها سياسة جوار خالية من المشاكل وتحويل الشرق الأوسط إلى منطقة نفوذ تركي تكون منطلقاً لتموقع بلاده في الاتحاد الأوروبي والغرب عامة وأخيراً الريادة في العالم الإسلامي السني وانتقال تركيا إلى مصاف القوى الإقليمية عبر مشروع العثمانية الجديدة. هذه الأهداف لم تتحقق في مجملها بل توترت العلاقات التركية العربية في الشرق الأوسط واحتدّ التنافس على الريادة في الفضاء السني وتقهقر الموقع التركي في أوروبا والغرب عموماً. ويعزى ذلك إلى انحياز تركيا إيديولوجياً ومذهبياً في الصراعات القائمة مما أدى إلى الاستقطاب وبروز محاور جديدة قسّمت المنطقة وزادت من حدة التوترات، ولا أدلّ على ذلك ممّا دونه Semih Idiz أحد معارضي السياسة الخارجية التركية في هذا التقييم:

«الخطاب العقائدي الموالي للاخوان المسلمين والمدافع عن السنة جعل تركيا تخسر مواقعها في الشرق الأوسط، المنطقة التي كانت تطمح أن تلعب فيها دوراً أساسياً وهو ما يذكر بفشل الأتراك المتواصل في صياغة علاقات حوار هادئة ومستقرة ويعكس عزلة تركيا في محيطها حيث لم تتوخّ الوسطية والاعتدال وجنحت إلى الانحياز عوض أن تلعب دور الوسيط وحتى محاولة المصالحة مع روسيا وإيران فإنّها تبدو بمثابة الإكراه».

رغم ذلك نلاحظ لدى القيادة التركية توجّها واضحاً في سياستها الخارجية نحو الاستقلالية وذلك بالانفتاح على القوى والمجموعات الصاعدة في الشرق والتعامل معها بحرية دون إحداث قطيعة مع الغرب حليفها التقليدي. وفي ذلك دلالة واضحة على أن تركيا أصبحت تمتلك مقومات سياسية وعسكرية واقتصادية تسمح لها بأن تكون ضمن كوكبة البلدان الصاعدة والقوى الإقليمية التي يُحسب لها حساب في مناطقها. ■

م.أ
رئيس «المنتدى الدبلوماسي»

الإقليمي على وجه الخصوص إضافة إلى المنافع الاقتصادية والتجارية التي تجنيها تركيا في علاقاتها الثنائية مع أعضاء الحلف.

لذلك وجب إدراج التوتّر في العلاقات بين تركيا من جانب والولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية من جانب آخر في إطار الخلافات الظرفية التي لا تمس الجوهر الاستراتيجي للعلاقة بين هذه البلدان. فالاعتراف بإبادة الأرمن وعدم إدراج وحدات حماية الشعب الكردية في لائحة الإرهاب وتسليط عقوبات اقتصادية على تركيا في علاقة بصفقة المنظومة الصاروخية الروسية والتهديد بطردها من الحلف الأطلسي والتجميد الفعلي لمفاوضات العضوية في الاتحاد الأوروبي معها وغيرها من المواقف الغربية المناوئة لا تعدو أن تكون سوى وسائل ضغط على القيادة التركية لمنعها من تحقيق استقلالية قرارها والظهور بمظهر القوة الإقليمية الفاعلة.

كذلك الأمر بالنسبة إلى تركيا التي أجرت تقارباً ملحوظاً مع روسيا وإيران توجته بصفقة المنظومة الصاروخية S-400 التي يعتقد البعض أنّها تعزّز عن خيبة أمل أردوغان في الشراكة مع الغرب. وقد هدّدت تركيا في نفس السياق بغلق قاعدتين عسكريتين تستعملهما الولايات المتحدة كردّة فعل على الإجراءات العقابية ضدها.

هذه المناورات قد تفضي في النهاية إلى تدارك الأمر وترميم العلاقة بين الجانبين.

وتأمل القيادة التركية التي انتهجت في السنوات الأخيرة سياسات جريئة تصل إلى حدّ التهور لكنّها تبقى محسوبة، أن تحسّن موقعها في المعسكر الغربي ولن تحجم عن اللجوء إلى الابتزاز إذا لزم الأمر.

إخفاقات

ما نستنتجه من تطورات السياسة الخارجية التركية تحت حكم حزب العدالة والتنمية

تركيا التي انطلق تشغيلها في 2010 من قبل الحلف لرصد الصواريخ الباليستية المعادية. كما تأتي تركيا بالقرب من مدينة «أضنة» في جنوب البلاد قاعدة «Incirlik» الجوية التي استعملتها القوات الأمريكية الحليفة في طلعاتها لضرب تنظيم داعش والتي تحتفظ فيها الولايات المتحدة الأمريكية بعشرات الرؤوس النوية تحت الحراسة المشدّدة.

إضافة إلى ذلك شاركت تركيا في عديد المهمات التي قام بها الحلف في منطقة البلقان وأفغانستان وعرض الساحل الصومالي وساهمت قواتها البحرية في عديد العمليات الدولية تحت راية الأمم المتحدة. ولتركيا أهمية كبرى من ناحية تواجدتها بجوار غير مستقرّ وهي بمثابة المنطقة العازلة التي تفصل أوروبا عن هذا الجوار ويمكن أن تلعب دوراً محورياً في صورة ظهور تهديدات من قبل روسيا وقوى إقليمية أخرى صاعدة.

ويعتقد الكثيرون أنّ الحلف لن يستغني بسهولة عن الخدمات التي تقدّمها المخابرات التركية (M.I.T) في مجال مكافحة الإرهاب خاصة في ظلّ ما شاع حول وجود تواصل بينها وبين مجموعات تصنّف بالإرهابية.

مزايا الوجود التركي داخل الحلف تقابلها امتيازات تحصل عليها تركيا بحكم عضويتها فيه وأولها الحماية ضدّ أيّ عدوان طبقاً لما ينصّ عليه ميثاق المنظمة. ويُعدّ ذلك ضماناً أساسية في منطقة مضطربة تشهد صراعات عنيفة بين قوى مختلفة تسعى إلى التموقع على الصعيد الإقليمي والدولي. وللتذكير استنجد أردوغان بالحلف إثر المعارك التي جدّت في الأسابيع الماضية بين القوات السورية المدعومة من روسيا والجيش التركي.

وتستفيد تركيا كذلك من رصيد الحلف في مجال تخطيط وإدارة العمليات ويحصل ضباطها على مهام ومراكز عالية في قيادة الحلف. كما تستفيد تركيا من تبادل المعلومات بين المصالح الاستخباراتية المتعلقة بمكافحة الإرهاب وتطورات الأوضاع في محيطها

علي هرب» في الصفحة 47، فيما تقوم التعليقات على تصرفات الساردة وحضورها بوظيفة ثانية داخلية، إذ تتحكم بواسطتها الكاتبة في المسافة الفاصلة بين الساردة والشخصيات الأخرى بوصفها صوتاً مستقلاً بذاته «تعرف الساردة جيداً ما يفعلها سيف وإخوته في خلوتهم، لا ترغب في الدخول عليهم الآن ص 17»، ولا يتوقف حضور الساردة بصفتها شخصاً لا صوتاً على الهوامش فحسب، بل نجدها في المتن حيث توهمنا الكاتبة بأن كل الشخصيات أصبحت واعية بحضورها في حياتها وأنها تتحرك تحت أنظارها وتسعى إلى الانفلات عنها: «الساردة ليست هنا، في غيابها وجد سيف فرصة التحرر كلياً من ضغوط الواقع رفقة إخوته في الإسلام... غابت الساردة فوجدت ليلى الفرصة متاحة للتحرر من حججها الواهية» ص 70، كما تحاول الكاتبة إيهامنا بأن الساردة تخوض مع الشخصيات صراع وجود فقدت فيه السيطرة عليهم والقدرة على التحكم في مصائرهم مخرجة إياهم من دائرة الحبر والورق إلى الواقع، تقول نور: «عندما هممت بدخول غرفتي التفت جهة الباب ولمحت الساردة منزوعة قلقة تلوح لي بيدها لأدخل الغرفة. مسكينة هذه الساردة فعلاً ألا تفهم أن كل شيء فاتها!» ص 274

ويمثل المشهد الثلاثون ذروة تداخل مستويات السرد وتشابك عوالمه، حيث تتحدث فيه الراوية بضمير الأنا لتعبر عن صدمة الكاتبة عندما قرّر سيف إجراء عملية ختان لابنته نور. يذكرنا هذا المشهد بما فعله النوري بوزيد في فيلم «آخر فيلم» حين أوهم المتفرجين بأنه أوقف التصوير ودخل في حوار مع الممثل لطفي العبدلي الذي يقوم بدور البطل «بهتة» والذي يحتج على المسار المرسوم للشخصية ويتمرد على المخرج. وينقلنا هذا المشهد إلى مستوى أعلى من كل مستويات السرد التي فحصناها آنفاً، مستوى فوق يدير دوراً رمزياً بشكل واقعي في بيت الكاتبة نفسها، وتعكس هذه الحوارية أزمة ثقافية واجتماعية حقيقية تتجاوز حدود الرواية لتشمل المجتمع بأسره. ففي حين ترى الراوية أن الرواية ليست خيالية، بل واقع حقيقي لأننا نلتقي أشباه سيف يومياً في الشارع، يرى زوجها أن من يفكر بتلك الطريقة حرّ. وعن إمكانية أن يصبح ختان البنات شائعاً في تونس المشهورة بنصرة المرأة ومجلة الأحوال الشخصية تصطمم الرواية بقول زوجها: «نعم، هو حرّ، وتلك طريقتة في الحفاظ على عفة ابنته وصون شرف العائلة» ص 129. هذا المشهد الذي يبدأ بسؤال عن الجدوى من الكتابة ينتهي بنوبة بكاء عنيفة في الشرفة!

الدّوات المعطوبة : سيف وليلى ونور

ولدت نور العام 2006. في لحظة اللقاح صرخ الحيوان المنوي: «كم يبدو مثيراً ورائعاً أن أحظى بفرصة حياة لن يسرقها مني

يقتفي الخطّ الزمنيّ في الرواية المسارّ الذي تطوّر عبره تمرّد الفكر السلفي على المجتمع، فيبدأ من «أحداث سليمان»، ثمّ يعبر أحداثاً أخرى وقعت في مرحلة «الترويكا» من أهمّها استقبال الدعاة، وما نجم عنه من أفكار غريبة عن المجتمع التونسي مثل فكرة «ختان البنات». ويستمدّ هذا التاريخ العامّ أهميته من تأثيره المباشر في الصراع الذي تعيشه الذوات، وهي شخصيات ثلاث تمثل مع الساردة أربعة أصوات تُولف رواية بوليفونية، وميخائيل باختين يرى أنّ بوليفونية الرواية لا تتحقّق إلا بمبدأ جوهريّ هو التعدّد الصوتي.

عن الكاتبة والرّواية والسّاردة

تميّز هنا لضرورة منهجية بين ثلاثة أصوات هي صوت الكاتبة وصوت الراوية وصوت الساردة. فالتقنية الأساسية التي اعتمدها فاطمة بن محمود في خلق التعدّد الصوتي يمكن تسميتها بتقنية «الانقسام»، حيث نجد لكل ذات في الرواية أكثر من صوت. وفي النصّ الإطار تظهر شخصية الساردة وهي تنتظر امرأة مجهولة لتحصل منها على قصتها، ومعاناة هذه المرأة في المنطلق لا تتجاوز حدود رغبتها في الخروج من الشعر إلى الرواية. وتبدو المسافة بين الساردة والكاتبة منذ المستوى الأوّل هشّة حدّ التداخل، ففاطمة بن محمود أستاذة الفلسفة في المعاهد الثانوية شاعرة وقصاصة قبل أن تصبح روائية، وهذه المرأة الموجودة في المقهى تشبهها كثيراً: «لا أريد أن أتأخّر أكثر في كتابة روايتي الأولى»، هكذا تقول الساردة وهي تغادر المقهى مسرعة لتدخل بنا عالم «سيف وليلى ونور» الذي يمثّل المستوى الثاني من مستويات السرد المتعدّد.

وجود الرواية بين يدي القارئ يعني إذن أنّ الساردة حصلت على غايتها، وسنعرف كيف تحقّق ذلك في المشهد الأخير حين تكشف النقاب عن الأدوات التي استخدمتها في الكتابة، ونعرف المرأة التي التقتها في المقهى وتسلّمت منها القصة. لكن قبل ذلك سيعيش القارئ تفاصيل حياة ثلاث شخصيات تُولف عائلة واحدة، لكل فرد منها عالمه الخاصّ، فينقسم المتن الروائي في المستوى الثاني بدوره إلى مستويين: مستوى تتولّى فيه الراوية دور «الراوي العليم»، فتتسلّل إلى عالم الشخصيات المغلق والأكثر حميميّة لتتقل ما يجد فيه من أحداث، ومستوى ثان تتحدّث فيه كلّ شخصية بصوتها الخاصّ في مونولوج يكشف أعماق خباياها. لكن كيف تميّز بين صوت الراوية وصوت الساردة؟

للإجابة عن هذا السؤال ننتبه أولاً إلى الهوامش، فالتعليقات الواردة فيها لها وظيفة أولى لا تتجاوز إرشاد القارئ وتعريفه ببعض المعطيات من خارج النصّ، كالتعريف بجماعة سليمان في هامش الصفحة 34، أو تفسير عبارة «بن علي هرب... بن



التعدّد الصوتي في رواية الملائكة لا تطير

في روايتها «الملائكة لا تطير» كتبت فاطمة بن محمود عن الراهن التونسي والتحوّلات المجتمعية والفكرية التي أحدثتها الثورة وأسهم فيها تطوّر الفكر السلفي والعنف الديني. فهي تسرد حكاية أبطالها ينتمون إلى الواقع ويمثلونه بكل تعقيداته وتناقضاته. لكن هؤلاء الأشخاص العاديين الذين تسللت الكاتبة إلى عالمهم المغلق وتحوّلت في ذاكرتهم وأحلامهم وابتكرت لهم مسارات في الحياة وقادتهم إلى نهاياتهم، شخصيات روائية من صنع كاتبة تطرّق عالم الرواية بتحدّ. وهذا ما تلخّ على التذكير به عبر علامات وقرائن ترافق القارئ وتجعله يقرأ الرواية دون أن يغيب عن ذهنه لحظة أنها عمل أدبي قائم على السرد والخيال.

• بقلم د. منجي الزيدي



Écoutez-nous sur :

NABEUL
HAMMAMET
100.0
FM

CAP BON
GRAND TUNIS
104.1
FM



FM MOBILE WEB PODCASTS
@RadioMedTunisie RadioMedTN Radio Med

Téléchargez notre application maintenant
Sur Google Play !!



Cité El Wafa Nabeul Jadida 8000 Nabeul-Tunisie www.radiomedtunisie.com

(+216) 72 32 85 00 (+216) 72 32 85 60 marketing@radiomedtunisie.com

أحد!» ص15، بعد خمس سنوات من السّجن بتهمة الانتماء إلى مجموعة سليمان ينتهي المطاف بوالدها سيف حراً طليقا: «بعد هروب بن علي لا نعرف من فتح الأبواب» ص 49. في العام 2012 يرغم سيف زوجته ليلى على قبول الأمر الواقع ويخضعان ابنتهما إلى عملية ختان. وتغطي الرواية إثر ذلك جانبا مهماً من حياة نور حتّى بلوغها التاسعة عشرة من العمر وتصور هذه المفارقة العجيبة: كيف سرقت الحياة من نور التي اعتقدت منذ نشأتها أنّ حياتها لن يسرقها منها أحد!

في خضمّ هذه الازدواجية تقدّم فاطمة بن محمود قراءة سيكولوجية فرويدية للظاهرة الإرهابية، فسيّف أداة طيّعة وعمياء في يد الجماعة، وفي كلّ المشاهد التي قادته فيها الساردة إلى حوار عن العقيدة يخفق في الحفاظ على ثباته وتماسكه: «تساءلت مثله في سري، وقد قادني بسهولة إلى بحيرة من قلق: نعم، كيف يمنح الله عباده حياة القهر ثمّ يطالبهم بشكره؟» ص44، ولا يعدو الانتماء بالنسبة إليه أن يكون مظهراً يستر به ذاته الممزّقة: «يروقه جداً أن يجد نفسه مختلفاً عن بقية الناس بقلنسوته البيضاء وقميصه الأفغاني ولحيته المطلقة التي تتأرجح فيها الملائكة» ص59 لكنّ ذلك لن يمنعه في النهاية من اختيار طريق الموت حين أعلمه الشيخ عبد الحميد أنّهم يعدّون خليةً لتنفيذ في العاصمة تفجيراً في أحد الفضاءات التجارية الكبرى فقال: «هذه المرة أضيفوني إلى الخلية، سأكون معكم!» ص286

في مقاربتة علاقة الرواية البوليفونية بالرواية المونولوجية يقول الناقد المغربي محمد بوعزة وهو يشرح موقف باختمين من دور الكاتب «البوليفونية الروائية ماذا تعني في النهاية؟ إنها تعني تنظيم أشكال الوعي المتعددة في داخل الرواية، وتشخيصها بشكل متساو لا يؤدي إلى هيمنة وعي واحد»، ونعتقد أنّ فاطمة بن محمود قد استطاعت في روايتها «الملائكة لا تطير» أن تنجز عملاً روائياً لا يهيمن فيه صوت على آخر، حتّى إنك إن أحببت ستتعاطف مع سيف وتفهّم غلبه عقده النفسية الدفينة على قراراته الشخصية وأسلوب حياته، وهو الخيار الذي قد يختلف فيه كثيرون مع الكاتبة، فهل كان من الضروري البحث من خارج الفكر الديني عن ذرائع نفسية وسوسولوجية تفسّر التطرف وهل كان ينبغي أن يكون سيف منتهاكاً ليفرض على ابنته نور تجربة الانتهاك وإن في إطار يبدو له شرعياً ومن أجل الفضيلة والعفة والشرف؟

لكننا سنلاحظ حتماً أنّ الهاجس الأدبي الذاتي للكاتبة ظلّ متوهّجاً ومتعالياً لا سيما أنّها تعتبر الكتابة تمجيداً للحياة، حيث تقول في النهاية: عزائي أنّ الشعر إن كان صعباً فالرواية ليست سهلة أيضاً لذلك أعترف أنّ الكتابة السردية مغامرة حقيقية وعمل صعب. ■

ع.ب.ع

وإذا نظرنا إلى خطّ الرواية الزمني في علاقته بالتاريخ العامّ ننتبه إلى أنّ الكاتبة قد انفصلت عن الواقع لتدخل زماناً لم يحدث بعد. وكلّ ما فيه خيال وتوقع! هكذا تنقسم الرواية إلى قسمين: قسم واقعي ينشد إلى التاريخ بقرائن موثقة مثل حادثة إنزال العلم من كلية منوبة أو محاضرة الداعية وجدي غنيم في ملعب المنزه، وقسم استشرافي تتخيّل فيه الرواية لكلّ شخصية من شخصيات الرواية مصيراً يناسبه ويشبهه.

هذه الشخصيات الثلاث تتحرّك داخل إطار عائلي، لكنّ العقل السلفي الذي يمثله سيف يفرض عليها قانون الصمت الذي سينتهي بها إلى التمرد والانفجار. فلا معنى لهذه الذوات مجتمعة، لكن يُنظر إلى كلّ واحدة منها بشكل مختلف، وهكذا ترسم الرواية ثلاث حيوات منفصلة، ووفق استراتيجية التعدّد الصوتي تتراجع الساردة في عدّة مشاهد لتترك لكلّ شخصية أن تعبر عن نفسها في مونولوج، فيتسلّل القارئ إلى الفضاء الخاصّ بها، ويكتشف الوجه الآخر. لكلّ شخصية وجهان وصوتان متضادان، يعكس ذلك حالة التمزّق التي يعيشها المجتمع بين الديني والديني، بين الحياة والآخرة، بين المقدّس والمدنّس، بين الشرف والخطيئة. وهو ذات التمزّق الذي نلمسه في المواجهة بين السلفية والعلمانية: «كان هو وبعض شباب الإسلام يستعدّون لشنّ هجوم على أحد الفنادق التي تبيع الخمر وتمارس فيها الرذيلة في إحدى المناطق السياحية في سوسة لكنّ الطاغوت باغتهم واعتقلهم» ص101

هذا التمزّق ينقله الأفراد إلى المجتمع وإذا نظرنا إلى سيف نموذجاً وجدنا أنّ الانتماء إلى الفكر الديني السلفي هو ردّ فعل على إحباط نفسي ذاتي وقهر اجتماعي بسبب انتهاك للجسد وخيبة عاطفية وفقّر مادي، أمّا ليلى فتمتلك خلف النقاب جسداً يتطلّع إلى الحرية ورغبة دفينّة في الاعتناق، تعبر عنها في خلوتها حين تقف أمام المرأة وترتدي ما تحبّ من الثياب وترقص: «يحدث أحياناً أن أرى نفسي أرتدي سروالاً ضيقاً وقميصاً ينحسر على صدري فينتأ نهداي في تمرد وتلاعب النسائم بخصلات شعري في الهواء»، أمّا نور فتبدأ مسيرتها نحو الحرية من اتجاه معاكس لأنّ خمارها مفروض عليها كما



في كل الأزمنة، دون أن ننسى بالطبع التحفة السينمائية للعبقري «ستانلي كوبريك» «2001: ملحمة الفضاء» (L'Odysée de l'espace: 2001, 1968)، الخ.

كل هذه الافلام، وغيرها، حاولت استقراء الأحداث المستقبلية والبحث في فلسفة تطوّر الإنسان، من خلال تقديم تجارب فنية ترسم تفاصيل دقيقة تنقل فيها المتفرج إلى المستقبل، فتذهله وتثير فضوله. غير أنّ جزءاً من هذه الافلام مثل نوعاً من «هجماء للمستقبل» (حسب تعبير لناقد بيتر نيكولز)، حيث أنّها قدّمت رؤية تشاؤمية وسلبية للحياة البشرية واستشرفت مستقبلاً مظلماً وكارثياً للإنسانية.

هل هي صدفة؟

ولعلّ ما نعيش على وقعه اليوم، يعيد إلى أذهاننا العديد من الأعمال السينمائية التي طرحت قضية تفشّي وباء قاتل ساهم في تهديد الجنس البشري بالانقراض بأكمله في ظلّ العجز عن العثور على علاج يوقف انتشاره. من بين أهمّ هذه الأفلام نجد فيلم «اندلاع» (Outbreak, 1995) للمخرج الألماني «ولفغانغ بيترسن»، والفيلم الكوري الجنوبي «إنفلونزا» (The flu, 2013) للمخرج «كيم سونغ سو»، الخ. أمّا الفيلم الحدث الذي نجح في العودة إلى قائمة الافلام الأكثر مشاهدة في العالم بعد مرور 9 سنوات على إنتاجه، هو فيلم «عدوى» (Contagion, 2011) للمخرج الأمريكي «ستيفن سودربرغ» والذي يعتبر واحداً من الإنتاجات السينمائية التي رسمت على نحو مثير للاستغراب والدهشة قصة

الخيال العلمي بين الأدب والسينما

يتمتّع الكُتّاب عمومًا بخيال خصب وخلق ورهبًا ترتقي هذه الموهبة لدى مؤلّفي الخيال العلمي إلى حدّ استشفاف ما وراء الظواهر واستبصار المستقبل واستشراؤه، لدرجة أنّه في بعض الأحيان تصدق تنبؤاتهم. من المبدعة «ماري شيلي» صانعة شخصية «فرانكنشتاين» (1818) ومن بعدها «جول فيرن» أحد رواد أدب الخيال العلمي وصاحب الرواية الشهيرة «عشرون ألف فرسخ تحت الماء» (Vingt mille lieues sous les mers 1870) بالإضافة إلى العبقرى «هربرت جورج ويلز» الذي ألف رائعة «آلة الزمن» (La Machine à explorer le temps 1895) ... شكّلت هذه الروايات وغيرها إرثاً سردياً وفكرياً لصنّاع سينما الخيال العلمي، حيث اقتبست واستلهمت في أعمال سينمائية عديدة، لاقت رواجاً شعبياً وترحيباً من النقاد.

وإذا كان لأدب الخيال العلمي أقطابه ونخبته، فإنّ السينما أيضاً لديها رواد ومبدعين في هذا المجال، سخروا مواهبهم من أجل الارتقاء بهذا الجنس السينمائي، على غرار الفرنسي «جورج ميلييس» الذي يعتبر أوّل من فتح الباب أمام هذا النوع من الأفلام وذلك من خلال فيلمه «رحلة إلى القمر» (Le Voyage dans la Lune, 1902) و«الرحلة المستحيلة» (Le voyage à travers l'impossible, 1904)، بالإضافة إلى المخرج الألماني «فريتز لانغ» صاحب فيلم «متروبوليس» (Métropolis, 1927) الذي يبقى أحد روائع أفلام الخيال العلمي

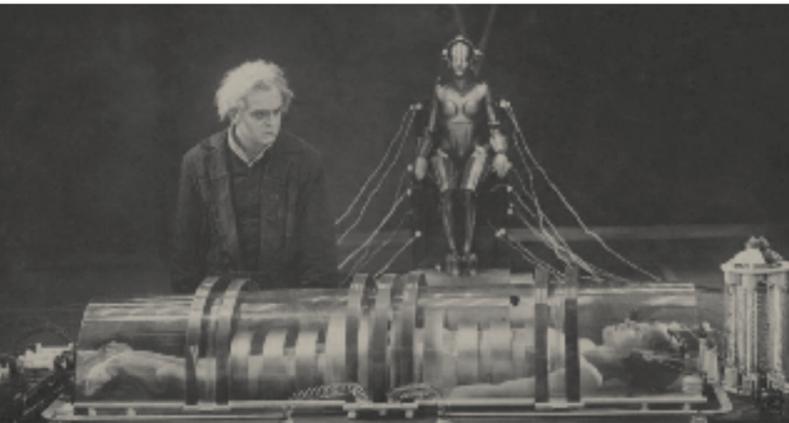


في تنبؤات سينما الخيال العلمي الكوروننا مثالا

عرفت السينما منذ بداياتها كيف تسافر بالمتفرج إلى عوالم فسيحة من الخيال اللامتناهي فحلقت في سماواته كما نشأت بلا قيود ولا حدود في محاولة لإيجاد جسر تواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل. ورغم أنّ دراسة الماضي ورصد الحاضر واستشراف المستقبل كانت حكرًا على العلماء والباحثين والمهتمّين فقط، إلا أنّ الفنون، خاصّة الأدب والسينما، سعت دائماً إلى أن تقدّم تخيلاً وتصوراً للحياة البشرية في زمن معيّن ومكان محدّد عن طريق شخصيات وأحداث مستوحاة من إدراك متحرّك ومتجدّد للواقع والحياة.



• بقلم د. ناظم الوسلاقي



FM

Jawhara

Diga
DIGADU LUNDI AU VENDREDI
DE 17H à 20H

جعفرور



CREATED BY © GIGAM 91288988

على مستوى طرق انتقال العدوى إضافة إلى أعراض المرض ذاته والتدابير الوقائية المتبعة. فهل هي نسخة طبق الأصل عن الفيلم في الواقع؟ أم هي محض الصدفة!

بين ثنائية الواقع والتمثيل

إذا كانت بعض أفلام الخيال العلمي تناولت ما نعيش على وقعه اليوم بدقائق تفاصيله، فإنها تعكس أيضاً ما عايشته الأجيال السابقة من أزمات، في حركة مدّ وجزر بين الماضي والمستقبل، ممّا يعني أنّ هذه الأفلام لم تتنبأ بأيّ شيء، بل أعادت صياغة الأحداث من مصادر تاريخية وعلمية ومن ثمّ مزجتها بمشاهد ومواقف درامية متخيّلة. وممّا لا شكّ فيه أنّ مؤلّفي الخيال العلمي يعتمدون في صياغة سيناريوهات هذا الجنس من الافلام على قراءة للمستقبل تنطلق من راهن الحياة اليومية التي نعيشها، بكل تفاصيلها وجزئياتها والمتغيرات التي تتحكّم فيها، ليتمكّنوا عن طريق إدراك متحرك متجاوز من استشراف المستقبل وما سيكون عليه من تطوّرات ومسارات في الحياة البشرية. ولكنهم يستأنسون أيضاً برأي العلماء المختصّين في «علم المستقبلات» (Futurologie)، مستندين في ذلك إلى منهج علمي دقيق وعلى بحوث ودراسات علمية موجودة، لم تنشر بعد أو لا تزال قيد الإنجاز، لتنتج هذه الافلام نموذج أولي تجريبي يهيئ الأذهان لقيامه. وحتى يتقبّل المشاهدون هذه الرؤية المستقبلية، يتطلّب من مؤلّف ومخرج العمل امتلاك مهارات ذهنية عالية وخيال فكري عميق قادر من خلاله على المزج بين الواقع والتمثيل، مُنطلقاً من تراث معرفي ومكتسبات علمية تتيح له الإبحار عبر آفاق الزمن، ممّا يمكنه من أن يحرك التاريخ ويطوّر الراهن ويتطلّع إلى المستقبل.

ولابدّ أن نشير هنا إلى أنّ استشراف المستقبل نهج لم يغيب يوماً عن سينما الخيال العلمي، حيث ساهمت هذه الأخيرة في مدّ جسور العلاقة بين الفنون والعلوم من أجل تعميق تجربة الإنسان الحياتية، ومنحه فرصة لاعادة النظر في عديد الخيارات الخاطئة واستخلاص العبر من التجارب السابقة قصد إسقاطها على الحاضر حتى يتمكن من كشف بعض ملامح المستقبل.

وبذلك، يمكن أن نجزم بأنّ هذا النوع من السينما يكرّس فكراً يتخطى الخيال المرتبط بالواقع، ويستبق الزمن حتى يكشف لنا، من خلال تجربة فنية مرئية أساسها الصورة، عن لقطات دقيقة وحاسمة، سواء أكانت تفاؤلية أم تشاؤمية، تنتظرنا في المستقبل.

ومن هنا نستنتج أنّ علاقة الواقع بالتمثيل هي علاقة تلازمية، تنسج من خلالها مخيّلة المبدع أفكاراً وتصوّرات لا يمكن أن يستلهمها إلا انطلاقاً من الحقيقة أو الواقع، لأنّ الإبداع الفني لا يأتي من فراغ أو من عدم. ■

ن.و.



انتشار فيروس قاتل وسريع الحركة حول العالم، ظهر لأول مرة في هونغ كونغ (الصين)، ينتقل من الخفافيش إلى الخنزير، ومن ثمّ إلى أحد الطهاة الذي يقتني الخنزير وينقل العدوى بدوره لمواطنة أمريكية، عن طريق المصافحة. وبالعودة إلى بلدها، تنقل هذه الأخيرة الفيروس إلى أسرتها وينتشر الوباء في جميع أنحاء العالم، ويصيب ملايين الأشخاص ويتسبّب في آلاف الوفيات.

سيناريو الفيلم يشبه إلى حدّ بعيد جدا، واقع ما يحدث الآن جرّاء تفشّي جائحة «كورونا». وما يثير الحيرة والاستغراب هو التطابق في كثير من التفاصيل التي تتعلّق بهذا الفيروس المستجدّ، خاصة

ولئن لم يتفق الباحثون إلى اليوم حول تحديد طبيعة المرض الذي اجتاحت المدينة الإغريقية ومصدره، فإن الشيء المؤكد أنه أصاب حوالي ثلثي سكان أثينا، ومات من جرائه عشرات الآلاف من أهلها، ولم يسلم منه حتى القائد بيريكليس نفسه الذي توفي بسببه.

ومن أغرب ما يروى عن كيفية تعامل بعض شخصيات أثينا الشهيرة مع هذا الآفة الكبرى، أن الفيلسوف سقراط الذي عاش هذا الوباء دون أن يصيبه، كان كثيرا ما يتجول بشوارع المدينة ويتواصل مع الناس في أسواقها المزدهمة، غير مكترث بخطر العدوى التي قد تلحقه من جراء هذا الاختلاط.

ومن أهم نتائج هذه الكارثة علاوة على آلاف الضحايا، الهلع الكبير الذي تملك أهالي أثينا وسكان المناطق المحيطة بها، والتجاء الآلاف من الرّيفيين إلى المدينة واكتظاظهم داخل أسوارها في ظروف سيئة، ساعدت بدورها على توسع رقعة الوباء. وقد تسبب خروج الوضع عن السيطرة في خلق أزمة اجتماعية واقتصادية حادة، استغلها خصوم بيريكليس من السياسيين، لانتقاد أدائه خلال هذه المحنة ولإضعاف شعبيته والحد من السلطات الواسعة التي كان يمارسها، مستندا إلى رصيد الثقة الذي كان يتمتع به حتى ذلك الوقت لدى مواطني المدينة.

طاعون قرطاج والحروب في صقلية

لم تسلم قرطاج البونية بدورها من داء الطاعون الذي تفشى فيها بعد أن جلبته جيوشها العائدة من ميادين القتال في صقلية بداية من سنة 379 ق م.

وقد وصف المؤرخ ديودور الصقلي الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، الوضع في المدينة بعد تفشي الوباء كما يلي: «وفي الوقت الذي كان فيه القرطاجيون يواصلون حملتهم العسكرية في صقلية.... ظهر الوباء بقرطاج، وانتشر بسرعة كبيرة بين سكانها متسببا في وفاة الكثيرين منهم....وأصبحت الدولة ذاتها مهددة بانهايار قوتها، ناهيك أن بعض الشعوب اللوبية وكذلك سكان جزيرة سردينيا انتهزوا ضعف الدولة للثورة ضدها ورفع السلاح في وجهها». ويواصل ديودور الصقلي هذا الوصف: «...وبسبب كل ذلك عمّت الفوضى بالمدينة وخرج الناس من ديارهم وكثرت الخصومات والمواجهات بينهم مخلفة الجرحى والقتلى.... ولم يتراجع انتشار الداء- والكلام للمؤرخ- إلا بعد أن قدم القرطاجيون القرابين إلى آلهتهم، فاستعادوا هدوءهم وشجاعتهم، وتمكنوا إثر ذلك من القضاء على انتفاضات اللوبيين وسكان سردينيا...»

وتجدر الإشارة إلى أن تكرر تفشي الأوبئة في جيوش قرطاج المحاربة في صقلية، كان له خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، دور رئيسي في حسم العديد من الحروب والمعارك التي كانت تخوضها ضد جيوش المدن الإغريقية، من أجل السيطرة على الجزيرة.

نكتفي ضمن هذا المجال المحدود، باستحضار تاريخي انتقائي لعدد من الأوبئة الكبرى التي واجهتها البشرية على مرّ تاريخها، لكننا سنركز الاهتمام على ما نتج عن هذه الجوائح من انعكاسات مباشرة أو غير مباشرة، ظرفية أو طويلة المدى على حياة الناس، وما حصل بسببها من تحولات عميقة في المسيرة التاريخية والحضارية للإنسانية.

طاعون أثينا في عصر سقراط

كان الوباء الذي تفشى بمدينة أثينا لمدة سبع سنوات تقريبا فيما بين سنتي 430 و426 ق م وعرف باسم « طاعون أثينا»، أول الأوبئة الكبرى التي تعرضت لها المصادر التاريخية القديمة بصفة ضافية، وذلك بفضل شهادات المؤرخ الإغريقي توسيديديس (395-460 ق م) الذي عاش هذا الوباء وأصيب به. ولما شفي منه رواه بكل دقائه للأجيال التي أتت بعده.

كانت أثينا -المدينة الدولة- عندما فاجأها الوباء وهي في ذروة قوتها السياسية وأوج ازدهارها الاقتصادي ومجدها الفكري والفني، تخوض تحت حكم قائدها وزعيمها الكبير بيريكليس، حرب البينوبوليز المضنية ضد غريمتها الأبدية إسبرطة.



كيف غيرت أوبئة كبرى مجرى التاريخ



• بقلم بوبكر بن فرج

الطاعون والجذري والكوليرا وحمى التيفويد والتيفوس والحصبية والانفلونزا الإسبانية وغيرها من الأمراض السارية مثلت منذ أقدم العصور مصدر قلق وذعر بالنسبة إلى البشرية جمعا. وهي لا تزال كذلك لا لكونها تشكل خطرا كبيرا على حياة الناس وسببا لإرباك حياتهم الفردية والجماعية فحسب، بل وأيضا، لأنها تسببت كلما تفشت على نطاق واسع، أو متى طالّت مدتها، في تحويل اتجاه مسارات تاريخية كاملة للدول والمجتمعات التي أصيبت بها. بصورة من الصعب توقعها.

في طورها الأول ما بين سنتي 1348 و 1350 في موت الآلاف من سكان العاصمة تونس. ثم تكرر انتشار في هذا الطاعون في البلاد بصفة متواترة طيلة عدة قرون لم تتراجع حدة موجاته إلا مع بداية القرن الثامن عشر الذي عرفت خلاله تونس انفراجا نسبيا من تسلط هذا الأوبئة.

وتجدر الإشارة إلى أن العلامة التونسي الكبير عبد الرحمان ابن خلدون (1332-1406) الذي عاش وهو في شبابه بدايات وباء الطاعون ، وفقد بسببه والديه عدد كبيرا من أفراد أسرته ومن أكبر أساتذته وأقربهم إلى نفسه ، تحدث في مقدمته بصفتها شاهدا ومفكرا عن هذا الكارثة بقوله: «.....ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة (يعني المائة الثامنة من الهجرة) من الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وفلّ من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن... وكأما نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فبادر بالإجابة....»

الأوبئة تقتحم القارة الأمريكية على خطى كريستوف كولومب

لم تكن لدى السكان الأصليين للقارة الأمريكية عند اكتشافها من قبل كريستوفر كولومبوس في سنة 1492 ميلادي واستعمارها من قبل الأوروبيين بعد ذلك، أية مناعة ذاتية أصلية تحميهم من عديد الأمراض السارية التي كانت مجهولة لديهم، حتى جلبها المستعمرون الأوروبيون معهم لهذه القارة. وفي غياب هذه المناعة، فتكت الأوبئة المستوردة- ولا سيما أمراض الجدري والحصبة والتيفوس- فيما بين 1492 و1600 ميلادي، بثلي السكان الأصليين لهذه القارة، إضافة إلى ما تسببت فيه من انهيار كامل لدول قوية ولحضارات كانت مزدهرة في هذه القارة قبل اكتشافها على غرار حضارات الأزتك والإنكا اللامعة الزاهرة.

وهكذا فقدت هذه الشعوب، طيلة قرون عديدة، كل قدرة على مقاومة المستعمرين الأسبان والبرتغاليين والإنكليز والهولنديين وغيرهم. وإزاء هذه الانتكاسة السكانية غير المسبوقة ، لم يبق للمستوطنين الجدد من خيار سوى إستجلاب عشرات الآلاف من الزنوج العبيد من القارة الإفريقية، قصد توفير يد عاملة كافية ورخيصة، تمكّنهم من استغلال ثروات العالم الجديد. فاستحالت الكارثة الواحدة بذلك، إلى كارثتين في قارتين مختلفتين. **ب.ب.ف**



المرض بواسطة المجانيق داخل أسوار المدينة المحاصرة. فانتشرت العدوى لدى سكان المدينة بسبب هذه «الحرب الجرثومية»، وهي الأولى في تاريخ البشرية.

ولحقت العدوى تجارا إيطاليين كانوا يقيمون بمينائها، نشروا بدورهم الوباء عند عودتهم إلى بلدانهم عبر كل موانئ المتوسط. فلم يسلم منه بلد دون آخر ولم تنج منه ضفة دون أخرى.

لم يتسبب هذا الطاعون في موت ثلث سكان القارة الأوروبية فحسب، بل وأدى كذلك إلى زعزعة الاستقرار السياسي والاجتماعي لعديد الدول، ولا سيما فرنسا وأنجلترا وكبريات المدن التجارية الإيطالية في ذلك الوقت، إذ هجر الناس الأرياف وانهارت الفلاحة بسبب نقص القوى العاملة، وارتفعت أسعار المواد الغذائية حتى انعدم الأمن وانتشرت الفوضى واتسع نطاق العصيان وعمليّات السطو والنهب.

ومن الانعكاسات البعيدة لهذا الوباء وأكثرها أهمية على الصعيد التاريخي والحضاري، بروز تيار فكري واسع في أوروبا، يدعو إلى الانعتاق من الهيمنة الدينية والسياسية التي كانت الكنيسة تحتكرها قبل حدوث هذا الوباء، وتعويض هذه الهيمنة بسلطة الدولة المدنية، التي عززت منذ ذلك الحين أدوارها في مجالات حفظ الأمن وتنظيم حياة المجتمع وتشريع القوانين والتكفل بتطبيقها. وقد كانت هذه المراجعات العميقة لدور الكنيسة في المجتمع، بمثابة الأرضية الفكرية والسياسية التي هيأت لنشأة النهضة الأوروبية خلال القرون الموالية.

الطاعون في تونس وحديث ابن خلدون عنه

لم تنج تونس بدورها من هذا الوباء الأسود الذي ما لبث أن عبر إليها بداية من سنة 1348 ميلادي عبر موانئها المفتوحة على البحر المتوسط. وسريعا ما تحول إلى كارثة بشرية عامة تسببت



تواصل تردّد هذا الوباء على الامبراطورية وما جاورها من البلدان طيلة أكثر من قرنين، متسببا على المدى الطويل في إضعاف دولة بيزنطة ووهن جيوشها وانكماش المناطق التي كانت تحت نفوذها. وهو تطور اعتبره الكثير من المؤرخين، من بين العوامل التي تفسّر عجز البيزنطيين عن صدّ غزوات الجيوش الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا خلال القرنين السابع والثامن ميلادي، لما كانت كل هذه المناطق تحت نفوذها.

الوباء الأسود ووقايه

ويعتبر وباء الطاعون الذي اجتاحت أوروبا وكلّ البلدان المحيطة بالبحر المتوسط خلال القرن الرابع عشر بعد الميلاد، والذي عُرف بالوباء الأسود، من أكثر الأوبئة سوءا في تاريخ البشرية.

ويعزى السبب الأصلي في انتشار هذا الوباء، إلى إقدام جيش التتار القادم من منغوليا بآسيا الوسطى، أثناء حصاره سنة 1347 م لمدينة كافا بشبه جزيرة القرم، برمي جثث الموتى من جنوده المصابين بهذا

طاعون بيزنطة وأول عزل صحي سجّله التاريخ

وفي منتصف القرن الخامس بعد الميلاد، عرفت بيزنطة وهي في أوج قوتها واتساع رقعتها في عهد الإمبراطور جوستينيانوس الأول (482-565 ميلادي) انتشارا خطيرا لوباء الطاعون، أودى حسب التقديرات بحياة أكثر من 30 مليون شخص، لا من القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية وحدها، وإنما من كلّ البلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط.

وسعى منه إلى الحدّ من انتشار هذا الوباء بعاصمته، أصدر جستنيانوس مجموعة من القوانين تقضي بعزل كلّ شخص قادم إلى القسطنطينية من أماكن تفشّي الوباء لمدة معينة، وغسله وتنظيف ثيابه. فكان ذلك بمثابة أول عزل صحي عرف في التاريخ. وقد حصلت جراء تفشّي هذا الوباء، آثار كارثية على الأصدعة السكانية والعسكرية والاقتصادية، ترتب عليها تبخّر أحلام جستنيانوس في استرداد وحدة الإمبراطورية الرومانية وعظمتها، وهي الغاية التي كان يطمح إلى تحقيقها طيلة مدة حكمه.



إدارة الحماية للعفو عن زوجها والإذن له بالعودة من منفاه منذ أحداث الزلاخ والترامواي بتونس في سنتي 1911 و1912. وفعلًا لم يدم هذا النفي طويلاً ليعود المحامي إلى وطنه سنة 1913 مشعباً بالتجارب السياسية بحكم البلدان التي زارها.

عاش نعمان حياة عادية مليئة بالأحداث المثيرة وكانت المادة آخر همّه فلم يترك أملاً كما تذكر أو أموالاً تستفيد منها عائلته. وبالرغم من عمله كمحام، فلم يكن غنياً كالكثير من زملائه المحامين، بل كان «ابن الشعب» كما يحلو للعديد من أبناء جيله تسميته.

دراسته الابتدائية والثانوية

تلقى محمّد نعمان تعليمه الابتدائي بالمدرسة العلوية وكان من أفراد الدفعة الأولى التي درس بها. وقد تأسست هذه المدرسة الترشيفية في 28 ماي 1884 وسميت بالعلوية (نسبة إلى الأمير علي باي الذي سلك طريق سلفه الأمير الصادق باي مؤسس المدرسة الصادقية بالإذن بعثها بإيعاز من المدير العام للتعليم العمومي بتونس، بيار لوي مشوال منذ تعيينه على رأس هذه الإدارة الجديدة المحدثّة رسمياً في 05 ماي 1883)، فكانت أول مؤسسة تعليم رسمي تهدف إلى تكوين المعلمين للمدارس الرسمية «الفرنكو-عربية» (Franco-arabes) التي تمّ بعثها خلال نفس السنة بتوجهات من وزير التربية الفرنسي «جول فيري» Jules Ferry الذي تولّى رسم استراتيجيّة مدرّوسة للتعليم بالبلاد التونسية، مستفيداً من التجربة الجزائرية. كما احتوت هذه المدرسة على قسم ثانٍ خاصّ بالتعليم الابتدائي بنظام المدارس «الفرنكو-عربية».

بعد حصوله على الشهادة الابتدائية سنة 1890، واصل دراسته بالقسم الترشحي للمدرسة حيث تتلمذ على أشهر أساتذة المدرسة وأكفئهم من الفرنسيين والتونسيين ونهل من العلوم الحديثة وتشبّع بمبادئ فلسفة وفكر التنوير وتاريخ الحضارتين العربية والغربية، ممّا مكّنه من اكتساب تكوين علمي وثقافي متين باللغتين الفرنسية والعربية. ولم يكتف بذلك بل اجتاز بنجاح امتحان البكالوريا بمعهد كارنو الذي سيخوّل له لاحقاً مواصلة دراسته العليا بفرنسا بعد تجربة قصيرة في التدريس بمدرسته الأمّ.

التدريس «أمّ البدايات»

بدأ محمّد نعمان مسيرته المهنية الطويلة كمعلّم بالمدرسة العلوية سنة 1895. وحسب شهادة حفيده المحامية الأستاذ هُند نعمان (نقلا عن والدها)، كان محمّد نعمان محبّاً لمهنته نظراً للثقافة

الرغم من مكانة هذه الشخصية الوطنية فإنّها لم تحظْ باهتمام الباحثين وباستثناء رسالة ماجستير في الآداب والحضارة العربية أعدّها الطالب نجيب البركاتي تحت إشراف الأستاذ فتحي القاسمي بعنوان «الفكر الاشتراكي في تونس والكفاح الوطني محمّد نعمان أمودجا» (كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، السنة الجامعية 2014/2015) ورسالة دكتوراه ناقشها بنجاح تحت إشرافي في رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة خلال شهر أفريل 2019، الباحث عمر القريشي بعنوان: «محمّد نعمان: مسيرة محام وصحفيّ ومناضل وطني (1875-1962)». ومقابل تعاون حفيده المترجم له، الأستاذة هند نعمان إيجابيا مع الباحثين، فإنهما لم يجدا من ابنه السيد الشاذلي نعمان التعاون لرفضه اطلاعهما على الأرشيف العائلي الذي بحوزته والمتكون من وثائق ومراسلات وصور ومخطوطات نادرة.... من شأنها أن تساعدهما على التأريخ لمسيرة والده الطويلة.

مولده ونشأته

هو محمّد بن علي الدالي خوجة بن محمّد نعمان الحنفي، من أصل تركي. ومع مطلع الاستقلال قام بإزالة «الدالي خوجة الحنفي» من مضمون الولادة ليصبح محمّد بن علي محمّد نعمان فقط. وهو قرار مرتبط بإلغاء الألقاب الطويلة وذات المرجعيات العرقية والجغرافية تطبيقاً لتعليمات أول رئيس للجمهورية التونسية، الحبيب بورقيبة لإضفاء نوع من السّلامة على المعاملات الإدارية ومنع التمييز بين أفراد المجتمع. أمّا أمّه فهي فوّنة الخياري.

وحسب مضمون الحالة المدنية ولد محمّد نعمان بمدينة تونس سنة 1877 دون تحديد لليوم (رغم الاختلاف بين المصادر والمراجع فهناك من يضع ميلاده سنة 1872 ومن يضعه سنة 1875، في حين يشير تقرير أمني للإقامة العامّة سنة 1920 إلى أنّ عمر المترجم له 40 سنة، أي هو من مواليد سنة 1880). ولم يكن محمّد نعمان من عائلة معروفة رغم جذورها التركية. فقد نشأ في بيئة متواضعة حيث كان والده علي بن محمّد نعمان حرفياً «بلاغجياً» بسوق البلاغجية بالمدينة العتيقة. وهي مهنة لا تمكّن صاحبها من أن يكون من الميسورين أو من رفعة القوم، وكذلك الشأن بالنسبة إلى ابنه ذاك الشاب اليافع الذي سيراهن على التعليم العصري كمصعد اجتماعي للخروج أولاً من بوتقة الفقر، ثمّ ليكون متعلماً ويلتحق بصفوف المثقفين الذين كانت لهم مكانة وسطوة داخل المجتمع التونسي زمن الحماية الفرنسية. تزوّج محمّد نعمان من منانة بنت الحاج أحمد سلامة وهي من عائلة ميسورة الحال. ولم يكن هذا الزواج طمعا في المال بل لكسب حظوة اجتماعية يستفيد منها في مسيرته المهنية والنضالية.

وقد استفاد محمّد نعمان من هذا النسب حيث نجحت زوجته وهو في المنفى من إيصال مراسلة إلى الباي طالبة منه التدخل لدى



محمّد نعمان

المحامي، الصحفيّ والمناضل الوطنيّ

كثيرة هي الشخصيات التي عُيّبت من تاريخنا الوطني الرسمي والكتابات الرسمية والذاكرة الجماعية للتونسيين. سواء عن قصد أو عن غير قصد وذلك في شتى المجالات والميادين. ونذكر من بين هذه الشخصيات المحامي والصحفيّ والمناضل والمثقف التونسي، الأستاذ محمّد نعمان الذي طبع الحياة السياسية والفكرية بتونس زمن الاستعمار الفرنسي (منذ مطلع القرن العشرين إلى غاية الحرب العالمية الثانية) بحكم نضاله صلب جميع التنظيمات والأحزاب السياسية التي ظهرت على الساحة الوطنية بين 1906 و1934. يضاف إلى ذلك نشاطه صلب الجامعتين الاشتراكية والشعبية الفرنسيّتين بتونس والنوادي والجمعيات الثقافية ونضاله بالقلم عبر الكتابة بانتظام في عديد الصحف والمجلات الفرنسية والتونسية الصادرة بتونس وخارجها والتي عالج فيها كل القضايا الوطنية.



• بقلم د. عادل بن يوسف

المعرفة التي كان يتمتع بها وللرسالة التي يقوم بإيصالها للمتلقى، حيث اعتبر المعلم حجر الزاوية في الرسالة التربوية وحاملا لرسالة نبيلة. وكان ينظر للتعليم على أنه مهنة راقية حتى من طرف سلطات الحماية الفرنسية آنذاك التي كانت تخشى من انتشار التعليم العصري في صفوف الأهالي، لما يشكّله من خطورة على السلطات الفرنسية. وكان يرى أنّ محاربة الاستعمار تبدأ بمحاربة الأفكار الرجعية عبر التعليم وهو ما جعله يواصل تعليمه الجامعي ويكتفي بتجربة في التدريس لمدة سبع سنوات فحسب.

من المحامين الرواد في تونس

درس محمد نعمان الحقوق بجامعة أكس بفرنس عبر المراسلة مع التحوّل في نهاية كل سنة جامعية لاجتياز الامتحانات وتوجّ بالحصول على الإجازة في الحقوق.

بدأ محمد نعمان في ممارسة مهنة المحاماة بالانخراط في سلك المحامين المتربصين في 22 جويلية 1908 بالحاضرة، فكان من جيل الرواد في هذه المهنة مع كل من الأساتذة: حسونة العياشي والبشير عكاشة وصالح بلعجوزة (مهدية سوسة) وأحمد غطّاس وأحمد بو حاجب وعلي باش حانية وعبد الجليل الزاوش وحسن القلاقي وعلي الخازمي وعبد القادر القبالي (بتونس العاصمة) وأحمد السقا (بباريس)... وهي مهنة كان يسيطر عليها الفرنسيون وبعض التونسيين اليهود. وبقي في هذه المهنة النبيلة قرابة أربع سنوات إلى حين نفيه إلى اسطنبول رفقة عدد من الوطنيين بسبب الأحكام التي أصدرتها في حقهم المحكمة الفرنسية بتونس إثر مشاركتهم في أحداث الزلاّج سنة 1911 والتماموي سنة 1912 بقيادة حركة الشباب التونسي. ولم يمنعه هذا النفي من التوق لممارسة المحاماة رغم العراقيل التي حالت دون ذلك لأنّ تركيا لا تقبل بممارسة أيّ محام أجنبي للمحاماة فوق أراضيها ما لم يكن متخرجا من إحدى جامعاتها، الأمر الذي دفعه إلى إرسال طلب للحكومة المصرية قصد ترسيمه في جدول المحامين لدى المحاكم المختلطة بالقاهرة. ورغم قبول طلبه من قبل سلك المحامين بالقاهرة فقد آثر العودة إلى أرض الوطن بسبب الحصار المفروض عليه هناك من قبل المصلحة الأمنية لسفارة فرنسا بمصر لنشاطه الحثيث للتعريف بالقضية التونسية وخاصة إثر إعلامه عبر برقية من قبل السفارة بقرار عفو السلطات الفرنسية عنه، ليعود لمباشرة مهنة المحاماة بصفة رسمية كما كان من قبل بداية من 9 أفريل 1913 بمكتبه بحي صمامه بشارع القصبه.

المحامي النصح والمدافع الشرس عن الوطنيين

إلى جانب تحريره لعقود البيع والشراء لجلّ تجار المدينة العتيقة تخصص محمد نعمان في الدفاع عن المتهمين التونسيين وغير التونسيين وبالأخص الفرنسيين منهم في قضايا مختلفة. كما نسج

شبكة علاقات واسعة جمعته بمحاميين فرنسيين، نذكر من بينهم الأستاذ «موريس لادميرال» المقيم بالجزائر.

و كان محمد نعمان خطيبا ومدافعا بارعا وذكيا ومتمرسا في مهنته، دائم الحضور في الجلسات ولا يتغيّب عن المرافعات إلا نادرا. وله حضور متميز في المحاكم، سواء كمدافع عن المتهمين أو حتى كشاهد أحيانا. ولنا في حضوره بالمحكمة الفرنسية في جانفي 1925 للإدلاء بشهادة في القضية المرفوعة ضد محمد علي الحامي مؤسس جامعة عموم العملة التونسية أفضل مثال. ففي هذه القضية التي عُرفت بـ «قضية المؤامرة ضد أمن الدولة الداخلي»، لم ينكر المترجم له علاقته بالمتهم مؤكدا على إعانة المتهم له خلال إقامته باسطنبول. وللتذكير كان المحامي محمد نعمان قد قدّم خدمة لمحمد علي الحامي بتقديمه إلى أنور باشا ليصبح سائقه الخاص . وإثر رجوعه إلى أرض الوطن سنة 1924 نصحه بعدم الانخراط في أيّ حزب سياسي اقتناعا منه «أنّه غير قادر على الوقوف ضد الدولة الحامية». وجوابا عن سؤال القاضي حول معاداة محمد علي لفرنسا، أجاب: «...إنّ الحامي شخص يقدم النصح ولا يحرض على تكوين الأحزاب أو الجمعيات...». وهنا تبرز حنكة المحامي نعمان في حرصه على عدم وضعه محمد علي في صورة المعارض الصدامي للسلطة الاستعمارية. لكن هذه الشهادة كغيرها من الشهادات لم تشفع للمتهم أمام القضاء الفرنسي الذي أصدر حكما يقضي بنفي محمد علي مع رفاقه بالجامعة خارج البلاد ! كما لاحظنا نفس السلوك أثناء دفاعه عن الزعيم الحبيب بورقيبة في قضية أحداث 9 أفريل 1938 أو ما يعرف أيضا بقضية «التامر على أمن الدولة والدعوة إلى الكره والتباغض والافتتال بين الأجناس» التي رافع فيها إلى جانب ثلثة من المحامين الوطنيين نذكر من بينهم: «برتون André Berthon و «تبير» Thibert و «ألفريد دومينيكي» Alfred Dominique و«قاستون برجري Gaston Bergery وحسن القلاقي والهادي خفشة...، حيث انتهج مع زملائه المحامين نفس استراتيجية المحكمة (التمثلة في التهديد والترفيغ في سقف التهم والأحكام أكثر ما يمكن) بالتشكيك في طبيعة الإجراءات وتقديم الطعون في التهم الموجهة لمنوبيهم. والهدف من وراء ذلك هو ربح المزيد من الوقت لتهدأ الأجواء. وفي 5 ديسمبر 1938 (نيابة عن الحزب الدستوري الجديد) وجّه رسالة إلى كوميسار الشرطة بتونس «كلابي» Clapet»، احتج فيها بقوة على اعتقال القادة الدستوريين.

كما اعترض معهم على قرار الاتهام الصادر في 10 جوان 1940 ثمّ عقب قرار الرفض الصادر عن غرفة الاتهام بمحكمة الاستئناف بالجزائر لدى محكمة التعقيب بباريس. ومع زملائه حاول نعمان الحصول على سراح مؤقت لفائدة المسجونين بمرسيليا في شهر سبتمبر 1940 من خلال العرائض التي قدمها مع حسن القلاقي للإقامة العامة في مناسبتين ملتصقا في رسالته الثانية رفع قرار المراقبة الإدارية على المتهمين السبعة.

ناشطا سياسيا ومناضلا وطنيا

انتمى محمد نعمان إلى كل التنظيمات والأحزاب الوطنية، بدءا بحركة الشباب التونسي سنة 1906 فالحزب التونسي سنة 1919، مروراً بالحزب الحر الدستوري التونسي سنة 1920 فالحزب الإصلاحي سنة 1921، وصولاً إلى الحزب الدستوري الجديد سنة 1934 وقد قيل الكثير حوله وحول المنشقين معه وفي مقدمتهم عبد القادر القبالي وحسن القلاقي والصادق الزمري وحسونة العياشي... إلى درجة رميهم بالخيانة والتعاون مع الإقامة العامة، وهو في اعتقادنا من أسباب تغييبه وعدم ذكر اسمه وأسماء رفاقه المنشقين في كتب التاريخ والمنشورات الرسمية قبل الاستقلال وخاصة بعده ولم يشفع له دخوله للحزب الدستوري الجديد ودفاعه عن بورقيبة في محنة 9 أفريل 1938 للاعتراف بدوره النضالي، فكان إلى جانب الأستاذ حسونة العياشي الناشطين الوحيدين اللذين انتميا إلى جميع التنظيمات والأحزاب التي أثرت الحياة السياسية بالبلاد التونسية دون استثناء. ورغم قصر المدة الزمنية التي كان يقضيها في كلّ حزب سياسي (شأنه شأن رفيق الدراسة بالعلوية)، فقد ترك بصمته به وخلف انطباعات مختلفة داخله، تراوحت بين شاكر ومداح له وبين ناقد ومؤاخذ لمواقفه.

كما انتمى محمد نعمان بصفة مبكرة إلى الجامعة الاشتراكية بتونس التي بعثت منذ سنة 1905 وذلك بحكم دراسته بالمدرسة العلوية وتأثره بمواقف «جون جوراس Jean Jaurès من الاستعمار، الذي اعتبر مهمة الحكومة الفرنسية هي تخليص الشعوب الأخرى من الإقطاع والتخلف ونشر الأفكار المتحررة والتطلع إلى وضعية أفضل. وكانت أبرز المطالب التي تبناها الاشتراكيون بتونس منذ سنة 1906 هي نشر التعليم وسنّ قوانين تحمي الأهالي من الاستغلال الفاحش مع ضرورة إقرار نظام يقوم على الديمقراطية. وفي ربيع 1921 انضم إلى الجامعة الشيوعية اثر انعقاد مؤتمرها بمدينة تور بين 25 و 30 ديسمبر 1920 لكنه سرعان ما غادرها في خريف نفس السنة كما غادر الجامعة الاشتراكية سنة 1933.

وبانخراطه في كل هذه الأحزاب والتنظيمات استطاع المترجم له أن يقدم للحركة الوطنية ما لم يقدمه كثيرون ممن أعمتهم المناصب الحكومية في دولة الحماية الفرنسية وهو أمر يحسب له. كما كان عنيدا في إبداء آرائه بتوظيفه لحجج منطقية تتميز بالاعتدال وعدم التصلب في بعض الأحيان.

وفي يوم 28 ديسمبر 1912 ومن اسطنبول سافر محمد نعمان صحبة عبد العزيز الثعالبي وحسن القلاقي إلى الإسكندرية حاملا معه أمالا كبيرة للتعريف بالقضية الوطنية واستقر به المطاف حسب تقرير استخباراتي بالمتحف البلدي في ضيافة المكي كّمون الصفاقي (صاحب مكتبة). وفي القاهرة ربط علاقات مع المحامي والمؤرخ

والناشط السياسي محمد فريد بك (1868-1919) وإسماعيل رفعت بك وعدد من رموز الحزب الوطني الذي بعثه وترأسه الزعيم مصطفى كامل في 22 أكتوبر 1907.

صحفيًا ألمعيًا بالقلمين العربي والفرنسي:

كتب المترجم له عشرات المقالات باللغتين العربية والفرنسية في صحف مختلفة من أهمها: Le Tunisien و Le Cri du Soir و Tunis Socialiste و L'Action Tunisienne و Leila (الخاصة بالمرأة)... باللسان الفرنسي وكل من: «الحاضرة» و «البرهان» و «تونس الاشتراكية» و «الزهرة» و «تونس» و «صوت التونسي» و «لسان الشعب» و «العمل التونسي»... باللسان العربي. وتبقى صحيفة «بريد تونس» Le Courier de Tunisie (لسان حال الجامعة الاشتراكية)، التي كان يديرها المحامي «أندري- دوران أنقليفيال André-Durand Angliviel» أكثر الصحف التي نشرت له مجمل مقالاته ومثّلت منبرا لعدد الصحفيين التونسيين لإبداء آرائهم وتوجيه سهام نقدهم للسلطات الفرنسية. وقد عبّرت كل هذه الصحف عن مواقف نعمان من كبرى القضايا الوطنية وهي تباعا: في الميدان السياسي تطرّق لقضايا: تجنيس اليهود التونسيين سنة 1910 والحرب الطرابلسية - الإيطالية سنة 1911 والمجلس الكبير وخطة المراقب المدني وبيادق الاستعمار والأحزاب الوطنية ومطالبها من فرنسا والمؤتمر الأفخارستي وقضية التجنيس والانشقاق صلب الحزب الدستوري والجامعة الاشتراكية والجامعة الشيوعية بتونس وسياسة ومواقف كل منها، والشيوعية والمسألة النقيابة... وتبقى «الرسالة البتراء» (لكونها لم تبدأ ببسملة) بعنوان «كلمة حق إلى الشعب» (وهي عبارة عن كتيّب هاجم فيها الشيخ عبد العزيز الثعالبي وكتابه «تونس الشهيدة») من أهمّ المعارك الصحفية التي خاضها نعمان في الميدان السياسي. وفي الميدان الاقتصادي عالج قضايا: الاستعمار الزراعي و الربا والزراعة والحرف والتجارة... وفي الميدان الاجتماعي تطرّق لقضايا: الفقر والتسوّل والبطالة والعمّال والعمل والمرأة والتعليم والزواج والأسرة والعمل السياسي... وفي الميدان الثقافي تناوب قضايا التعليم العمومي والتعليم المهني والمدرسة الصادقية وجامع الزيتونة والكتاتيب وجمعية التعليم... الخ.

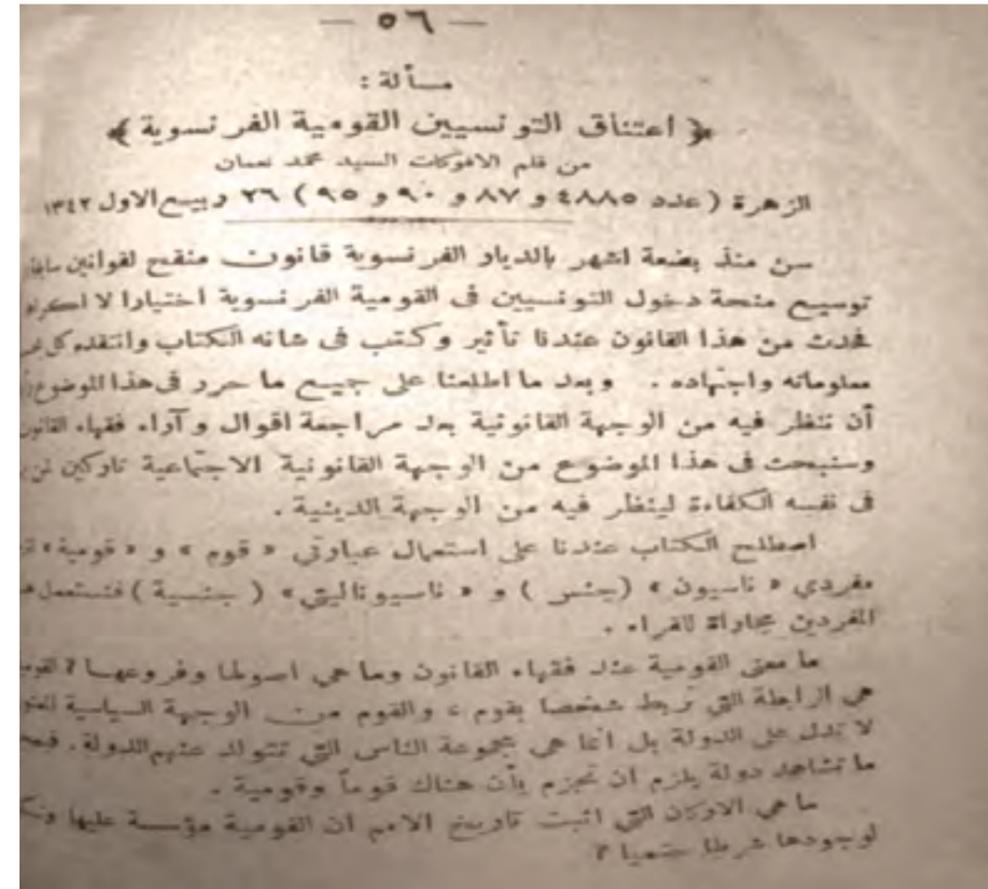
وعموما جعلت طريقة طرحه وتناوله لهذه القضايا والحلول التي قدمها لإدارة الحماية لمعالجتها من محمد نعمان صحفياً ألمعيًا واستثنائياً بكل المقاييس، يُقرأ له ألف حساب من التونسيين والفرنسيين على حدّ سواء. كما للأستاذ نعمان ثلاث مخطوطات لم تحقّق بعد، اثنتان منها حول أسباب انحطاط المسلمين، عالج فيهما معضلة الدين والسياسة وقضية الخلافة ومفهوم الوطنية... أمّا الثالثة فقد اهتمّ فيها بالجدل حول الدين والحرية...

رائدا في مجال تحرير المرأة

كتب محمد نعمان حول المرأة التونسية عديد المقالات منذ سنة 1908 (قبل الطاهر الحداد بأكثر من عشرين سنة) ومن أبرز ما جاء في كتاباته من أفكار: رعاية المرأة الريفية والمهمشة، تحرير المرأة من استعباد زوجها وزوجها، تمكينها من تربية سليمة وتعليمها في مدارس عصرية، تشريكها في الحياة العامة إلى جانب الرجل، بما في ذلك الحياة السياسية، منع زواج البنت القاصر وتخليها عن الحجاب، علاقتها بزوجها وأبنائها... الخ. ولا يمكن الإتيان على كل ما كتبه هذا المثقف الرائد عن المرأة لمدة ربع قرن، لذا اخترنا لكم مقتطفات التالية من مقالاته الصادرة بين 1908 و 1928: « (...) إنّه في التحاق الفتاة بالمدارس الحكومية دون غيرها عذّة فؤاد، أهمّها جودة التعليم بها وأهميّة مناهجه فيها، أضف إلى ذلك كفاءة الإطار التربوي. فالأساتذة ينتدبون بحرص شديد وهم متكوّنون في أهمّ الجامعات الغربية... ونحن ضدّ المدارس الخاصة التي تمثّل خطرا على الفتيات المسلمات... كما لا يجب

أن نقتصر على حذقها مبادئ الكتابة والقراءة والتاريخ والخياطة والحياسة والنسيج والأدب ومكارم الأخلاق... وعليه يجب أن يتمّ تعليم كلّ هذا باللسان العربي قراءة وكتابة حتى لا يخرج عن المبادئ الإسلامية التي تمثّل قوام التعليم الصحيح لدى المرأة... أما أبنائها المتعلمون فيحسنون بدورهم احترام أمهاتهم منذ نعومة أظافرهم، خاصة عندما يرون الاحترام المتبادل بين الأب والأخ... لتصبح المرأة في نهاية المطاف قادرة على العمل في المحلات التجارية الكبرى والمغازات واقتحام المجال الصناعي والتجاري التي ظلّت غائبة تمام الغياب عنه، فلا نجدها مثلا منتصبة في الأسواق لتبيع بضاعة أو تجدها في محلّ صناعي تزامم الرجل في مهامه... وهذه التضحيات التي تكبدتها المرأة تستحقّ أن تجد المعونة من الحكومة في هذا المجال بتقديم مساعدات لها وتكفل حرّيتها في اختيارها لعملها (...).

(...) إنّ في تسوّل المرأة الريفية وهي ظاهرة مردّها الأزمة الاقتصادية ما يدفع إلى تحقير المرأة المتسوّلة وتكلس أفكارها وأهدافها ليصبح



هدفها الوحيد جمع المال بدون أيّ تعب أو مشقّة، وتعرّضها إلى الأمراض نظرا لانتصابها بأمكنة تكون مليئة بالأوساخ والقاذورات وعادة ما تنام فيها، بل عليها أن تعمل بكدّ يديها... كما لا يجب أن تتعلّم العاملة في المنازل التنظيف فقط، بل يجب عليها أن تشكل صحبة عائلتها أو أقربائها أو أصدقائها تجمعات عمّالية متحدة لتكتسب الخبرة وأن تكون فاعلة في مجتمعها (...).

(...) أمّا زواج الفتاة الصغيرة من الشيخ المسنّ فدعو إلى القضاء على هذا التصرف السلبي والقرار غير المدروس من طرف الأبوين بدفع بناتهنّ نحو حياة لا تبدو في الواقع سعيدة. يضاف إلى ذلك غياب الانسجام والوثام بين الفتاة الصغيرة التي لم تبلغ بعد درجة النضج حتّى تستطيع الدخول في تأسيس عائلة، ثمّ القضاء على أحلامها وطموحاتها. فعوض أن تكون الفتاة في قاعات الدراسة وتنهل من مدارس العلم تجد نفسها مجبرة على القيام بواجباتها تجاه زوجها المسنّ. وهذا لا نراه كثيرا في العلاقات بين المسن والزوجة الصغيرة التي عادة ما تكون مجرد خادمة تطيع أوامر سيدها (...). و قد يبدو في الواقع أنّ المرأة بعيدة كلّ البعد عن الواقع السياسي وأحداثه المتنوعة. وأنّ أهم شيء يستفزها قضية الحجاب لكنها في الحقيقة غير بعيدة عن المسائل السياسية فهي تقيم العمل السياسي يوميا مع الصديقات وتقيم اجتماعات وحلقات في منتهى الهدوء وهو ما نفتقده لدى الرجل (...).

(...) وفي الوقت الذي نريد فيه الهروب من الاستعمار والعيش وفق نظام مؤسّساتي، على المرأة أن تقوم بثورة حقيقية على العبودية، وعليهنّ (أي النساء) أن يساهمن في أخذ القرار وأن يضعن أهمّ أولوية أمامهن نزع الحجاب الذي ظلّ لسنوات عديدة... فالحجاب هو مجرد اختراع لبعض الفقهاء المسلمين الذين عادوا إلى النصوص وأعطوها تفسيراً خياليا... فهم الذين أسسوا لمفهوم الحرام أو المحرّم... لتجد النساء أنفسهنّ مجبرات على ارتداء الحجاب حتى لا يتعرّضن للمضايقة من أولئك المتعصبين والمتزمّتين الذين لا يفقهون معنى التحضّر (...).

وفاته

توفي محمد نعمان حسب مضمون ولادته يوم 04 ماي 1962 بضاحية المرسي عن عمر يناهز الخامسة والثمانين وقد حضرت جنازته عدّة شخصيات وطنية. وقدّمت التعازي لأسرة الفقيد السيدة «ماتيلد كليمانس لوران- بورقّية» حرم الرئيس الحبيب بورقّية نظرا للمكانة الخاصة التي كان يحظى بها محمد نعمان لدى الحبيب بورقّية فهو محاميه ومن تطوّع للدفاع عنه تلقائيا ومجانا إبان محنة 09 أفريل 1938 منذ مثوله رفقة الوطنيّين الستة الموقوفين في أعقاب أحداث 09 أفريل أمام القاضي العسكري الفرنسي «دي قيران دي كايلا» (De Guérin De Cayla) بتهمة

«التآمر على أمن الدولة والدعوة إلى الكره والتباغض والاقتتال بين الأجناس».

ولم ينسَ بورقّية هذا الجميل فظلّ صديقا وفيا لمحمد نعمان وبقي يتذكره حتّى في منفاه أو في رحلاته. ولنا في ذلك عديد الأمثلة من بينها: أنّ بورقّية بعث لمحمد نعمان صورة له من القاهرة بتاريخ 11 جاون 1946 جمعته بالزعيم الوطني المصري محمد فريد بك صدرها بالكلمات التالية: « إلى الأستاذ محمد نعمان، أهدي هذا التذكار النفيس اعترافا بما له من الفضل العظيم على الحركة الوطنية في أخرج أوقاتها». وفي سنة 1954 من منفاه بضاحية شنتيّي Chantilly أرسل بورقّية إلى محاميه محمد نعمان نسخة من كتابه La Tunisie et la France عن طريق ناشر «روني جوليار» René Julliard مصدرا إياها بالإهداء التالي: «إلى صديقي الحميم، السيد محمد نعمان، إلى شيخ كفاح الشعب التونسي من أجل الحرية، إلى الزميل المخلص الذي دافع عني في الأيام الصعبة ووهب جسمه وروحه في سبيل الوطن، شهادة عن تقديري واحترامي ومودتي الدائمة».

وتأكيدا لهذه العلاقة ومنذ مطلع الاستقلال زار بورقّية في مناسبات عدة منزل نعمان بالمرسي ليستشيريه في عدّة قضايا تهتمّ الإصلاحات الوطنية التي ينوي إجراءها بالبلاد. ولا نعلم إن عرض على محاميه السابق محمد نعمان حقيبة وزارية أو وظيفة عليا في جهاز الدولة؟ لكنّ الأكيد أنّ محمد نعمان لم يستفد كثيرا من تلك العلاقة بما أنّه كان في سنة 1956 متقدّما في السنّ (81 سنة) ولم تكن سنّه تسمح له بتولي أيّ خطة عليا في دولة الاستقلال، لذا اكتفى (حسب حفيدته) بتقديم بعض النصائح كلما طلب منه منوّبه السابق ذلك أثناء زيارته له من حين لآخر ببيته بالمرسي، خاصّة فيما يتعلّق بقضايا التعليم والمرأة والإصلاح الاجتماعي، التي مثّلت الهاجس الرئيسي في كتابات الرجل و الممارك الصحفية التي خاضها ضد الإدارة الاستعمارية منذ سنة 1908.

خلّف محمد نعمان ثلاثة أولاد هم: الشاذلي وعلي ومحمود وثلاث بنات هنّ: السيدة والزّهرة ومامية.

أملنا أن تجد هذه الشخصية المنسيّة حظها من الدراسة والاهتمام من قبل الباحثين والسلطات المركزية والمحلية وفي مقدمتها وزارة العدل وبلدية تونس والنقابة الوطنية للصحفيّين التونسيّين والأحزاب السياسية، يجعل شارع أو قاعة جلسات بإحدى محاكم تونس و قاعة اجتماعات أو جائزة صحفية وطنية... تحمل اسم محمد نعمان اعترافا لما قدمه للوطن عامة وللحمامة والصحافة التونسية زمن الاستعمار الفرنسي خاصّة. 🇵🇸

ع.ب.ي

كتاب الحبيب بورقيبة الابن «تاريخنا، مقابلات مع محمد كرو»

صدرت في الأسابيع الأخيرة عن مؤسسة الحبيب بورقيبة النسخة العربية
لكتاب نُشر بالفرنسية في سنة 2013 عن دار سيريس وعنوانه

**Habib Bourguiba Jr, Notre Histoire,
Entretiens avec Mohamed Kerrou**

سيتكفل بتربيته ورعايته في غياب الأب الذي كان في غالب الأحيان
إمّا في السجن أو مبعدا. أليس «الابن اليتيم لوالد حي»؟

وعلى الرغم من أنه « من الصعب على الابن أن يحلّ شخصية
أبيه» كما قال، فقد استطاع الحبيب بورقيبة الابن أن يرسم
ملامح شخصيّة والده كما لو كان طبيبا نفسانياً: كشف عمّا كان
يعانيه من ألم عميق بسبب فقدانه حنان الأم منذ طفولته وهو
ما يفسر في نظره عطفه على المرأة وتعلقه الشديد بوسيلة التي
كانت تذكّره بوالده.. كشف كذلك عن نرجسية والده وكبريائه
ولا سيّما عن العلاقة المعقّدة التي تربطه به وبوالده «مفيدة»،
فضلا عن ضعف الرئيس أمام زوجته الثانية وسيلة التي كان لها
من التأثير عليه ما جعلها طرفا فعلا في الحكم إلى أن أطاحت
بها مناورات بطانة سوء المحيطة ببورقيبة فطلّقت بطريقة
مهينة، مثلما أطاحت هذه المناورات بأقرب المقرّبين من
الرئيس: نجله ذاته الذي كان مستشاره الخاصّ وكتبه الوفيّ
علالة العويّتي.

وعلاوة على ذلك، أفاض بورقيبة الابن الحديث
عن مرض والده منذ أن ألمّت به نوبة قلبية في
سنة 1967 قبل أن يصاب في سنة 1969 إثر
فشل تجربة التعااضد بانهياري عصبّي ظلّ لسنوات
عديدة يعالج مخلّفات بالخارج في الولايات المتحدة
وسويسرا وفرنسا وألمانيا.

طوال أحاديثه مع الأستاذ محمد كرو أظهر بورقيبة
براعة فائقة في رواية العديد من الأحداث المثيرة

اعتبر
الكتاب عند صدوره في سنة 2013 وثيقة تاريخية
في غاية الأهمية إذ أنّ شهادة الحبيب بورقيبة الابن
أبانت جوانب وزوايا في حياة «المجاهد الأكبر» ومسيرته
النضالية والسياسية لم تكشف عنها بكامل الوضوح
العديد من المؤلّفات التي تناولت حياة «المجاهد الأكبر» ومسيرته
النضالية والسياسية، ومسار الحركة الوطنية عموما.

من خلال ردوده على أسئلة أستاذ العلوم السياسية محمد كرو
التي لم تخل من جرأة، يروي النجل الأوحيد للزعيم بورقيبة، أول
رئيس للجمهورية التونسية، التاريخ، بأسلوب رشيق وبنبرة يغلب
عليها الصدق والتجرد من العواطف.. لا يكتفي بسرد الأحداث
بل إنّها يعلّق عليها ويحلّلها بعمق وينزلها في سياقها التاريخي،
ينسب ما وجب تنسيبه ويصحّح ما رسخ في الأذهان من تمثّلات
خاطئة، وانطباعات جانبية الصواب بخصوص وقائع بعينها ويفنّد
إشاعات لطالما روّجت بشأن سلوكه.

في النصّ الذي توفّق في تعريبه الأستاذ محمد
عجينة، تتقاطع سيرة الابن مع سيرة الوالد وأحيانا
مع سيرة الوطن فينطلق «بيبي» في سبر أغوار
الذاكرة مذ أن تفتّحت عيناه على محيطه العائلي
وعلى عواصف عالم السياسة وتقلّباته فتحدّث
عن حبّه الجَمّ لوالده ماتيلد التي لفتته أنبل
القيم، هذه المرأة الصامدة الصبورة التي ستعتنق
الإسلام بعد الاستقلال وستختار من الأسماء اسم
«مفيدة». كما تحدّث عن أقربائه الفرنسيين وعن
عائلة بورقيبة ولا سيّما عن عمّه محمود الذي



التي اتّسمت في نظره بالغوغائية والارتجال، والانشغال بخلافة
بورقيبة.

ويصوّر لنا الحبيب بورقيبة الابن أجواء القصر خلال سنوات حكم
بورقيبة الأخيرة ودسائس البطانة بزعامة سعيدة ساسي الطامعة
في ممارسة السلطة باسم خالها وكذلك أيام «المجاهد الأكبر» في
منفاه الأخير بمسقط رأسه المنستير قبل أن يغيبه الموت يوم 6
أفريل 2000 عن سنّ تناهز 97 عاما.

وفي الفصلين الأخيرين من الكتاب يتطرّق بورقيبة الابن إلى موقف
والده من مسألة السلام في الشرق الأوسط في علاقة بالقضية
الفلسطينية وكذلك إلى نظراته إلى الإسلام، معلنا «عودة البورقيبية
السمحة الخيرة وقد تخلّصت أخيرا ممّا ارتكبه البلاط من أعمال
شائنة ومن آخر ما أتاه من زيغ وانحراف وبحمية وحماس». و
يحدّث في الوقت ذاته من «إغراءات إقحام الإسلام في السياسة»
معتبرا أنّ «سبيل النجاة الوحيد بالنسبة إليه كما بالنسبة إلى
والده يظلّ سبيل العقل».

عبد الحفيظ الهرّام

التي عاشها وبالأخصّ تجربته الدبلوماسية في السنوات الأولى
للاستقلال والتي اعتبرها «سنوات منفاه»، مستشارا بسفارة تونس
بواشنطن إلى جانب المنجي سليم ثمّ سفيرا على التوالي بروما
وباريس وواشنطن قبل أن يضطلع بمهامّ وزير الشؤون الخارجية
ثمّ وزير العدل، بالإضافة إلى محاولة الانقلاب ضدّ الحسن الثاني
بقصر الصخيرات في سنة 1971 والتي كان شاهدا عليها.

الرواية التي تقع في 315 صفحة تتخلّلها العديد من الصور تسيّر
وفق خطّ كرونولوجي تصاعديّ، فبعد الحديث عن والده ووالدته
وفترة شبابه و«سنوات منفاه»، يأخذنا بورقيبة الابن في رحلة عبر
الزمن إلى عقد الستينات حيث عرفت البلاد سياسة التعااضد التي
انتهت بمحاكمة مهندسها أحمد بن صالح ثمّ عقد السبعينات
الذي تولّى فيه الهادي نويرة مقاليد الوزارة الأولى، وصولا إلى عقد
الثمانينات، «العقد المبتور» الذي خلف في بدايته محمد مزالي الهادي
نويرة على إثر إصابته بجلطة دماغية أقدته عن مواصلة مهامّه.

وبقدر ما أشاد الحبيب بورقيبة الابن بسياسة الهادي نويرة الذي
أصلح أوضاع الإقتصاد فإنّه انتقد انتقادا لا ذعا فترة حكم مزالي

من كتاب الحبيب بوقيبة الابن «تاريخنا، مقابلات مع محمد كرو» نورد المقتطفات التالية

تقديم أوراق الاعتماد لكينيدي

وقد حظيت لدى تعييني سفيرا لتونس بالولايات المتحدة، خلفا للمنجي سليم، بإعداد زيارة الرئيس إلى أمريكا الشمالية في ماي 1961...

زيارة بورقيبة لواشنطن

كانت زيارة والدي لواشنطن زيارة مهمة، نظرا إلى أن الولايات المتحدة كانت القوة الأعظم وإلى أنه لم يكن بيننا وبينها، على خلاف فرنسا، أية قضية أو خلاف. كانت طريقة من طرق الحصول على معلومات من مصدر أصلي، بشأن وضعه كنا لا نسيطر عليها وكنا فيها المشاهدين الذين يتنزلون أفضل موقع لمشاهدة ما يجري من أحداث. إنه لأمر طريف لأي ذكر أن سفارة المغرب سألتني بعد بضعة أشهر من ذلك عن المبلغ الذي صرفناه لترتيب زيارة الرئيس وعلى أي مؤسسة علاقات عامة كان اعتمادنا أجبتهم: «5000 دولار! ولا أية مساعدة من أحد! ولم يصدقوا لأنهم أنفقوا 150.000 على زيارة لم تكن ناجحة مثل ذلك النجاح.

كان كينيدي يتحدث عن الحرب الباردة وكان بورقيبة يعبر عن تصورات رافضا فكرة عدم الانحياز التي ما كان يمكن أن تعني بالنسبة إلينا إلا الاصطفاف ضمنا إلى جانب الاتحاد السوفياتي، لأن تونس كانت تفضل صراحة العالم الحر من خلال «انحيازها» إلى الولايات المتحدة. تواصلت رحلة والدي الكبرى إلى أمريكا (كندا والولايات المتحدة) وشملت لندن والبلدان الإسكندنافية (السويد والنرويج والدنمارك). كان آخر سفر شاركت فيه والدي بصفتها السيدة الأولى وعند «محطة استراحة واشنطن» ظلت إلى جانبا. بعد تلك الرحلة، كانت أزمة بنزرت التي أعزوها شخصيا إلى لقاء رمبويي، وإلى ما أسميه «يوم المخدوعين». كانا رئيسا الدولتين قد أخطأ أحدهما فهم الآخر. فقد اعتقد بورقيبة أنه وضع دي غول «في جيبه» وكان دي غول قد اعتقد أنه وضع بورقيبة «تحت حذائه» والحال أنهما قالا نفس الكلام. (ص 113، 114، 115)

كيف كان بورقيبة يعدّ خطابه

كانت خطابه مرتجلة ولكنه كان يعمل كامل الأسبوع لإعداد أحاديث يوم الخميس. كان دوما يصدد البحث عن أفكار في الكتب حتى يشكّلها تشكيلا ويحوّلها ويغريها بغريال الواقع المحلي. كان يرهق الشاذلي القليبي والمسؤولين عن المكتبة الوطنية



وانتظار التعليمات، بدلا من التجديد واتخاذ القرارات من تلقاء نفهمهم.... (ص 142 و 143 و 144 و 145 و 146)

كان أول من أدخل إلى تونس من أساليب التواصل المباشر، بدون نص، بواسطة لغة مستقاة من سجل الكلمات اليومية ومن كلمات كافة شرائح المجتمع. لا تلك اللغة الفصيحة التي كان يتحدث بها زعماء الفترة السابقة قاطعين أنفسهم هكذا عن الشعب فلكي يعدّ خطبة تستغرق ساعة ونصفا كان كثيرا ما يقضي الأيام أو الأسابيع وهو يحبرها. كان يعزل ويفكر طويلا فيما يعتزم أن يقوله، ثم كان يطرح الأسئلة على ما كان يستطيع إغناء تفكيره. إما بمعرفته أو بتجربته. لم يكن يكتب سوى بضع كلمات رئيسية، أربع أو خمس كلمات على أقصى تقدير، يدونها على بطاقة صغيرة لا يزيد حجمها على حجم «بطاقات الأعمال» كانت قبالة عينيه، كان على علم ودراية بكل ما سيقوله، ولكن لا شيء كان يمنعه من الارتجال والانطلاق من فكرة رئيسية. كانت الأولوية بالنسبة إليه هي الفعل وكانت الكلمة هي التي تصاحب فعلا تحدوه رؤية وأساليب عقلانية وواقعية... نعتوا بورقيبة بأنه ممثل مسرحي ولكن أي سياسي محنك وأي خطيب قادر على التأثير في الأذهان ليس كذلك؟ الممثل الكبير هو أيضا من يجسم نصه عن اقتناع وصدق لا تشوبه شائبة. وفي كثير من الأحيان، تجد من صدق الحقيقة على الركب أكثر ممّا تجده في الواقع! (ص 146)

... كان والدي، بصفته خطيبا، في حاجة إلى جمهور يستمع إليه. وسرعان ما كان يتوصل إلى شد اهتمامه من خلال التحديق في شخصين أو ثلاثة لكي يتوجّه إلى المجموعة. فهمت نجاة تلك التقنية عندما أتيت لي شخصا فرصة التحدث إلى جمهور يتألف من عديد الشخصيات المرموقة في الأمم المتحدة. فعلاوة على الطريقة، كانت خطابات والدي جزءا من التكوين التربوي اليومي للشعب التونسي. وينبغي القول إنه قد كان له لا فقط ذلك الأسلوب الصارم لجعل أشد المفاهيم عمرا في متناول السامع لكنه كان صاحب ذاكرة فذة ينبغي أن نضيف إليها حسا مرهفا هو حس الملاحظة والتشخيص. وحصيلة الأمر أنه كان يعرف كيف يفكر وكيف يتحدث وكيف يتذكر وكيف ينظر... (ص 147).

مطالبه المتكررة بحثا عن المراجع. وقد نجح في أن يطوع وينقل إلى اللغة الشعبية العامية أكثر مفاهيم الاقتصاد والقانون المدني والدستوري والجزائي وغيرها جفافة وإملالا وربما أيضا مفاهيم العلم الحديث. رأيته يتصارع مع كتابين أو ثلاثة لكي يتوصل إلى التوليف بين فكرتين أو ثلاث. لم يكن يقتصر على التفكير بمفرده وتأكيده أفكاره هي أفكاره هو ولكن كان باستمرار في حاجة إلى مراجع. كان يطالع كثيرا ويدون بعض التقييدات بكل دقة وعناية. ولكن عندما يفرغ من ذلك، كانت بيده جذاذة بسيطة سجل فيها ما هو جوهري، والكلمات الرئيسية. كانت خطابه تتصل بكل شيء: بالثقافة والسياسة والتنمية والفلاحة والتقنيات والهندام والأخلاق والروحانيات وهلم جرا.

كانت أقواله التي تبدو أحيانا في غير محلها أو سابقة لأوانها ضرورية، وكانت أحيانا ناتجة عن فكر وروية وقراءات لمصنّفات مستقاة تارة من مكتبته الخاصة، وتارة أخرى مستعارة من المكتبة الوطنية حيث له بطاقة قارئ، وكان شديد الحرص على احترام مواعيد إرجاع الكتب! كانت هنالك أيضا ملاحظات تمتدونها متبوعة بحوار مع الأشخاص المحيطين به ومع الذين من شأنهم إعلامه بخصوص بعض المواضيع، حتى يتوصل في النهاية إلى نحت الصيغة المناسبة «والكلام الصائب» إذ كان ينبغي تشرح المفاهيم حتى يتسنى نقلها إلى اللغة الدارجة. وحصيلة الأمر أن كل شيء كان موضوعا لدراسة تجرى وخطاب يُلقى ولعملية إقناع. بل إن بعض الأجانب ممن لا يفهمون العربية التونسية كانوا منبهرين برؤيته يتحدث ويحاكي الشخصيات التاريخية ويلقي الخطب الطويلة أمام الجماهير الغفيرة. وقد ذهب بعضهم إلى القول إنهم كانوا بسبب ما يأتيه من حركات جسمانية، يفهمون تقريبا كل ما كان يقول أو على الأقل كانوا يدركون فحواه! كل شيء كان بدأ في قصر هلال، وكل المستمعين كانوا أدركوا أقواله.

كانت أقواله في متناول صفوة الأدباء والعلماء كما كانت في متناول أشد الأميين رسوخا في الجهالة. ولكن كان لذلك ثمنه: فسبب أنه كان يأخذ من كل شيء بطرف ويخاطب الجميع من رئيس المصلحة إلى الوزير تعود المنفذون لسوء الحظ تلقي التعليمات

مأزق الشباب في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

أظهرت

دراسة جديدة، أشرفت عليها جامعة لايبزيغ الألمانية، أن الغالبية العظمى من الشباب في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ومن ضمنها تونس، مازالت واثقة من المستقبل، بالرغم من الحرمان الاقتصادي وضعف المشاركة السياسية. ويبدو هذا الوثوق في المستقبل مُستغرباً بالنظر إلى مشاعر الخيبة التي أثارها انتفاضات الربيع العربي عام 2011، والتي شارك فيها الشباب بوجه خاص. لكن بحكم ظروفهم الاجتماعية الصعبة يجد الشباب أنفسهم مُمرّقين بين إغواء الهجرة وتشبّثهم بروابطهم القوية بأسرهم وأوطانهم.

صدرت الدراسة الميدانية في كتاب عن دار الساقى (504 صفحات)، في أواخر 2019، وشارك في إعدادها باحثون مرموقون من العالم العربي وأوروبا، وحرّرها أستاذان ألمانيان هما يورغ غرتل ووالف هكسل. وتتمحور الدراسة حول سؤالين رئيسيين: كيف يبدو وضع الشباب بعد مُضي ست سنوات على ما يعرف بـ«الربيع العربي»؟ وكيف يتعامل الشباب مع حالات فقدان الأمن وغياب اليقين التي يواجهونها في حياتهم اليومية؟ ولإنجاز هذه الدراسة أجريت مقابلات مع نحو تسعة آلاف شاب تتراوح أعمارهم بين 16 و30 سنة، في ثمانية بلدان من منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، هي مصر وتونس والبحرين والمغرب وفلسطين ولبنان والأردن واليمن، إلى جانب اللاجئين السوريين المقيمين في لبنان.

أزمات وصراعات عسكرية

على صعيد تحديد المصطلحات، استخدم المؤلفون مصطلح «الربيع العربي» الذي بات مثيراً للجدل، بالنظر إلى دلالاته الموسمية، فهو بداية فترة زمنية، وفي الوقت نفسه هو أمانة على تطوّر إيجابي، وقرروا استخدامه بالرغم من الجدل الذي يثيره في بعض الأوساط الأكاديمية. كما ناقشوا توصيف حال الشباب في ظل الاضطرابات والأزمات التي تشهدها المنطقة، والتي تتخذ أحيانا طابع الصراعات العسكرية، والهجمات الإرهابية، وأحيانا أخرى انهيار الدولة. واختاروا في النهاية «فقدان الأمن» و«غياب اليقين» بوصفهما مصطلحين رئيسيين لوصف أوضاع الشباب.

برهنت نتائج الدراسة على أن الشبان هم الفاعلون الرئيسيون في تحديد مستقبل منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، إذ يشكّل أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين 16 و30 سنة، حوالي 30 في المئة من السكان، لذا تُشكّل مواقفهم وروايتهم مؤشرات واضحة على التطوّرات المستقبلية المحتملة في مجتمعاتهم. وبالرغم من أن الأوضاع الاقتصادية والسياسية في بلدان المنطقة لا تمنح مساحة كافية من التفاؤل، حتّى قبل أن يجتاحها وباء كورونا، رسمت نتائج الدراسة صورة لشبان يتمتّعون بمستوى تعليمي أفضل من أي وقت مضى، وعلاقة وثيقة بأوطانهم. كما أنهم يتميّزون بنظرة إيجابية للحياة، وهم مستعدّون لتحمل المسؤولية والالتزام اجتماعياً، أي بناء أسرة. غير أن هياكل السلطة السائدة في غالبية بلدانهم تحول دونهم ودون المساهمة بمواهبهم ومعارفهم، على نحو فعال، في تحديد أطر حياتهم ومجتمعاتهم. وعلى هذا الأساس يؤكّد واضعو الدراسة أن المنطقة لن تنعم بالاستقرار والنموّ إلا متى كان الشبان قادرين على المشاركة في صنع أطر المستقبل، على الوجهتين السياسية والاقتصادية، وذلك يتطلّب، بحسب ما قال الباحثون، النجاح في إيجاد نماذج مجتمعية أكثر شمولاً.

درجة الثقة صفر

أظهرت الدراسة أيضاً أن مستويات الثقة في المؤسسات الحكومية وغير الحكومية متدنّية في أوساط الشباب العرب. واللافت أن الجيش حظي بأعلى مستوى من الثقة لدى الشبان الناشطين، إذ عبّر 54 في المئة من المستجوبين عن ثقتهم الكاملة فيه. وحقّق النشطاء التونسيون واللبنانيون أعلى نسبة ثقة في المؤسسة العسكرية بـ79 في المئة، فيما سجّل أدنى مستوى من الثقة في أوساط الناشطين الفلسطينيين، بنسبة 24 في المئة. ويقول واضعو الدراسة إن النتائج لم تُفاجئهم، لأنّ الجيش في تونس لم يقف إلى جانب الرئيس الراحل زين العابدين بن علي، خلال انتفاضة 2011، وليس له تاريخ في ممارسة القمع. كما لعب دوراً حيوياً أيضاً، في مكافحة الإرهاب، في العهد الجديد. أمّا في الأراضي الفلسطينية، فلا يوجد جيش فعّال، وإمّا قوّات أمن تملك قدرات شبه عسكرية. ونتيجة للخلاف بين «حركة حماس» والسلطة الفلسطينية في أعقاب الانتخابات البرلمانية في 2006، دخلت قوّات الأمن الوطنية في مواجهة مباشرة

مع «حماس»، ما أدّى إلى تعميق الإنقسام بين الفلسطينيين. واعتبر المؤلفون أن تلك التطوّرات تُساعد على تفسير مستويات الثقة المنخفضة، بين أوساط الشباب الفلسطينيين، إزاء جيشهم. وتطرّق المسح الميداني أيضاً إلى موقف الشباب في البلدان الثمانية من القوّات الأمنية، وأتت النتائج دون المكنة التي يحظى بها الجيش، فقد صرّح 28 في المئة فقط من الشبان المستجوبين بأن لديهم ثقة كاملة في الأجهزة الأمنية. ولا تبعد الثقة بالأجهزة القضائية عن الثقة بالشرطة، فهي لا تتجاوز 27 في المئة.

مستوى أدنى

لكن ما مدى ثقة الشبان في حكوماتهم؟ يُظهر المسح الميداني أن مستوى ثقتهم في الحكومات منخفض، إذ لم يتخط 24 في المئة من المستطلعين الناشطين. وأتت ثقة اللبنانيين في حكومتهم في المستوى الأدنى، إذ أن 63 في المئة منهم لا يثقون فيها على الإطلاق. وعلى العكس من ذلك، وصل شعور الثقة لدى الناشطين الأردنيين والبحرينيين مستوى لا يقل عن 65 في المئة و80 في المئة على التوالي. وعلّق الباحثون بأنهم لا يعلمون إذا ما كانت تلك النسب ناتجة عن أداء أفضل لدى الحكومتين، أم بدافع خوف الناس من انتقادها.

أما المؤسسة التي حظيت بأدنى درجة من الثقة في أوساط الشباب بمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، فهي البرلمان، إذ أن 12 في المئة فقط، من هؤلاء النشطاء الشبان، يثقون في برلمان بلدهم، «وهو ما يدل على مستوى الوعي بتزوير الانتخابات وهيمنة السلطة التنفيذية على

السلطة التشريعية، ما يؤدّي بدوره إلى إضعاف البرلمان، بصورة أكبر ويجعله ناطقاً باسم الحكّام» على ما قال محرّرو الدراسة. ومن الأمور المثيرة للغرابة أن ثقة الشبان التونسيين في البرلمان أتت في المستوى الأدنى (10 في المئة)، إلى جانب البحرين (8) واليمن (10) وفلسطين (10)، بالرغم من أن تونس هي الوحيدة التي تشارك في إشاعة الديمقراطية في المنطقة. وأورد محررو الدراسة تصريحاً لشاب تونسي يبلغ من السنّ 25 عاماً، قال فيه: «قدّم أعضاء البرلمان وعوداً وهمية ولم يفوا بها. ليسوا أهلاً للثقة. هم لا يتحمّلون مسؤولياتهم تجاه المواطن».

واجهة مُضلّلة؟

ونقل المؤلفون أيضاً عن شبان تونسيين آخرين نعتهم للسياسيين بالكذابين المنغمسين في الخلافات، والذين لا يعملون إلا لمصلحتهم الشخصية. واللافت للنظر أن الأحزاب السياسية حظيت بأدنى قدر من الثقة لدى الشباب، ففي البحرين وتونس تبلغ النسبة على التوالي 2 في المئة و3 في المئة. وأظهر المسح أيضاً ميلاً لدى الشباب لاعتبار الأحزاب «مجرّد واجهة مُضلّلة وأدوات لاستمالة المعارضين وإضفاء شرعية على الحكام في أنظار المجتمع الدولي». إجمالاً، شكّل هذا المسح الميداني محاولة لسدّ الثغرات في المعلومات، عبر مجموعة واسعة من الأسئلة، ومن خلال عيّنة تمثّلت في ألف شاب وشابّة من كلّ بلد من البلدان الثمانية، خاصة أنه لم تُجر في الماضي، أيّة تحقيقات شاملة تتناول، بصورة منهجية، أوضاع الشباب في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وعلى مستوى عابر للأوطان. ■

رشيد خشانة

مأزق الشباب

في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا



مأزق الشباب في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

تحرير: يورغ غرتل ووالف هكسل

ترجمة: ماريا الدويهي

504 صفحات

الناشر: دار الساقى 2019



LA MATINALE 06:00 - 10:00
DU LUNDI AU VENDREDI

Durant 4 heures Hamza Belloumi entouré de Mokhtar Khalfaoui, Mohamed Boughalleb, Houcem Hamad, Malek Jlassi, Zina Zidi, Hassan Zargouni et Amine Bouneoues décryptent l'actualité : politique, économique, sociale, culturelle et insolite... Rien n'échappe à la vigilance de nos matinaliers !
Le tout dans la bonne humeur !



بطاقة

• بقلم الصحفي الوهابي

علم التنقيب

التنقيب

الرجل «الفيّاش»، الفشفاش، نقب فلان في الماء نقبة. ويقال فشفش الرجل أي ضعف رأيه وأفرط في الكذب. والماء، ماء راكد وماء يجري؛ فالراكد يتجمّع ولا يذهب في السواقي فيتحول أسنا عطنا؛ مثل الدم يتجمّع في عضو واحد ولا يتوزّع في سائر الجسد فيختر ويصيب العضو بالفساد والتلف؟ ومثل المال يتجمّع في يد واحدة ولا يتوزّع في نسيج المجتمع شأنه شأن الماء الراكد والدم المتخثر؟ كذلك هي السلطة في يد واحدة؛ وهناك اليد الظاهرة، واليد الخفية؛ ويد السلطة ظاهرة حيناً، خفية في أغلب الأحيان...

فلاّح يحفر في حقله حفرة؛ ورجل ثان يرّكن شاحنته رباعية الدّفع على حافة الطريق، ثم ينزل يتأمل الحفرة: «أهاه! هذه حفرة جميلة! أريد أن أنقلها إلى حديقتي؛ فبكمّ تبيعها، أيها الفلاّح؟»؛ والفلاّح يجيب: «هذه ليست للبيع»؛ والسائق يلح: «أدفع لك فيها عشرين ألف دينار»؛ والفلاّح يمانع؛ فلما رفع السائق العرض إلى خمسين ألف دينار، قبّل بالصفقة، وشحن الحفرة في صندوق السيارة؛ والسائق يمضي مزهواً بحفرته؛ والفلاّح يصفر: «هاي! انتظر قليلاً؛ لقد اندلقت الحفرة، وسقطت من السيارة؛ عدّ إلى الوراء قليلاً، قليلاً، حتّى أشحنها ثانية؛ على مهلك! لا تسرع! سرّ رويدا رويدا؛ أهاه! لقد سقطت السيارة في الحفرة!... لماذا تحكون رؤوسكم؟ دوّختكم حكاية الحفرة؟ وهل في ذلك ما يدوّخ؟ وليس أسهل من أن تحفر في حديقة بيتك، إن كان لك بيت، وكان لبيتك حديقة، حفرة تردم فيها تعبك وحزنك وحلمك... ولكن من أين للحكومة بحفرة تدفن فيها مشاكلها؟ ومشاكلها سعة السماوات والأرض. ■

ص.و.

صنوف وضروب، فهناك التنقيب عن التّفط والذهب وغيره من المعادن وهناك التنقيب عن الآثار والكنوز المغمورة، وهناك التنقيب حباً في التنقيب، وهناك من يتنقب عن الماء العذب فلا يفوز إلاّ مملحه... وفعل «نقب» مثير للشبهات، باعث على الشكّ والريبة. يقال تنقب عن الشيء أي بالغ في البحث عنه، كالبحث في مسالك التجارة الموازية والفاعلين في السرّ والجهر بغير حسيب أو رقيب، وهذا يقودنا إلى مسارب كثيرة المزالق والمهالك؛ فقد تبدأ التنقيب في سوق المنصف باي فتجد نفسك في الصّين أو في بلاد الواق واق مثلاً. ويقال تنقبت المرأة أي شدت الثقب على وجهها وهذا يجرتنا بقصد أو دون قصد إلى الحديث عن حرّية اللباس والحلال والحرام والدين والسياسة والاندماج والهوية وهي كما ترون مواضيع شائكة ليس هذا مجالها... ويقال نَقَبَ الرَّجُلُ عَلَى الْعَمَالِ أَي صَارَ نَقِيبًا عَلَيْهِمْ، يَمْتَلِهِمْ فِي رِعَايَةِ شُؤُونِهِمْ، وَهَذَا يَجْرَتْنَا مِنْ حَيْثُ نَدْرِي وَلَا نَدْرِي إِلَى النُّقَابَةِ وَالنُّقَابَاتِ وَحَقِّ التَّعْبِيرِ وَالْمِشَارَكَةِ فِي التَّسْطِيرِ وَالتَّقْرِيرِ وَالتَّجَمُّعِ وَالْإِضْرَابِ؛ وَهِيَ كَمَا تَرُونَ مَوَاضِيعَ تُثِيرُ حَسَاسِيَّةَ مَفْرَطَةِ لَدَى أَهْلِ الْحَلِّ وَالرِّبْطِ. وَيُقَالُ نَقَبَ الْقَمِيصُ أَي تَخَرَّقَ وَبَلَى، وَتِلْكَ عَلَامَةٌ فَرَقَ مَدْقَعُ. وَالحديث عن الفقر يجرّ من حيث نبغي ولا نبغي، إلى الخوض في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والحيف والعدل والفقر والجدد والأثرى الجدد؛ وهي كما ترون، مواضيع قد تجرّ على المنقب فيها بلاء كثيراً وشراً مستطيراً... يخصم صاحب العمل للعامل أجرة يومه فنهاره «منقوب»؛ أي أنّه اشتغل مجاناً لله في سبيل الله أو للعرف في سبيل العرف. وهناك من كان عمره كلّ منقوباً وهو يدري ولا يدري. وهناك أجيال كثيرة أعمارها منقوبة وهي لا تدري. والنقب هو الخرق أو الثقب. يقال في



بشهادة

 SPEEDTEST[®]
by OOKLA[®]

1

السرعة

Réseau 4G
في تونس 